علي ظريف الاعظمي

مختصر
تاريخ بغداد القديم والحديث
أو
بغداد في (٤٠٠٠) سنة

طبع على نفقة

نعمان الاعظمي الكتبي

سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦ م

طبع في مطبعة الفرات : بغداد

مختصر تاريخ بغداد

بقلم

علي ظريف الاعظمي

﴿ مؤلف تاريخ ملوك الحيرة وتاريخ الدولة اليونانية في العراق ﴾
﴿ وتاريخ الدولة الفارسية في العراق ﴾

طبع على نفقة

نعمان الاعظمي الكتبي

صاحب المكتبة العربية ببغداد

مطبعة الفرات — بغداد

١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م

المقدمة

كنت عازما على نشر كتاب يتضمن تاريخ العراق منذ القرن السبعين قبل الميلاد(٧٠٠٠)الى اوائل القرن العشرين بعد الميلاد اي ماجرى في العراق خلال تسعين قرن (تسعة آلاف سنة) تقريباً غير انني رأيت ماجمعته لذلك لايفي بالمرام فاجاته الى الوقت الذي اتمكن فيه من اكماله سيما وان حفريات اهل البحث والتنقيب في اطلال المدن العراقية القديمة الحاوية للآثار التاريخية لم تنته بعد .

ولئلا اعود نفسي السكون ويراعي السكوت بادرت لابراز تاريخ بغداد الى عالم المطبوعات في هذا المختصر خدمة لقومي راجيا من رجال هذا العلم الجليل ان يرشدوني الى صواب ان وجدوا لي زلة .

تأسيس بغداد واسمها القديم

اثبتت الكتب التاريخية الصحيحة المستندة الى الآثار المكتشفة حديثاً في بغداد واطرافها ان هذة المدينة من المدن الكلدانية القديمة العهد و كانت عامرة قبل الميلاد بنحو الفي سنة وقد ايدت ذلك الكتابة المنقوشة على كثير من الآجر القديم الذي وجده الباحثون فيها وقد كتب على بعضه بالحرف المسماري اسمها « بل دو دو » وعلى بعضه بغدادو اوبغدانو . ومعنى بل دودو مدينة الآله في لغة السريانيين الكلدان . والظاهر ان هذه الكلمة صحفت على توالي الاعوام والقرون الى بغداد . وقد اخطأ من زعم ان لفظة بغداد فارسية وان اصلها باغداد بمعنى عطية الصنم .

أسس الكلدانيون هذه المدينة في الجانب الشرقي من دجلة غير انها لم تكن في ذلك العهد من المدن الخطيرة وقد استولى الاشوريون عليها مراراً اثناء الحروب التي كانت تقوم بينهم وبين ملوك بابل . ومن الملوك الذين استولوا عليها اثناء تلك الحروب الملك أشور بلكلا الذي حمل بجيوشه على الملك البابلي مرودخ شايكر ومالي واخذها منه عنوة واحتل انحاء بابل ايضاً وذلك في القرن الحادي عشر قبل الميلاد فاضطر ملك بابل الى طلب صلح يرضى الملك الاشورى كما جاء في الكتابة المسمارية التي وجدها الباحثون اخيرا على الاجر الذي يرتقي الى ذلك

العهد البعيد في احدى مدن العراق . ولم تزد عمارة هذه المدينة الا في عهد الدولة البابلية الثانية ايام الملك نبوكدنصر «بختنصر» الذي بنى تجاهها قصرا على الضفة الغربية من دجلة وقد اكتشف جدران هذا القصر السر هاندي رولنصن ١٨٤٨ سنة م في نفس بغداد ووجد عليه كتابة لهذا الملك الجليل ذكر فيها فتوحاته والقابه في الحرف المسماري المنقوش على آجر الجدران كما وجد غيره اجرا كثيرا في بغداد مكتوب عليه اسم هذا الملك وغزواته بالقلم المسماري

خراب بغداد

بقيت بغداد عامرة منذ بناها الكلدانيون الى ان حمل كورش الفارسي بجيوشه على العراق سنة ٥٣٨ قبل الميلاد وقرض الدولة البابلية الثانية التي اسسها الملك بنو بلاصر سنة ٦١١ ق م واعلا مجدها ابنه بختنصر «٦٠٤ — ٥٦٢» ق م فانحطت وتحولت على توالي الايام الى قرية في الجانب الغربي من دجلة وظلت على حالها في عهد الاسكندر المقدوني الذي فتح العراق سنه ٣٣١ ق م وفي عهد خلفائه السلوقين وايام البرتيين حتى اذا مالك الساسانيون العراق سنة ٢٢٦ بعد الميلاد اتخذوها — وهي قرية — متنزها لهم لحسن موقعها وطيب هوائها(١) .

(١) دام حكم اليونان في العراق من سنة ٣٣١ الى ١٢٦ قبل الميلاد اي حكم الاسكندر ومن جاء بعد من اليونان اما الفرس البرتيون فقد دام ملكهم من سنة ١٢٦ ق م الى ٢٢٦ بعد الميلاد ثم قرضهم الساسانيون وظلوا من سنة ٢٢٦ م الى سنة ٦٣٧ م .

المسلمون وبغداد

لما جاء المسلمون من الحجاز لفتح العراق بقيادة خالد بن الوليد بطل الاسلام كان في بغداد سوق من احسن الاسواق يعرف بسوق بغداد يجتمع فيه الناس في كل شهر مرة ويأتيها التجار من سائر البلاد وكان فيها عدا ذلك عدة اديرة يسكنها جماعة من الرهبان «بطاركة النساطرة» فاغار عليها احد قواد المسلمين المثنى بن حارثة الشيباني يوم سوقها سنة ١٣ هـ فانهزم اهلها فنهب سوقها واخذ كل ما كان فيها من الاموال الثمينة فخربت من جراء تلك الحادثة الا بعض الاديرة وظلت خربة ليس على أطلالها غير تلك الاديرة في عهد الخلفاء الراشدين وايام الامويين (١)

تجديد بغداد

بعد ان قامت الدولة العباسية على انقاض الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ الموافق لسنة ٧٥٠م وآلت الخلافة بعد السفاح الى اخيه ابي جعفر المنصور «١٣٦ — ١٥٨» هـ «٧٥٤ -- ٧٧٥» م اراد هذا الخليفة موقعاً ذا اهمية من جهة ادارة الملك طيب الهواء حسن التربة ليبني فيه

(١) دامت راية الخلفاء الراشدين على العراق من ٦٣٧-٦٦١م ثم راية الامويين ٦٦١ - ٧٥٠ م مع ايام المختار وابن الزبير .

عاصمة جديدة بدلا من الهاشمية التي بناها اخوه السفاح قرب الانبار (١) فلم يجد احسن من موقع بغداد امر في بنائها بعد ان اعد ما يحتاجه لذلك ووكل على بنائها اربعة من قواده منهم خالد بن الصلت وعلى هندسة البناء الحجاج بن ارطاة وعلى عد اللبن الامام ابا حنيفة النعمان (٢) وجرى احتفال عظيم بتأسيسها حضره جم غفير فيهم رجال الدولة والامراء والعلماء والوجوه ووضع الخليفة اول لبنة بيده وقال (بسم الله والحمد لله وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) ثم قال ابنوا على بركة الله . فشرعوا في البناء وذلك سنة ١٤٥ هـ الموافقة لسنة ٧٦٢ م .

ولما بلغ البناء ارتفاع قامة جائه الخبر بقيام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن الامام علي بالمدينة « يثرب » وكان قد بايعه اهلها بالخلافة ولقبوه بالمهدي و بالنفس الزكية فجمع الجموع وارسل اخاه ابراهيم الى العراق في ثلاثين الفاً فدخل البصرة و بايعه اهلها ثم ارسل من استولى على الاهواز وواسط فأمر المنصور بقطع بناء بغداد واشتغل

---

(١) لا صحة لما قيل من ان المنصور كره الهاشمية لقربها من الكوفة التي كانت حينذاك مركز الفتن اوانه كرهها منذ ثار عليه جماعة الراوندية سنه ١٤١ هـ اوانه كان خائفاً من اشياع ابي مسلم الخراساني الذي قتله في ساباط فبنى بغداد وحصنها وغاية ماهنالك انه بناها لاهمية موقعها من جهة ادارة الملك ولا يخفى ما في ذلك من عظيم الغاية بتدبير امر الدولة .

(٢) كان هذا الامام من شيعة محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية وكان يرى الخلافة له فحفظ ذلك له المنصور واخذ يجامله بادئ بدء ثم حبسه على القضاء سنة ١٥٠ هـ فمات في الحبس بعد ايام قلائل ودفن في مقبرة الخيزران (جزء من الاعظمية) وكان مولده بالكوفة سنة ٨٠ وهو فارسي الاصل ومن حزب العلويين .

يحرب محمد واخيه وارسل ابن اخيه عيسى بن موسى في جيش كثيف الى الحجاز فقاتل محمداً حتى قتله وفل جموعه وقتل كثيرين من اهل بيته وذلك سنة ١٤٥ هـ فلما بلغ ابراهيم خبر قتل اخيه سار بعسا كره قاصداً الكوفة فلاقاه عيسى بن موسى وكان قد عاد من الحجاز فحاربه وتمكن بمهارته الحربية من تمزيق جيش ابراهيم وقتله وبذلك انتهت هذه الفتنة وامن المنصور جانب العلويين وتفرغ لبناء بغداد وانتقل اليها سنة ١٤٦هـ قبل ان يتم بناأها ثم اتمها سنة ١٤٩ هـ .

القرى التي دخلت في بغداد

ادخل المنصور في عاصمته الجديدة عدا بغداد القديمة عدة قرى كانت لنصارى الكلدان منها قرية سونايا كان فيها دير مارفيثون الذي سماه العرب الدير العتيق وصارت بعد بناء بغداد محلة تعرف بالعتيقة وموقعها الآن في المحلة المسماة كرادة مريم . ومنها قرية براثا كان فيها سوقاً وجاماً وقد بقى اسمها على محلها . ومنها قرية ورثا وكانت عامرة ايضاً فسميت بعد ادخالها بنهر القلائين وصارت محلة كبيرة في شرقي الكرخ ومنها ديركليليشوع كان لبطاركة النصاطرة ايضاً . ومنها بستان كانت لاحد رجال الاسرة الساسانية «الاكاسرة» صار في محلها دار عمارة بن حمزة مولى المنصور وهومن ولدابي لبابة مولى النبي (ص) . ومنها سوق يقال له سوق الثلاثا كان يقوم عليه سوق في كل شهر مرة

يوم الثلاثا لاهل المدن والقرى المجاورة له فنسب الى اليوم الذي كانت تقوم فيه السوق و بقي الاسم عليه بعد عمارة بغداد وصار محلة كبيرة ذات اسواق واسعة (١) .

هندسة بغداد

بنا المنصور بغداد بشكل مستدير وجعل قصره ومسجده الجامع في وسط المدينة وحول ذلك قصور الامراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة وبينها الاسواق وحول ذلك دور الاهالي وجعل المدينة اربعة شوارع كبرى تمتد من ابواب المدينة الى مركزها وجعل عدة شوارع خارجة من الشوارع الكبيرة وكانت تلك الشوارع تنسب الى الامراء والقواد الذين اقطعهم المنصور القطائع فبنوا فيها قصورهم ومنازلهم وجعل المدينة سورين داخلي وخارجي فالداخلي وهو الاول مما يلي المدينة فكان علوه « ٣٥ » ذراعاً وعرضه « ٥٠ » من اسفله و « ٢٠ » ذراعاً من اعلاه وجعل عليه مائة وثلاث وستون برجاً وحوله خندق عميق اما السور الخارجي فكان علوه ثلاثون ذراعاً وعرضه كعرض الاول وليس عليه ابراج وبينه وبين الاول ستون ذراعاً . وجعل المدينة اربعة ابواب من الحديد متوازيات شرقي وغربي وشمالي وجنوبي ومثلها في السور الخارجي ووضع

(١) قال ابن بطوطة في رحلته عند ذكر اسواق بغداد وذكر سوق الثلاثا : قال وفي آخره اي سوق الثلاثا المدرسة المستنصرية . ولا يخفى ان المدرسة المستنصرية في الجانب الشرقي من دجلة فعليه من المحتمل ان يكون السوق الذي ذكره ابن بطوطة قد حدث اخيراً لمضاهاة سوق الجانب الغربي القديم .

لها اسماء وهي باب الكوفة وباب الشام وباب البصرة وباب خراسان وجعل على كل باب في السور الداخلي قبة ارتفاعها خمسون ذراعاً وعلى كل باب قائداً فكان على باب الكوفة خالدالعكي فيالف رجل « جندي » وعلى باب الشام سليمان بن مخالد في الف رجل وعلى باب البصرة ابو الازهرالتميمي في الف رجل وعلىباب خراسان مسلمة بنصهيب الغساني في الف رجل . وكانت المدينـــة كلها ميلين في ميلين (١) وقد بلغت نفقات بنائها ثمانية عشر الف الف دينار « ١٨ مليون دينار » وبعد ن تم بناؤها مد اليها قناتين احدهما من نهر دجيل الآخذ من دجلة والآخرمن نهر الكرخ الآخذ من الفرات وجرهما الى مدينته في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالآجر والصاروج « النورة » من اعلاها فكانا يدخلان المدينة وينفذان في القصور والشوارع والاسواق والارباض « المروج او الساحات المنظمة » ويجريان صيفاً وشتاء .

اما قصر المنصور وهو المعروف بقصر الذهب فكان في صدره ايوان طوله ثلاثون ذراعا في عرض عشرين ذراعا وفي صدره مجلس عشرون ذراعا في عشرين ذراعا طولا وعرضاً وارتفاعاً وفوقه مجلس مثله عليه القبة الخضراء التي كان ارتفاع سطحها عن الارض ثمانين ذراعاً وكانت ترى من اطراف بغداد« ٢ » وفى القصر غرف للاذن يقيم فيها الوافدون على

(١) اي اربعون دقيقة او اربعة آلاف ذراعاً مربعاً

« ٢ » وقد سقطت هذه القبة سنه ٣٠٩ هـ وقيل سنة ٣٢٩ هـ في ليلة شديدة العواصف والمطر .

الخليفة ريثما يؤذن لهم (كغرف الانتظار اليوم) .

ولما تمت عمارة بغداد جاءت وفود الملوك والامراء لتهنئة المنصور على بناء مدينته وتهافت الناس من كل حدب وصوب على بغداد وسماها المنصور مدينته السلام «١» بمعنى مدينة الله لان الله هو السلام ومن المحتمل انه اراد الاحتفاظ باسمها القديم واحيائه فسماها بهذا الاسم ولا يخفى ان كلمة بل دود والتي بمعنى مدينة الاله وكلمة مدينة السلام التي بمعنى مدينة الله سواء .

بغداد والعلوم

لما نزل المنصور عاصمته الجديدة بوزرائه وحاشيته ومواليه ونقل من الهاشمية اليها خزائنه ودواوين دولته واتم نظام المدينة وترتيبها تفرغ لنشر العلوم واستجلب المترجمين من اقاصي البلاد فترجموا له كتبا كثيرة في الفلسفة والهيئة والهندسة والادب والفلك والطب واهتم كثيرا بترجمة الكتب الاجنبية الى العربية وهو اول من فعل ذلك من الخلفاء وانشأ ببغداد مدارس للطب والشريعة صرف عليها اموالا طائلة وشجع العلماء على تدوين العلم وكتابته من التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو والمعاني والبديع والبيان والتاريخ وغير ذلك فالفوا في عهده كتباً كثيرة في علوم مختلفة ودونت الكتب العربية واخذت انوار العلوم والفنون تسطع في المملكة الاسلامية وخصوصاً بغداد التي غصت يوم ذلك بالعلماء والادباء .

«١» وكانت تسمى مدينة المنصور ودار السلام ودار الخلافة وبغداد ثم الزوراء ايضاً .

توسيع بغداد

ما دخلت سنة ١٥١ هـ الا وازدحمت مدينة السلام بالذين تهافتوا اليها من العلماء والتجار والباعة وارباب الصنائع واصبحت غير كافية لقاطنيها فاضطر المنصور الى بناء قصر له خارج المدينة ليتبعه الناس فبنا قصر الخلد على دجلة وراء باب خراسان(١) وتولى بنائه ابان بن صدقة والربيع (وزير المنصور) وقد سماه قصر الخلد تشبيهاً بجنة الخلد لما فيه من المناظر الرائقة. ولما تم بنائه بني الناس حوله المنازل حتى صار محلة كبيرة تعرف بالخلد.

البدأ في بناء الرصافة

دخلت سنة ١٥٤ هـ والازدحام ببغداد يزداد يوما فيوما فارتأى المنصور ان يجعل المدينة على جانبي دجلة ليقلل الازدحام وصادف مجيء ابنه محمد المهدي بعسكره من خراسان فنزل الرصافة فامره المنصور ان يبقى بعسكره هناك واقطعهم القطائع فابتنوا المنازل وغيرها فعرفت يوم ذاك بعسكر المهدي ثم امر بنقل الاسواق الى جهة الكرخ بناحية المدينة فنقلت وسميت محلة الكرخ الشرقية ووسع طرق المدينة وارباضها وذلك سنة ١٥٦ هـ ثم بنا قصرا وجامعا كبيرا في الرصافة فبادر الناس الى بناء الدور والاسواق حول القصر والجامع.

---

(١) من بقاياه المسناة المعروفة الان بمسناة خضر الياس على مايقال

ولما اصبحت بغداد شطرين شرقي وغربي وصارت الرصافة بلدا كبيرا لاتقل عن مدينة السلام عقد المنصور جسرا عند باب الشمير ثم عقد آخر عند سويقة قطوطا ثم آخر بباب البستان جعله للنساء فاخذت بغداد توسع فامتدت جنوباً وشمالا غير ان الرصافة لم يتم بناؤها الا في ايام محمد المهدي بن المنصور .

ولما توفي المنصور وتولى الخلافة ابنه محمد المهدي «١٥٨—١٧٩»ه «٧٧٥—٧٨٥»م بنا جامعاً في الرصافة اكبر من الذي بناه ابوه فيها وبنا له مأذنة لازالت قائمة حتى اليوم (١) وبني سور الرصافة وابوابها وحفر حولها خندقا وكان فراغه من بناء الرصافة او الجانب الشرقي سنة ١٥٩ ه

بغداد بعد المنصور

جلس محمد المهدي على عرش الخلافة وبغداد غاصة بالعلماء والحكماء والادباء والشعراء والفلاسفة والكتاب والاطباء واهل الصناعة من عرب وغيرهم من الذين تهافتوا اليها منذ عهد ابيه فسار هذا الخليفة سيرة ابيه في بث العلوم وتشجيع العلماء على نشرها وفتح عدة مدارس ببغداد وطارد الذين مرقوا من الدين من اهل بغداد وغيرها وكانوا قد ترجموا كتب ماني

(١) من بقايا جامع المهدي الان جامع الخلفاء في محلة رأس القرية وكان قد وسعه الرشيد وجدده ثم جدد مراراً ايام خلفائه اما وضعه الحالي فهو من بناء سليمان باشا الكبير والي بغداد المقتول سنة ١٢٢٥ ه وهو جزء من الاصل وكان يلصقه مقابر العباسيين . اما المأذنة فهي اليوم في وسط السوق وتعرف بمنارة سوق الغزل وقد رممت قبيل اعوام .

الفارسي وغيره وصنفوا في تأييدها عدة كتب ارادوا بها نشر مذهبهم فقتل المهدي اكثرهم ونجا من فر وامر اهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال ذلك المذهب وجد كل الجد في اعلاء كلمة الدين الاسلامي وبالغ في احترام رجال العلم والادب وقربهم حتى انه اتخذ ببغداد مواسم يعرض عليه فيها رجال العلم والادب بضاعتهم من علم وفن وصناعة فيجيزهم عليها .

وتولى بعد المهدي ابنه موسى الهادي «١٦٩-١٧٠» ه «٧٨٥-٧٨٦» م ولم يملك سوى سنة وشهر ولم يحدث في ايامه شيء يستحق الذكر غير ان الحركة العلمية والتجارية والعمرانية كانت في ايامه سائرة ببغداد على ما كانت عليه ايام اسلافه .

ارتقاء بغداد

توفي الهادي فجلس على عرش الخلافة اخوه هرون الرشيد « ١٧٠-١٩٣ » ه « ٧٨٦ — ٨٠٩ » م ففتح صدره للعلماء والحكماء والادباء وبذل من الاموال ما لا تحصى لبث العلوم والفنون ورأت بغداد في عهده من العز والاقبال والثروة والجاه ما لم تره مدينة في ذلك العهد واصبحت مهد الحضارة والتمدن ومركز العلوم والفنون والآداب وزهت بالعلماء والحكماء والادباء والشعراء والكتاب والخطباء وانشئت فيها المراصد والمكتبات والمارستانات « ١ » والمدارس حتى كان فيها يوم ذاك ثلاثون مدرسة

« ١ » كانت مدرسة للطب ومستشفى معاً وكلمة مارستان او بيمارستان فارسية معناها مكان المرضى اي مستشفى .

عالية ومئات من المدارس الابتدائية عدا المدارس التي بناها هذا الخليفة لدرس علوم الدين في كل مسجد من مساجد بغداد . وزادت عمارة بغداد «جانبيها» وكثرت المباني حول سوري المدينة «مدينة المنصور والرصافة» وامتدت القصور والمعاهد العلمية على ضفتي دجلة وكثرت القصور الفخمة والمنتزهات والحدائق والمصانع وانقسمت بغداد يوم ذاك الى اربع وعشرين الف محلة لكل محلة شارع ومسجد وحمام وكان فيها اربعة آلاف معمل الزجاج وار بعمائة طاحونة مركبة على الماء[١] وثلاثون الف معمل للكوز وخمسة جسور اثنان عند باب الشماسية «موقع محلة الشماسية اليوم محلة الصليخ التي في غربي الاعظمية» وآخر في وسط بغداد واثنان في طرفيها عدا ما كان فيها من المعامل الكثيرة المختلفة للنسج وغيره وعدا الشركات الوطنية التي كانت تشتغل بتجارة محصولات العراق . ومن فرط اهتمام الرشيد بالعلوم والفنون بنا مكتبة عظيمة في بغداد سماها بيت الحكمة وجعل لها قيما يدير شؤونها يسمى صاحب بيت الحكمة وجمع فيها كتباً عظيمة في علوم مختلفة مما جمعها جده المنصور وابوه المهدي وما عثر عليه هو اثناء حروبه في انقره وعمورية وغيرها من بلاد الروم فكان يجتمع في هذه المكتبة المترجمون والعلماء والكتاب والادباء والخطباء كل يوم للترجمة والمطالعة والمناظرة وقد ترجمت فيها كتب كثيرة في علوم مختلفة سيما ما ترجم للرشيد . وخلاصة القول ان

(١) كانت الانهار تجري حول بغداد فتدخل بساتينها وحدائقها وقصورها وشوارعها واسواقها ثم تخرج الى جهة ثانية من البادية الى المزارع والبساتين.

بغداد لم تر اياماً اجل واسعد من ايام هرون الرشيد فقد كان اهلها نحو المليونين نسمة وفيها جاعات من فحول رجال العلوم والفنون واساتذة الطب والفلسفة وفيها كل ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين بل كانت ايامها ايام هذا الخليفة كلها اعياد واعراس تحمل اليها الجزية من ملوك الروم وتفدها الامراء والملوك للتقرب من هذا الخليفة الجليل القدر. من ذلك الوفد الذي ارسله شارلمان الكبير ملك فرنسا سنة ١٩٢ هـ الموافقة لسنة ٨٠٧م يطلب من الرشيد السماح للفرنسويين في زيارة بيت المقدس فاكرم الرشيد مثوى ذلك الوفد واحسن ضيافته واجاب طلب شارلمان و بعث اليه بهدية فاخرة من مصنوعات بغداد منها سرادق كبير من الحرير وساعة كبيرة دقاقة و بسط ديباج وشطرنج من العاج بديع الصنعة لم يزل بعض احجاره محفوظه في المكتبة الاهلية بباريس . بل ان الدولة العباسية بلغت في عهده ابان مجدها ومعظم سلطانها وتفجرت فيها ينابيع الثروة وعلت كلمة رجالها وعاش رعاياها في بحبوحة الامن والهناء تحت راية هـذا الخليفة العادل .

نكبة البرامكة

لم يحدث في ايام هرون الرشيد ببغداد ما يقلق الافكار غير نكبة البرامكة المشهورة وتحرير خبرها هو ان الرشيد لما عاد من مكة سنة ١٨٧ هـ ومعه جعفر البرمكي اقام بناحية مدينة الانبـار وكتب سراً الى السندي بن

شاهك رئيس شرطة بغداد يأمره بالقبض على يحيى بن خالد بن برمك وعلى ابنه الفضل وتوقيرهما حديداً وحملهما الى الحبس المعروف بحبس الزنا دقة وامره ان يقبض بعد حبسهما على اولاد يحيى واولاد اخوته وقرابته ففعل السندي ذلك وجعفر بالانبار مع الرشيد لا يدري بما جري. ثم ارسل الرشيد حماد ابن سالم ومسرور الخادم في جماعة من الجند وامرهم بالقبض على جعفر فقبضوا عليه وجاؤا به الى منزل الرشيد فامر ياسراً بقتله فقتله ثم امر فارسل رأسه وجثته الى بغداد وصلبت الجثة على الجسر وعلق الرأس على الجانب الآخر من الجسر ثم صادر جميع اموالهم من منقول وثابت

وسبب ذلك هو ان البرامكة الفرس بعد ان قربهم الرشيد واستوزرهم استبدوا في الدولة وانها لوا على الاموال واخذوا يولون من شاؤا ويعزلون من شاؤا واستفحل امرهم واتسعوا اتساعا عظيما وغلب نفوذهم وتمكنوا من الدولة دون الرشيد خصوصاً جعفر فانه زاحم الرشيد في الابهة وعظمة الملك وجاراه في ملبسه ومأكله وفي كل شيء فاضطر الرشيد الى الفتك بهم خوفا من ان يتغلبوا على الملك او يخرجوا الخلافة من يده سيما وقد رأى منهم ميلا للعلويين .

اول نكبة اصيبت بها بغداد

مات الرشيد فتولى الخلافة ابنه محمد الامين «١٩٣—١٩٨» ه «٨٠٩—٨١٣» م فانهمك في الترف والشهوات وكان ضعيف الرأي

مسرفا واضعف رأيه نقض بيعة اخيه المأمون وبايع بولاية العهد لابنه موسى وذلك سنة ١٩٤ ه فنقم الناس عليه واستاء كبار الامة وتأثر المأمون ونيته ولكنه لم يحرك ساكناً وهو يومئذ بين اخواله الفرس في خراسان وال . والذي حمل المأمون على ذلك هو ان وزيره الفضل ابن الربيع كان يكره المأمون ويخاف منه فحسن للامين خلعه واغرى الذين يجالسونه على تحسين هذا الرأي له فظن الامين ان هذا رأي السواد الاعظم من الناس فاعلن ذلك وابطل ما كان رتبه ابوه الرشيد برأيه السديد من توديع الخلافة اليه ثم للمأمون. ولم يكتف بذلك بل انه استدعى المـأمون اليه ببغداد للقبض عليه فامتنع المأمون والتفت حوله الناس وقطع البريد فاشتدت العداوة بينهما وقطعت الطرق من بغداد الى خراسان وذلك سنة ١٩٥ ه فلم يقف الامين عند هذا الحد بل ساقه غروره الى قتال اخيه فجهز جيشاً مؤلفا من عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة علي بن عيسى فتذمرت الناس عليه لغدره باخيه ولحق بالمأمون جماعة كبيرة من كبار بغداد ووجهائها وامرائها منهم القاسم ابن الرشيد والمنصور بن محمد المهدي . فلما بلغ ذلك المأمون جهز اربعة آلاف مقاتل وارسلهم تحت قيادة طاهر بن الحسين دفاعا عن نفسه وعن حقه الذي خوله اياه والدهما الرشيد « وهو ولاية العهد بعد اخيه » فالتقى الجيشان بالقرب من مدينة الري وانتهت المعركة بقتل قائد جيوش الامين وانكسار جنده فلما علم بذلك المأمون امد طاهراً بجيش آخر تحت قيادة هرثمـة بن اعين وامره بالزحف على بغداد فسار طـاهر

بالجنود نحو بغداد . اما الامين فانه جهز جيشاً آخر تحت قيادة احمد ابن مرثد وعبد الله بن حميد فاختلفا في الطريق وعادا الى بغداد قبل ان يلتقيا بجيش المأمون فتقدم طاهر الى بغداد وحاصرها حصاراً شديداً دام سنة كاملة وسادت الفوضى في المدينة وانقسم الناس فيها الى قسمين قسم للامين وقسم عليه وكانت الفتنة حينذاك عظيمة جداً لم تصب بغداد بمثلها انتهبت الاموال وهدمت المنازل وقاتل الاخ اخاه والابن اباه واحترقت دور كثيرة من جملتها دواوين الحكومة وقصور الامين التي بالخيزرانية وانتهت الفتنة بانكسار جيش الامين المدافع وسقوط بغداد بيد طاهر وذلك سنة ١٩٨ هـ .

تولية المأمون وبغداد

بعد ان سقطت بغداد بيد طاهر بن الحسين ودخلها قبض على الامين وحبسه ثم ارسل اليه جماعة من الفرس في منتصف الليل فقتلوه اسوأ قتلة وحزوا رأسه فارسله طاهر الى المأمون ولما اصبح الصباح جمع طاهر الناس وصلى بهم وخطب للمأمون بالخلافة « ١٩٨ — ٢١٨ » هـ « ٨١٣ — ٨٣٣ »م وبقي طاهر ببغداد يدير شؤونها اياما ثم ارسل المأمون الحسن بن سهل في السنة نفسها الى بغداد وولاه العراق وبلاد الجبل وفارس والاهواز والحجاز واليمن وكتب الى طاهر يأمره بتسليم مقاليد الامور الى الحسن وامره ان يسير هو الى الرقة وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب .

فلما استلم الحسن بن سهل زمام الامور ببغداد ولى عليها علي بن هشام وسار هو الى المدائن واقام فيها . فلما كانت سنة ٢٠١هـ ماطل ابن هشام الجند في مرتباتهم فثاروا عليه واخرجوه من بغداد وبايعوا المنصور بن محمد المهدي بالامارة عليهم واتفق معهم اهل بغداد غير ان هذا الامير لم يتمكن من تدبير الامور وضبطها فكثرت الفتن في المدينة وتوالت فيها الثورات وكثر النهب والسلب فاجتمع الوجوه والفوا جيشاً سموه المتطوعة تحت قيادة سهل بن سلامة الانصاري فقمع هذا الفتن وقطع دابر المفسدين فهدأت الاموال وخضع الجميع لامر المأمون .

خلع المأمون ومبايعة ابراهيم ببغداد

كان المأمون يحب العلويين حباً جماً فارتأى في سنة ٢٠٢ هـ ان يبايع علي الرضا بن موسى الكاظم بولاية العهد وكتب منشوراً بذلك وارسل صوره الى جميع المدن الاسلامية يقول فيه « انه لم يجد في بني العباس وبنى علي افضل ولا اورع ولا اعلم من علي الرضا فلذلك جعلته ولي عهد الخلافة من بعدي » فلما وصلت صورة هذا المنشور الى بغداد ثار اهلها وفي مقدمتهم العباسيون وقالوا لا ندع الخلافة تخرج من بني العباس ثم اجتمع الامراء والوجوه وخلعوا المأمون وبايعوا ابراهيم بن محمد المهدي بالخلافة ولقبوه المبارك . فسار ابراهيم سيرة حسنة وجهز الجيوش فقوى امره وغلب على جميع المدن العراقية ثم سار بجيوشه من بغداد ونزل المدائن وعسكر بها .

فلما كانت سنة ٢٠٣ هـ كتب المأمون الى اهل بغداد يقول لهم «انما نقمتم علي بسبب علي الرضا وقد مات» فاضطربت بغداد وثار اهلها على رجال ابراهيم وانتهى الاضطراب بخلعه والدعاء للمأمون بالخلافة فتفرق رجال ابراهيم وجنده وهرب الفضل بن الربيع مثير تلك الفتنة ودخلت جيوش المأمون بغداد واستلم رجاله الامور وقبضوا على جماعة من زعماء ذلك الانقلاب وحبسوهم اما ابراهيم فانه اختفي (١)

المأمون في بغداد

دخلت سنة ٢٠٤ هـ فارتأى المأمون ترك خراسان والاقامة في بغداد حسماً للفتن التي كانت تقوم فيها بايعاز قرابته العباسيين خصوصاً بعدما بايعتهم ابراهيم بالخلافة فانها جعلته يتخوف منهم فانتقل اليها باهله ورجاله وخزائنه فلما استقر فيها هدأت الاحوال وتفرغ لخدمة العلوم والفنون وجد كل الجد في نشرها واستئصال شأفة الجهل فوسع دار الحكمة او بيت الحكمة الذي اسسه ابوه الرشيد وافرد فيه لكل علم رواقاً فازدحم هذا البيت بالعلماء العظام والفلاسفة وكبار المترجمين ورجال التأليف وائمة اللغة والادب . وجمع المترجمين فترجموا له كتباً كثيرة في علوم مختلفة وتنشيطاً

---

(١) وظل مختفياً الى سنة ٢١٠ هـ فقبض عليه المأمون وعفى عنه ولكنه قتل من كان يسعي لمبايعته وكان اكثرهم محبوسين في بغداد منهم ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ومحمد بن ابراهيم الافريقي ومالك بن شاهي وغيرهم وظل يتجسس على ابراهيم خوفا من ان يتغلب عليه وكان ابراهيم من علية اهل الادب والشعر وكانت خلافته سنة واحدى عشر شهراً .

لم يبذل زنة ما يترجم له ذهباً وكان قصره (١) مجمعاً للعلماء والحكماء يجتمعون فيه فيناقشهم و يناظرهم في علوم مختلفة . ومن فرط عنايته بالعلوم جلب كثيراً من علماء الاجانب للاستفادة من علومهم وارسل وفداً الى بلاد الروم لترجمة الكتب المفيدة ونقل من خراسان الى بغداد حمل مئة بعير من الكتب الخطية النفيسة ووضع في مكتبة واحدة مليوناً من الكتب الثمينة وشيد المعاهد العلمية والمراصد الفلكية الفخمة والقصور المنيعة والمصانع الجليلة والمدارس العالية حتى بلغت المدارس العالية في عهده ببغداد ثلثمائة واثنان وثلاثون مدرسة كلها غاصة بطلاب العلوم والفنون مبنيــة على احسن طراز واتم نظام عدا المدارس الابتدائية والمارستانات التي كانت مزدحمة بالاطباء وتلاميذهم وعدا المعامل المختلفة التي منها معامل نسج الاقمشة المتنوعة الفاخرة .

وخلاصة القول ان المأمون قضى معظم اوقاته في خدمة العلوم والمعارف ونهض لاتمام مانهض به اسلافه من ترجمة الكتب المفيدة ككتب الفلسفة والطب والفلك والهندسة والجبر والكيمياء وغير ذلك فكان بعمله هذا استاذ الحضارة الحاضرة لانه كان حلقة اتصال بين المدنية القديمة والمدنية الحاضرة التي يتغنى بها الاورباويون اليوم وهم قد اخذوها مما عربه هذا الخليفة الجليل وما عرب في عــهده ولذلك لقبه بعضهم باستاذ الحضارة الحاضرة .

---

(١) من بقايا قصر المأمون غرفة لا تزال حتى اليوم على الضفة اليسرى من دجلة في الثكنة المدفعية ببغداد .

بلغت بغداد في عهده معظم عمارتها وثروتها وامتدت ابنيتها على بعقة مساحتها (٥٣٧٥٠) جريباً منها (٢٦٧٥٠) في الجانب الشرقي و (٢٧٠٠٠) في الجانب الغربي« والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع »وكانت كالمدن المتلاصقة يفصل بين المحلة والاخرى الحدائق والبساتين وتجري في شوارعها وقصورها ومنازلها واسواقها وحدائقها ومنتزهاتها عدة انهار(١) و بلغ عدد سكانها اكثر من مليونين ظهر بينهم عدة بيوتات تجارية تجاوزت ثروتهم الملايين من الدنانير ونبغ فيهم جماعات في علوم مختلفة . فكانت بغداد في عهده عروس البلاد وجنة اهل الارض ومركزاً للحضارة والمدنية ومهداً للعلوم والفنون . تفجرت فيها ينابيع الثروة وامتلأت بيوت المال بالاموال حتى رصعت دار الخلافة (قصر المأمون) بالجواهر النفيسة والاحجار الكريمة . ومما يدلنا على عظم تلك الثروة ما انفق على زواج هذا الخليفة . وتحرير ذلك هو ان المأمون لما اراد ان يتزوج بيوران بنت الحسن بن سهل سنة ٢١٠ ه انحدر من بغداد في اهله واصحابه وفرقة من جنده وامرائه الى فم الصلح (٢) فنزل في بيت الحسن ضيفاً تسعة عشر يوماً وخرج وجوه الناس لحضور ذلك العرس وعامة الناس للتنزه وكان عدد الملاحين اصحاب الزوارق وما شاكلها من الذين

---

(١) كانت انهار بغداد اكثر من عشرين نهروكان لها عدة فروع صغيرة . فالتي في الجانب الغربي كانت تأخذ من دجلة ومن الفرات اما التي في الجانب الشرقي فكانت تأخذ من دجلة ومن نهر الخالص وكان لكل منها اسماء وفروع لا حاجة لذكرها في في هذا المختصر . (٢) فم الصلح مدينة على ضفة دجلة اليمنى بالقرب من مدينة واسط

كانوا يحملوا الناس في مراكبهم الى فم الصلح ماينيف على عشرة آلاف ملاح (٣) سوى سواد الناس وعدا سفن الدولة التي اقلت المدعوين من الامراء والقواد والعلماء والشعراء والادباء وغيرهم واحتفل الحسن بذلك الزواج احتفالا لم يسبق له مثيل انفق فيه على كل من حضر وفرش للمأمون ليلة الزفاف حصيراً منسوجاً من الذهب نثر عليه الف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ ونثر على الهاشميين ورجال الدولة والقواد والامراء والعلماء والكتاب بنادق مسك في كل منها رقعة مكتوب فيها عطية اما داراً او ضيعة او جارية او فرسا او مالا فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة ويمضي الى الوكيل المرصد لذلك ويتسلم ما فيها ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك و بيض العنبر. واوقد تلك الليلة شمعة عنبر وزنها اربعون منا (اثنان وار بعون اقة). ونثرت جدة العروس على رجل المأمون الف درة من الذهب كانت في طبق من ذهب عندما دخل القصر ليلة الزفاف ولما جيء بالعروس على المأمون فرش لها حصيراً من الذهب وزنه عشرة ارطال. وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست احداهن من الدر شيئاً فقال المأمون شرفن ابا محمد وا كرمنه فمدت كل واحدة منهن يدها فاخذت درة وبقيت سائر الدرر تتلألأ على ذلك الحصير الذهبي. وقداحصي ما انفقه الحسن على ذلك الزواج فبلغ خمسين مليونا من الدراهم غير ما انفقه المأمون وكان على ما

---

(٣) ويروى ٣٦ الف ملاح.

يقال خمسين مليونا من الدراهم ايضا .

ومما يؤخذ على المأمون مع عظم منزلته حمله العلماء على القول بخلق القرآن والزامه الناس الاعتقـاد به حتى لقد استعمل مع رجال الدين الوسائل الاجبارية تارة والاقناعية اخرى والظاهر انه كان يعد ذلك خطوة اصلاحية في علوم الدين فقامت عليه قيامة العلماء وعظم ذلك على رجال الدين . وقد ضرب الامام احمد بن حنبل لامتناعه عن ذلك وحبس كثيرا من العلماء «١» .

نقل العاصمة من بغداد الى سامرا

لما صار الامر بعد المأمون لاخيه محمد المعتصم بالله بن هرون الرشيد «٢١٨—٢٢٧»ﻫ«٨٣٣—- ٨٤٢»م ثار الجند ونادوا باسم العباس ابن المأمون خليفة ببغداد فارسل المعتصم اليه وطلب مبايعته فبايعه وخرج الى الجند وقال «ماهذا الحب البارد وقد بايعت عمي» فسكنوا وبايع الجميع المعتصم .

لم يكن المعتصم مثل المأمون في العلم والادب ولكنه خدم العلم اقتداء باخيه فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه ايام المأمون من تزاحم العلماء فيها وتهافت الادباء اليها . ودعى بخلق القرآن تقليداً لاخيه وفعل افاعيله مع رجال الدين بل انه استخدم العنف والشدة في تـأييد ذلك فجلد الامام احمد بن حنبل حتى غاب عقله ثم امر بحبسه مقيدا وجلد احمد بن سهل حتى مات .

---

(١) الامام احمد بن حنبل الشيباني ولد ببغداد سنة ١٦٤ﻫ ومات بها سنة ٢٤١ﻫ ودفن في الحربية «جزء من الاعظمية اليوم» وكانت محلة كبيرة نسبت الى حرب بن عبد الله احد رجال المنصور

وهو اول من ادخل التركمان والتتار في الدولة العباسية فاستخدمهم في الدواوين واتخذ منهم حرساً لنفسه وولاهم المناصب الرفيعة وكان عدد حرسه الخاص من الاتراك خمسين الفا ببغداد وسبب ذلك ظهور ثورات بين الجند العربي ضده وميل بعضهم الى العلويين مما جعله غير واثق بالعرب وحمله على عدم الطمأنينة اليهم واسائة الظن بهم سيما وانهم قد ضعفت عصبيتهم يوم ذاك واخلدوا للترف والحضارة فعول رأيه على تأليف جيش كبير من الاتراك يتقوى به «١» وهم لايزالون الى ذلك العهد اهل بداوة وشجاعة وجرأة على الحرب ففعل ذلك حتى ازدحمت بغداد بجنوده الاتراك الذين كانوا نحو الثمانين الفاً وضاقت بهم فسئمهم البغداديون واكثروا من الشكوى عليهم لدى المعتصم فلما كانت سنة ٢٢١هـ ارتأى المعتصم بناء عاصمة جديدة خارج بغداد ليعسكر بها فبنى سامرا «اوسر من رأى» وانتقل اليها بعساكره ونقل اليها داواوين دولته «٢» واقطع جنده الاتراك فيها القطائع فصارت داراً للخلافة . وفي الحقيقة ان الاتراك كانوا عوناً له في الفوز في حروبه مع الروم وغيرهم ولكنهم

«١» وجعل جيوش الدولة العباسية طائفتين. الحربية وهو الجيش العربي الاصلي والاتراك وهو الجيش المؤلف من الاتراك وغيرهم من الاعاجم .

«٢» كانت دواوين الحكومة يوم ذاك عديدة منها ديوان الجند وديوان المعادن وديوان الاقطاع وديوان الثغور وديوان الضياع وديوان الاساطيل وديوان المظالم وديوان الصدقات وديوان الترتيب لعرض الرسائل وديوان اموال الثروة وديوان الخراج وديوان الجزية وديوان البريد وديوان السر او الرسائل وديوان الطراز وديوان الخاتم وديوان الحسبة وديوان القضاء وديوان الشرطة. ودار الضرب «لضرب النقود». وديوان الخاص

صاروا اخيراً سبباً الى انقراض الدولة العباسية مما جعل في تاريخ المعتصم نقطة سوداء لاتمحى .

وبقيت سامرا قاعدة الخلافة العباسية من سنة ٢٢١ الى سنة ٢٧٩ ﻫ

بغداد بعد المعتصم

منذ نقل المعتصم كرسي الخلافة الى سامرا اخذت بغداد تنحط عاما فعاماً الى اواخر ايام الخليفة المعتمد على الله الذى عاد اليها سنة ٢٧٩ ﻫ .

وكانت تدار شؤونها خلال تلك الاعوام من قبل ولاة الخلفاء ممن يرضاه الاتراك الذين استبدوا بالدولة وصار لهم وحدهم الامر والنهي يولون من ارادوا ويعزلون من شاؤا حتى الخلفاء انفسهم وكثيراً ما كانت تثور الفتن في بغداد بسبب استبداد الاتراك وظلمهم وتجبرهم فمن ذلك ان الجند والاهالي معاً ثاروا ببغداد سنة ٢٤٩ ﻫ وفتحوا السجون وانتهبوا دور اهل اليسار واخرجوا منها اموالا كثيرة فرقوها في من نهض لحفظ الثغور واحرقوا احد الجسرين (١) وقطعوا الآخر لاستيائهم من استبداد الاتراك وقتلهم من شاؤا من الخلفاء في سامرا وتولية من ارادوا فعظمت الفتنة وانضم الى الثائرين جاعات من الاهواز والجبال وفارس وامتد لهيب الثورة الى سامرا فثار هناك الموالي على اتامش التركي

---

١ كانت جسور بغداد منذ ايام المنصور الى ايام الرشيد ثلاثة فجعلها الرشيد خمسة فلما حدثت فتنة الامين والمأمون احترقت ثلاثة جسور وبقي جسران داما الى ان انقرضت دولة العباسيين. وكانت تلك الجسور مبنية من اخشاب مفروشة على سفن مستديرة الشكل

وزير الخليفة المستعين فقتلوه فلم يستطع الخليفة ان يعمل تجاه هذه الثورة شيئاً لضعفه الى ان هدأت الاحوال من نفسها .

ولما كانت سنة ٢٥١ هـ اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركي قاتل المتوكل فقتلوه لانه استأثر بالسلطة وعظم شأنه فثارت الجنود في سامرا على الخليفة المستعين من اجل ذلك وحصروه في قصره فانهزم ليلاً في حراقة(١) وانحدر الى بغداد فاخرج الثائرون بسامرا المعتز ابن المتوكل من السجن وبايعوه بالخلافة فجهز هذا جيشاً مؤلفاً من خمسين الف مقاتل تركي بقيادة اخيه المؤيد وارسله لحرب المستعين فدارت رحى الحرب بين الفريقين ثم حوصرت بغداد واشتد الحصار عليها وامر المؤيد بتخريب البيوت والبساتين الخارجة عن سور بغداد توسيعا لميدان الحرب فخربت عساكره قسما عظيماً من الدور والبساتين التي وراء السور وذلك سنة ٢٥٢ هـ فضاق اهل بغداد ذرعاً فاتفق كبراء الدولة فيها على خلع المستعين واكرهوه عليه فخلع نفسه وبويع المعتز ودخلت جيوشه بغداد وارسل المستعين الى واسط منفياً ثم امر المعتز بقتله فقتل وبقيت بغداد تحت سيطرة الولاة المستبدين تنحط يوماً فيوماً كما ان الدولة العباسية العظيمة المجد اخذت تتقلص عاماً فعاماً .

---

(١) الحراقة سفينة حربية كان من نوعها مئات في بغداد خصوصاً في عهد الرشيد والمأمون يوم كان اسطول الدولة العباسية يجول في البحار

ارجاع عرش الخلافة الى بغداد

بعد ان قتل الاتراك الخليفة المهتدي بالله بايعوا بالخلافة العباس بن احمد ابن المتوكل على الله ولقبوه المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩) ه (٨٢٩—٨٩٢)م فعهد بالخلافة من بعده لاخيه طلحة الموفق فقبض هذا على زمام الامور وارجع هيبة الخلافة لاخيه واخضع كثيراً من العمال وقمع الخوارج وفتح مدناً كثيرة وسار سيرة هرون الرشيد في احكامه وعدله وكان الامر كله بيده ليس لاخيه غير الاسم . فلما مات الموفق سنة ٢٧٨ه عزم المعتمد على ترك سامرا فنتقل منها الى بغداد سنة ٢٧٩ه وجعلها دار الخلافة كما كانت قبلا «١» ولما نزلها وجد البدع قد انتشرت فيها فامر بالنداء ان لا يجلس على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص ولا صاحب تنجيم وحلف الوراقين (بياعي الكتب) ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة ولم تطل ايامه فيها اذ توفى في السنة نفسها فبويع بالخلافة لولي العهد ابي العباس المعتضد بالله ابن الموفق «٢٧٩—٢٨٩» ه «٨٩٢— ٩٠٢» م فانفرد هذا الخليفة بامور الدولة حتى كاد يعيد مجد الخلافة ويرجع عز بغداد وعظمتها وكان حازماً بطاشاً قهر اعداء الدولة واخضع فريقاً كبيراً من الذين تمردوا عليها من العمال والقبائل وارجع عدة امارات لمملكته وهابته البلدان خشية سطوته

« ١ » بعد ان اتخذت سامرا عاصمة ٥٨ سنة ٢٢١ - ٢٧٩ ه جلس على كرسي الخلافة فيها المعتصم والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد .

وبطشه واصطلحت البلاد بعدله وكرمه وزهت بغداد في ايامه . ولم يكن هذا الخليفة مهتماً بنشر العدل وارجاع هيبة الخلافة وسطوتها فقط بل كان مهتماً بنشر العلوم والفنون وارجاعها الى ما كانت عليه ايام اسلافه ايضاً .

وهو الذي بني قصر التاج المشهور بناه في الجانب الغربى من دجلة ببغداد جعل بينه وبين مجرى النهر مسناة مرصفة بالرخام ترسوا عندها الزوارق والسفن . وجعل حوله البساتين وغرس فيها انواع الاشجار والرياحين وجعل واجهة هذا القصر على خمسة عقود كل عقد عشر اساطين من الرخام في عرض خمسة اذرع . ولكنه لم يتمه [1] وجعل حوله المنازل والقصور وابتنى على ميلين منه قصراً سماه قصر الثريا طوله ثلاثة فراسخ انفق عليه اربعمائة الف دينار وصله بقصر التاج بنفق بناه على مسافة ميلين لتسير فيه جواريه وحرمه وسراريه من قصر الى قصر .

ولما توفى المعتضد بويع لابنه المكتفي بالله ابو محمد علي « ٢٨٩ـ٢٩٥ هـ « ٩٠٢ — ٩٠٨ » م فسار سيرة ابيه الذي وطدله المصاعب ولكن مع ميل الى السلام . ولم يحدث في عهده ببغداد شيء يستحق الذكر غير

---

١ بل اتمه ابنه المكتفي . وكان في موضع هذا القصر قصر بناه جعفر البرمكي ثم صار الى الحسن بن سهل فسمى القصر الحسني فلما عاد المعتمد الى بغداد سكنه بعد ان وهبته له بوران بنت الحسن ولما تولى المعتضد هذا اضاف اليه ماجاوره فوسعه وبنى له سوراً فسمى قصر التاج وموضعه الان في المزرعة المسماة بالتاجى التابعة لقضاء الكاظمية وكانت محلة كبيرة من محلات بغداد في ذلك العهد يوم كانت بغداد اعظم مدينة في العالم .

وصول هدية ملكة فرنسا الى هذا الخليفة سنة ٢٩٣هـ من جملتها خمسين سيفاً وخمسين رمحاً وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب وعشرين خادماً صقلبياً وعشرين جارية وعشرة كلاب وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون مما يدل على المحبة والوداد بين الدولتين .

المقتدر والاضطرابات في بغداد

لما توفى المكتفي بويع بالخلافة المقتدر بالله ابوالفضل جعفر بن المعتضد بالله « ٢٩٥ — ٣٢٠ » هـ « ٩٠٨ — ٩٣٢ » م وكان عمره ثلاث عشر سنة ولصغر سنه صار امر الخلافة لوزيره العباس بن الحسن وتسلط نساء قصر الخلافة وحجابه وخدمه على امور المملكة خصوصا ام المقتدر وام موسى قهرمانة القصر فقد كان لهما نفوذ عظيم في اعمال الدولة حتى كانت امه تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس كل جمعة فكانت تجلس وتحضر القضاة والاعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها فغضب لذلك القواد والقضاة واجتمعوا مع الوزير العباس بن الحسن وفاوضوه في خلع المقتدر ومبايعة عبد الله بن المعتز فلم يوافق على ذلك فاشتد بينهم الخصام فوثب الحسين بن حمدان فقتل الوزير وتسرع محمد بن داود الجراح وجمع العلماء فاتفقوا كلهم على خلع المقتدر فخلعوه و بايعوا ابا العباس عبدالله بن محمد المعتز بالله ولقبوه المرتضي بالله على غير طلب منه وذلك سنة ٢٩٦ هـ .

ولما بويع ابن المعتز ارسل الى المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة

الى الدار التي كان مقيماً فيها لينتقل هو في محله فاجابه بالطاعة وسأله الامهال الى الليل فغضب لذلك غلمان ابن المعتز وهجموا على المقتدر في قصر الخلافة وقاتلوا من كان فيها من غلمان المقتدر وخدمه ودام القتال بين الفريقين طول النهار وانقسم الناس في بغداد الى حزبين حزب لابن المعتز وزعيمه الحسين بن حمدان وحزب المقتدر وزعيمه مؤنس الخادم . ولما جن الليل خرج ابن حمدان من بغداد باهله وماله قاصداً الموصل تاركاً تلك الفتنة التي اوقد نارها فتفرق رجال ابن المعتز وانحل امره فاضطر الى الخروج من بغداد مع وزيره محمد بن داود وغلام له فنزل في ضاحية من المدينة ظناً منه ان الجنود التي بايعته ستتبعه بقوادها فلما لم يلحقه احد عاد الى المدينة واختفى عند الحسين بن عبدالله الجوهري «بايع الجواهر» المعروف بابن الجصاص فوقعت الفتنة والنهب والقتل وسادت الفوضى في بغداد ودام الحال الفضيع ثلاثة ايام فاضطر المقتدر الى قمع الفتنة وارجاع السكينة فخرج من قصره يتبعه خدمه وغلمانه ولحقته الجنود فسكن الفتنة وقبض على جماعة من زعمائها فقتلهم وعاد الى عرشه وظل يفتش على ابن المعتز فلم يقف على خبره الا في سنة ٣٠٢هـ اذ وشى به خادم فقبض عليه وامر بحبسه (١) وصادر ابن الجصاص سنة

(١) وقيل قتله . ولم يتولى الخلافة ابن المعتز الا يوما وليلة وكان ماهراً في كل علم وفن وادب حسن الاخلاق شاعراً فصيحاً وهو اول من الف في علم البديع وله ديوان شعر مشهور طبع بمصر قبل اعوام بل هو الشاعر المشهور صاحب التشابيه البديعة الرائقة . ولد سنة ٢٤٩ في بيت الخلافة وتربى تربية الملوك فهابه رجال الدولة واتفقوا على ان لايولوه الخلافة خشية ان يكف ايديهم عن الاستبداد بأمور الدولة فبايعوا المقتدر صبياً بادىء الامر فلما حدثت هذه الثورة بايعوه على غير طلب منه ثم خذلوه .

عشر مليون دينار وكان هذا من اكبر المثرين ببغداد في ذلك العهد وله فيها بيت كبير لبيع المجوهرات ودور وضياع واموال كثيرة .

مطالبة اهل بغداد بالشورى

ولما لم يعتبر المقتدر بالماضي بل عاد فاطلق العنان لمؤنس الخادم الذي نبغ في ايامه فتصرف هذا في مصالح الدولة العامة كما يشاء وتولى رئاسة الجيش وامارة الامراء وبيوت المال . وترك الوزراء يفعلون ما يريدون وعاد تدخل النساء وجوار القصر في الشؤن فثار اهل بغداد وفي مقدمتهم الجنود على المقتدر سنة ٣١٧ ه وطلبوا منه ان يكون لهم الحق في تدبير امور المملكة كما لغيرهم فخرج اليهم المقتدر وحذرهم عاقبة الثورة فلم يلتفتوا اليه بل هجموا على قصر الخلافة واخرجوه وحرمه ونقلوه الى دار مؤنس الخادم وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه بالقاهر بالله فانتقل هذا الى قصر الخلافة. وفي الغد اجتمع الثائرون عليه وطالبوه بحقوقهم فماطلهم فلما رأوا منه ذلك هاجوا وماجوا وانقسموا قسمين بحسب اختلاف غاياتهم فقسم الاهالي لم يثنهم كل وعدو وعيد بل اضطروا للهجوم على قصر الخلافة وقتلوا اكثر من كان فيه من الخدم حتى اضطر القاهر بالله للهرب واختفى في بستان القصر وخلت دار الخلافة من اهلها . وممن قتل في هذه الحادثة ابو الهيجاء عبد الله بن حمدان وكان قد جاء الى قصر الخلافة ضيفاً . اما الجنود فانهم لما لم تكن ثورتهم على المقتدر ألا لسبب تأخر مرتباتهم ولم يروا من القاهر غير الوعد والوعيد الفارغين ندموا على ما فرط منهم

من خلع المقتدر فعادوا واسرعوا الى بيت مؤنس واقتحموه وحملوا المقتدر على رقابهم وذهبوا به الى قصر الخلافة وبايعوه ثانية فسكنت الفتنة واحضر القاهر الى المقتدر فامنه وحبسه عنده ولم تكن خلافته غير يومين .

واكثر المقتدر من تبديل الوزراء وصادر اموال اكثرهم فمنهم من حبس ومنهم من قتل وسبب ذلك ان اكثرهم كانوا يأخذون اموال الناس بالباطل ويرتشون حتى اصبح بيت المال خاليا والدولة محتاجة الى المال لارزاق الجند وغير ذلك . والذي زاد في الطين بله تبذير الخليفة نفسه فقد تولى الخلافة وعنده من المال والجواهر شيء كثير وترك له المكتفي في بيت المال اموالا كثيرة فانفقها كلها حتى قدروا ما انفقه تبذيرا وضياعا ما ينيف على سبعين مليون دينار عدا ما انفقه في الوجوه الواجبة ونفقات الدولة ومن كثرة تبذيره احتاج الى المال في آخر ايامه فاضطر ان يبيع ضياعه وآنية الذهب لاسترضاء الجند .

ومن جملة تبذيره انه لما بلغه ان ملك الروم ارسل اليه وفدا يطلب منه المهادنة والفداء امر بتوسيع قصر الخلافة وبنى فيه دارا فسيحة جعل فيها انواع الاشجار والرياحين وجعل في وسطها ايوانا فخما وامامه بركة كبيرة مدورة وفي وسط البركة شجرة لها ثمانية عشر غصنا من الذهب[1] والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بانواع الجواهر على شكل الثمار ولها ورق مختلف الالوان وفي اعلى الاغصان صور طيور وعصافير من ذهب

---

(١) يقال كان وزن هذه الشجرة (٥٠٠٠٠٠) درهم .

والفضة اذا مر الهواء عليها تصفر صفيرا على هيئة الموسيقي في نغماتها والحانها. وكانت هذه الشجرة تمايل من وقت الى آخر بالةخاصة بها خفية وجعل في جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً ومثلهم عن يسار البركة والبسهم انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد « الرماح الصغيرة » يتحركون على خط واحد كأن كل واحد منهم يقصد صاحبه(١) ولما اقترب الوفد من بغداد ـ وكان مؤلفا من رجلين لم نقف على اسميها ـ اصطف له مائة وستون الف جندي بين راكب وراجل واثنان وعشرون الفا من الغلمان بالزينة والمناطق المحلات واربعة آلاف خادم ابيض وثلاثة آلاف خادم اسود ووقف سبعمائة حاجب وزينت العاصمة والسفن والزوارق في دجلة واسدلوا على قصر الخلافه ٣٨ الف ستار منها ١٢ الف ستار من الديباج المذهب وفرشوا فيه ١٢ الف بساط واعدوا للوفد دارا زينت بانواع الجواهر والحلي والسلاح فدخل الوفد بغداد باحتفال عظيم واندهش مما رآه . وفي الغد جلس الخليفة في ايوان هذه الدار وجلس رجال الدولة والوجوه بالسلاح والزينة فدخل الوفد وقدم الرسالة فاجابه الخليفة الى ما طلب ملك الروم واكرم الوفد اكراما زائدا ثم ارسل مؤنس الخادم وانفذ معه مائة الف دينار لاجل فداء الأسري وذلك سنة ٣٠٥ ه

ومما انفقه تبذيراً وضياعا انه بنى دارا في قصر الخلافة عرفت بالجوسق المحدث جعل حولها الحدائق وجعل في وسطها بركة رصاص قلعى طولها

---

(١) وسميت هذه الدار دار الشجرة .

٣٠ ذراعا في ٢٠ ذراعا وجعل حواليها نهر رصاص قلعي وجعل في البركة اربع سفن صغيرة محلاة بالذهب الخالص . وجعل في قصر الخلافة انواع الوحوش واصناف الطيور .

واستكثر هذا الخليفة من الخدم والمماليك من الروم والسودان وقربهم فكانوا في اول عهده الف ومائة ثم زادوا حتى بلغ عددهم احدى عشر الفاً فولى زعمائهم المناصب الرفيعة « وهو اول من فعل ذلك » وكانوا عونا له في بادئ الامور ثم صاروا وبالا عليه حتى عجز عن نفقاتهم ثم صار قتله على يد مؤنس الخادم الذى نبغ في عهده فقدمه وولاه رئاسة الجيش والامارة وبيوت المال فاستبد في الامور وتصرف في شؤن الدولة واخيرا حدثت بينهما نفرة فسار مؤنس الى الموصل ومعه جميع القواد ثم جمع جيشا كبيرا لمحاربة الخليفة ونزل به بباب الشماسية من بغداد فجهز له الخليفة جيشا ودارت رحى الحرب بين الفريقين فقتل الخليفة على ابواب بغداد غيلة قتله اتبـاع مؤنس بغير علم منه اذ لم يكن غرض مؤنس من هذه الحرب غير التغلب على شؤن الدولة وارجاع نفوذه ولذلك قتل قتلة الخليفة وحزن عليه حزنا شديدا ولطم وجهه وبكى عندما رآى رأسه .

كانت دولة هـذا الخليفة ذات تخليط كثير . اكثر من تبديل الوزراء وافرط في مصادرة اموال رجال الدولة وافقر بيت المال بتبذيره واطلق العنان لنساء قصره حتى اشتركوا معه في الحكم وولى خدمه المناصب العالية مما جعل الاضطرابات تتوالى في بغداد ومع ذلك كله فانه ارجع

رسوم الخلافة من التجمل والمعاش وكثرة الخلع والصلاة وزيادة الجنود وغير ذلك وكانت بغداد في عهده غاصة بالعلماء والحكماء والشعراء وكان فيها الف طبيب وما يزيد على الف صيدلي اكثرهم من الذين حازوا الشهادات بعدالامتحان . وكثرت في ايامه المعاهدالعلمية والمارستانات ببغداد ومن ذلك المارستان الذى بناه هو سنة ٣٠٦ في باب الشام من ابواب بغداد المعروف بالمارستان المقتدري والمارستان الذي انشأه الوزير علي بن عيسى بالحربية سنة ٣٠٣ ﻫ ومارستان ام المقتدر ومارستان السيدة فتحه سنان بنت ثابت وقد انشيء في سنة ٣٠٦ ﻫ .

وفي عهد هذا الخليفة قدم الحسين الحلاج ابن المنصور الفارسي الى بغداد سنة ٣٠٥ ﻫ بعد ان جال في البلاد وزرع في كل ناحية زندقته فاشترى ببغداد املاكا و بنى داراً واخذ يدعو الناس الى الاعتقاد بالتناسخ والحلول سراً و يتظاهر بالزهد والتصوف فافتتن به خلق كثير واعتقد فيه الحلول والربوبية جماعة من الناس واشتهر امره فامر الخليفة وزيره حامد بن العباس باحضاره فاحضره فانكر ماينسب اليه ثم مسك له كتباً ارسلها الى اتباعه وكتباً ارسلت اليه من تلاميذه وفي كلها ما يثبت كفره فحبسه الوزير واحضر القضاة والفقهاء وتلا عليهم تلك الكتب واستفتاهم فافتوه جميعهم باباحة دمه فامر بقتله فقتل ونصب رأسه ببغداد وذلك سنة ٣٠٩ ﻫ ففر اتباعه وتفرقوا .

توالي الاضطرابات في بغداد

لما قتل المقتدر دخل مؤنس بغداد بجنوده وحفظ قصر الخلافة من النهب وجمع العلماء والقواد والوجوه واقترح عليهم مبايعة الصبي ابا العباس ابن المقتدر فرده اسحق النوبختي قائلا : استرحنا من خليفة له ام وخالة وخدم يدبرونه فنعود الى تلك الحالة لا والله لا نرضى الا برجل كامل يدبر نفسه و يدبرنا . و بعد الاخذ والرد اتفقوا على مبايعة ابي المنصور محمد ابن المعتضد فاحضر وبايعوه ولقبوه القاهر بالله (٣٢٠ — ٣٢٢) ه (٩٣٢ — ٩٣٤) م ولما تمت البيعة استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلي بن بليق واخذ منه كتاباً بعدم التعرض لهم في ارواحهم واموالهم واول عمل عمله هذا الخليفة مصادرة اموال جميع حاشية المقتدر واصحابه وامه بل انه ضرب ام المقتدر ضرباً مؤلماً وهي مريضة و باع املاك المقتدر واشتغل بالبحث عمن استتر من اولاده وحزبه طمعاً بالمال فنقم الناس عليه وسئموه .

فلما كانت سنة ٣٢١ ه حدث خلاف بين القاهر بالله و بين رجاله (مؤنس و بليق الحاجب وعلي بن بليق والوزير ابو علي محمد بن الحسين ابن مقلة) وكانوا يداً واحدة فتوجسوا وخافوا منه واتفقوا على مراقبته خوفاً من ان يتفق مع القواد فيفتك بهم فضيقوا على قصر الخلافة ووكلوا عليه احمد بن زيرك وامروه بتفتيش كل من يدخله ويخرج منه حتى النساء والطعام والشراب ففعل . ولما ضاق الامر على القاهر من هذه المراقبة

الشديدة استعمل الحيلة للايقاع بهم فارسل سراً الى الساجية [١] يغريهم بهؤلاء الاربعة وحلف لهم على زيادة مرتباتهم . وبث الجواسيس لنقل الاخبار اليه فتمكن من تغيير قلوب الساجية على اعدائه . اما هؤلاء الاربعة فقد بلغهم اجتهاد القاهر لعمل مكيدة يوقعهم بها فاجتمعوا واتفقوا على ان يدخل علي بن بليق قصر الخلافة بعد ان يجعل فرقة من الجند حول القصر و يقبض على القاهر ثم يخلعوه . فجاء احد جواسيس القاهر وهو طريف السبكري في زي امرأة الى قصر الخلافة واخبر القاهر بما اتفقوا عليه فارسل القاهر الى الساجية واحضرهم وفرقهم في القصر وراء الدهاليز والابواب فحضر علي بن بليق في عصر ذلك اليوم ومعه عدد قليل من غلمانه مسلحين وطلب الاذن للدخول على الخليفة فلم يؤذن له فغضب واساء ادبه فخرج اليه الساجية وشتموه فادرك ما اعده الخليفة لهم ففر الى الجانب الغربي واختفى . وبلغ ذلك ابن مقلة فاختفى ايضاً اما بليق فانه سار الى قصر الخلافة ليعاتب القاهر على ما فعله الساجية بابنه فلما وصله امر القاهر بالقبض عليه وعلى ابن زيرك فقبض الساجية عليهما وحبسوا كل واحد منهما في غرفة ثم احضر مؤنس بحيلة وحبس في غرفة ثم قبض على علي بن بليق ايضاً وحبس في غرفة ولم يعثروا على ابن مقلة . فامر القاهر بذبح ابن بليق فذبح ووضع رأسه في طشت فمشى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين

---

(١) الساجية فرقة من الجيش نسبت الى رئيسها يوسف بن ابي الساجي . وهم كالحجرية

يديه فلما رآى رأس ابنه بكى واخذ يقبله فأمر القاهر بذبحه فذبح وجعل رأسه في الطشت وحمل بين يديه فدخل على مؤنس فوضعهما بين يديه فلما رآى الرأسين تشهد فأمر القاهر بذبحه فذبح وجعلوا رأسه في الطشت ثم أمر القاهر فطيف بالرؤس في جانبي بغداد ونودي عليها : هذا جزاء من يخون الامام ويسعى في فساد دولته. ثم اعيدت الرؤس ونظفت وحفظت في خزانة الرؤس في قصر الخلافة كما جرت العادة . اما ابن زيرك فان القاهر امر بقتله ايضاً ثم ارسل الى ابي يعقوب اسحق النوبختي فقبض عليه وهو في مجلس الوزير محمد القاسم فأمر بحبسه اولا ثم قتله. واسحق هذا هو الذي سعى والح على مبايعة القاهر بالخلافة فكان في عمله : كالباحث عن حتفه بظلفه .

فلما كانت سنة ٣٢٢ ه تمكن ابن مقلة وهو مختفياً من اغراء قواد الحجرية والساجية على خلع القاهر اذ كان يراسلهم سرا وهو مستتر ثم صار يجتمع بهم تارة بزي امرأة وتارة بزي اعمى لئلا يعرفه الناس وبذل لهم مالا كثيراً وخوفهم من شر القاهر وذكرهم بغدره ونكثه مرة بعد اخرى كقتل مؤنس وبليق وابنه بعد ان اعطاهم امانا بخطه فوافقوه على خلعه وعزموا على القبض عليه فبلغ ذلك الوزير فارسل اليه رجلا من خاصته يعلمه الخبر ليلا ليكون على حذر فلما جاء الرسول الى قصر الخلافة وجد القاهر سكرانا نائما فعاد من غير ان يعلمه بشيء . فزحفت الحجرية والساجية في تلك الليلة واحاطوا بالقصر فاستيقظ القاهر على الضوضاء

وهو مخمور فطلب مهربا فقيل له ان ابواب القصر كلها مشحونة بالرجال. فهرب الى سطح حمام فقبضوا عليه وسملوا عينيه وحبسوه[١] وكانت خلافته سنة واحدة وسبعة اشهر رأى الناس فيها منه مالم يروه ممن قبله من سوء التدبير وسفك الدماء ونكث العهود والغدر حتى ان القواد ورجال الدولة والعلماء ندموا على مساعدتهم له ومبايعته فانقلبوا عليه .

زوال نفوذ الخلفاء

بعد ان قبض الجيش على القاهر بالله اخرج احمد ابن المقتدر من السجن فبويع له بالخلافة ولقب الراضي بالله «٣٢٢—٣٢٩»هـ «٩٣٤—٩٤٠»م واول عمل عمله القاهر اعادة بن مقلة الى الوزارة فاحسن هذا الوزير سيرته ولكنه عجز عن ادارة الامور لقلة المال . ولما لم يكن الراضي اهلا لتدبير المملكة سيما وقد تسلط المماليك والاتراك على الامور اختلفت شؤون الدولة وضعفت هيبة الخلافة وانقطع اكثر الولاة عن ارسال المال الى العاصمة واستبدوا بالاعمال فاضطربت من جراء ذلك الاحوال في بغداد وتغلب على الراضي رئيس الحرس المظفر بن ياقوت التركي .

فلما كانت سنة ٣٢٤ هـ حدثت بين الوزير ابن مقلة وبين المظفر بن ياقوت وحشة فاتفق مع الحجريه ودخل قصر الخلافة فلما جاء الوزير وصار في دهليز القصر قبضوا عليه وحبسوه وارسلوا الى الراضي يعرفونه

---

(١) وظل في الحبس حتى مات سنة ٣٣٨ هـ .

صورة الحال وعددوا له ذنوباً واسباباً تقضي بذلك فاجابهم مستصوباً رأيهم ثم اتفقوا على تفويض الوزارة الى علي بن عيسى بن داود الجراح فامتنع من قبولها لحراجة الموقف فولوها اخاه عبد الرحمن ووافقهم على ذلك الخليفة الراضي وسلم اليه ابن مقلة فضربه وعذبه عذاباً شديداً ثم اطلقه فجلس في داره. ولما لم يكن عبد الرحمن اهلاً للوزارة قبضوا عليه وولوا عليها محمد بن قاسم الكرخي ثم عزلوه واستوزروا سليمان بن الحسين. كل ذلك جرى في مدة قصيرة كانت امور الدولة فيها مضطربة غاية الاضطراب في بغداد لسبب قلة المال واستبداد الاتراك بالسلطة وظلمهم الناس. فاضطر الخليفة في هذه السنة (سنة ٣٢٤ هـ) ان يولي ابا بكر محمد ابن رائق القيادة العامة وبيت المال وزعامة سائر الادارات على شرط ان يقوم بجميع النفقات وكتب له بذلك وكان يومئذ والياً في واسط فرضي بذلك الشرط فاستقدمه الى بغداد.

امارة الامراء في بغداد

دخل ابن رائق بغداد ففوض اليه تدبير المملكة وخلع عليه واعطاه اللواء ولقبه امير الامراء (وهو اول من نال هذا اللقب) ثم امر بان يخطب له على المنابر فبطلت الوزارة من بغداد واعمالها منذ ذاك وصار الامر لامير الامراء وعظم شأنه وتصرف على حسب اختياره. ولم يبق للخليفة يومئذ غير بغداد وما يليها والحكم فيها لابن رائق لانه استبد بالامور وانفرد بالسلطة وضيق على الخليفة حتى لم يكن له حل ولا ربط في الامور السياسية والادارية

ولم يبق له سوى الخطبة والسكة وشريكه فيهما امير الامراء وبذلك اصبحت الخلافة رسماً دينياً فقط . والراضي هذا هو اول من كفت يده من الخلفاء عن بيت المال واول من اخترع لقب امير الامراء في الاسلام .

ولا يخفى على القارىء ان شأن الخلافة العباسية اخذ بالضعف منذ تدخل الاتراك في الامور ايام المعتصم ومن جاء بعده وازداد ضعفاً على ضعف في ايام الراضى هذا وامتنع اكثر الولاة عن ارسال المال الى العاصمة وانقسمت المملكة الاسلامية دولا عديدة تولى كل منها امير استقل بها غير ان اكثر هؤلاء الامراء كانوا يعدون الخليفة رئيسهم الديني ولكنهم ما كانوا يؤدون اليه ما عليهم من المال الا مرة كل بضعة اعوام فكان يرسل المال بعضهم باسم الضمان والبعض باسم المصالحة والآخر باسم الهدية وغير ذلك . لذلك قلت جباية الدولة واحتاجت الى المال على ان المال الذي كان يصل الى مقر الخلافة كان يستلمه امير الامراء ويصرفه كيف شاء .

قتل ابن مقلة

كان ابن رائق عندما تولى امارة الامراء قد غصب املاك ابن مقلة وضياعه واملاك ابنه ابي الحسن علي فحضر ابن مقلة اليه وتذلل له في معنى الافراج عن املاكه واملاك ابنه فلم يجبه بغير المواعيد فلما رأى منه ذلك شرع في السعي به وانتهز الفرصة من تضييقه على الخليفة

واستبداده بالامور فكتب الى الخليفة الراضي يشير عليه بالقبض على ابن رائق وضمن له اذا قبض عليه وقلده الوزارة استخرج له ثلثمائة الف الف دينار (ثلاثة ملايين من الدنانير) فاطمعه الراضي بالاجابة الى ما اشار به عليه وترددت الرسائل بينهما على يد علي بن هرون المنجم النديم فلما استوثق ابن مقلة من الراضي اتفقا على ان يسير الى قصر الخلافة سراً و يقيم عنده الى ان يتم التدبير فركب من داره ولما وصل قصر الخلافة قبض عليه واعتقل في حجرة ووجه الراضي الى ابن رائق يخبره بكل ما جرى . فالتمس منه قطع يده اليمنى التي كتب بها الوشاية فاحضر الراضي حاجب ابن رائق وجماعة من القواد واخرج ابن مقلة من السجن وتقابلا فلما انتهى كلامهما في المقابلة امر بقطع يده اليمنى فقطعت واعيد الى السجن وذلك سنة ٣٢٦ هـ ثم ندم الراضي على ما فعل وامر الاطباء بملازمته المداواة فلازموه حتى برئ وكان ينوح و يبكي على يده ويقول خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين تقطع كما تقطع ايدي اللصوص . ولما برىء عاد يكاتب الراضي في الحبس بيده اليسرى واطمعه في المال وطلب الوزارة وقال ان قطع اليد ليس مما يمنع الوزارة واخذ يغريه بابن رائق و يكتب الى ابن رائق يهدده . ولما لم يسكت ابن مقلة طلب ابن رائق من الخليفة قطع لسانه فقطع وظل في السجن حتى مات «١» وليس هذا بالامر الغريب لان الخلفاء كانوا العوبة في ايدي

«١» مات سنة ٣٢٨ هـ وقيل ان بجكم التركي هو الذي قطع لسانه عندما قدم بغداد وتولى الامارة بعد ابن رائق . وابن مقلة هذا هو الذي جمل الخط العربي على ما هو عليه اليوم .

المتغلبين ولذلك كان قتل الاكابر وحبسهم وتعذيبهم ومصادرتهم سراً وعلناً سنة عامة منذ ايام المتوكل .

هزيمة ابن رائق وامارة بجكم

وفي هذه السنة «سنة ٣٢٦»ﻫ طمع بجكم التركي بامارة الامراء فسار بجيوشه من واسط(١) الى بغداد ليخلع ابن رائق فخرج اليه ابن رائق بعساكره وبعد قتال عنيف انكسر ابن رائق وفر الى عكبرا واختفى بها ودخل بجكم بغداد واجبر الخليفة على توليته وظيفة امارة الامراء فولاه اياها وخلع عليه .

ولما كانت سنة ٣٢٧ ﻫ وكان ناصر الدولة ابن حمدان صاحب الموصل قد امتنع من ارسال المال الى مقر الخلافة اتفق بجكم والخليفة على قتاله فخرجا من بغداد بجيش جرار فصالحهما على شرط ان يحمل كل سنة الى بغداد خمسمائة الف دينار فعادا الى بغداد . وكان بن رائق قد اغتنم فرصة غيابهما فاظهر نفسه في بغداد والتف حوله كثير من الناس فخشي بجكم امره فاتفق مع الخليفة على توليته حران والرها وقنسرين والعواصم فرضي بذلك ابن رائق وسار من بغداد واستولى على اكثر ماولي عليه

ثورة الحنابلة في بغداد

وفي عهد الراضي هذا صار تجار بغداد واصحاب المناصب فيها عرضة

---

(١) واسط مدينة عراقية عربية بناها الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ ﻫ على نهر الحي (الغراف) وسميت بواسط لانها متوسطة بين البصرة والكوفة وكانت دار امارة الحجاج ايام الدولة الاموية .

للمصادرة فصودر اكثر التجار والامراء والكتاب واهل الوجاهة حتى اصبح امثال هؤلاء لا يأمنون على انفسهم واموالهم . وكثرت المنكرات في بغداد وزاد شرب المسكرات والولوع بالغناء والمغنيات وفشت البدع السيئة بين طبقات الناس والخليفة ساكت لا يقدر على دفع منكر ولا منع احد من شيء مالم يوافق عليه رجال الدولة فلما كانت سنة ٣٢٣هـ ثارت العاطفة الدينية في قلوب الحنابلة فهاجوا واخذوا يكبسون البيوت التي فيها المسكرات او المغنيات فكبسوا كثيرا من بيوت القواد ودور العامة واراقوا ماوجدوه فيها من المسكرات وضربوا المغنيات وكسروا آلات الغناء وعظم امرهم حتى انهم ازعجوا اهل بغداد باعمالهم وخافهم الناس خصوصا الذين اعتادوا على تلك الاعمال المؤدية الى الدمار سيما بعض رجال الحكومة فاقنعوا الخليفة على تهديد الحنابلة وخوفوه عاقبه امرهم — وكان طوع ارادتهم — فامر صاحب الشرطة فركب ومعه شرطي نادى في جانبي بغداد ان لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يصلي منهم امام الا اذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشائين . فلم يلتفت الحنابلة الى ذلك واستمروا على عملهم فكتب الخليفة كتابا يهددهم فيه ووقع عليه وبعث به ليقرأ عليهم فلما قرئ كتاب الخليفة وسمعوا مافيه من التهديد الشديد ورأوا رجال الحكومة مزمعين على التنكيل بهم سكنوا

البريدي وكورتكين وابن رائق

ولما مات الراضي بويع بالخلافة لاخيه ابي اسحق ابراهيم ابن المقتدر

ولقبوه المتقى بالله «٣٢٩—٣٣٣» ه «٩٤٠—٩٤٤» ه فارسل الخلع واللواء الى امير الامراء بجكم وكان هذا قد ذهب الى واسط ليجهز الجيوش لقتال ابي عبد الله البريدي المستقل في خوزستان واودع تدبير الامور في بغداد الى كاتبه ابي عبد الله الكوفي . فتولى الخلافة المتقى وليس له منها غير الاسم ولكنه لم يلبث فيها الا قليلا حتى وافاه خبر قتل بجكم(١) فاستولى على داره واخذ منها اموالا عظيمة . فبلغ ذلك البريدي فزحف بجيشه على بغداد فلما قرب منها خاف اهلها فخرج الوجوه والقضاة والكتاب والاعيان لاستقباله فدخلها باحتفال عظيم وارسل الخليفة يهنئه بسلامته ثم خلع عليه وقلده امارة الامراء

عندما تم الامر للبريدي طلب من الخليفة المتقى خمس مئة الف دينار ليفرقها في الجند فامتنع عليه فانفذ البريدي اليه يتهدده ويذكره بما جرى على المعتز والمستعين والمهتدى فخاف الخليفة وارسل اليه كما اراد خمس مئة الف دينار فلما قبض المال طمع فيه ولم يعط الجند منه شيئاً فشغبوا عليه واتفق معهم اهل بغداد لانهم كرهوه لظلمه فهاج الجميع عليه وحاربوه داخل المدينة حتى اضطر الى الهزيمة فهرب من بغداد هو

(١) كان بجكم بعد ان انتصرت جنوده على البريدي وهزموه سمع بمحل فيه اكراد لهم ثروة طائلة فطمع بثروتهم وقصدهم لاغتصابها منهم فهربوا فجاء صبي منهم خلسة وطعنه برمح صغير في خاصرته فمات من تلك الطعنة بعد ان قضى بالامارة اكثر من سنتين وقد سماه بعضهم بجكم والبعض ياقم وقيل اسمه محمد بن يحيي بن شيراز واصله من الغلمان الاتراك

واخوه وابنه واصحابه وانحدروا بسفينة ليلا في دجلة الى واسط فاضطربت الامور في بغداد واستولى احد القواد المدعو كورتكين الديلمي على شؤون الحكومة فيها ودخل على الخليفة فخلع عليه وقلده امارة الامراء .

وبعد قليل نهض محمد بن رائق من الشام بايعاز الخليفة وزحف على بغداد وحارب كورتكين فانتصر عليه وحبسه ودخل بغداد فولاه الخليفة امارة الامراء وذلك سنة ٣٢٩ ﻫ غير ان البريدي لم يكن غافلا عما يجري في بغداد وكان يترقب الفرص فلما حدث هذا الانقلاب جمع امره وزحف بجيشه الى بغداد وتمكن من الاستيلاء عليها وذلك سنة ٣٣٠ ﻫ فهرب الخليفة وابن رائق الى الموصل لينجدهما ناصر الدولة ابن حمدان وارسل الخليفة ابنه ابا المنصور مع ابن رائق الى ناصر الدولة ليكلماه في النجده فقبض ناصر الدولة على ابن رائق وامر بقتله فقتل وعلى اثر ذلك قلد الخليفة امارة الامراء لناصر الدولة ابي محمد الحسن بن حمدان وخلع عليه وعلى اخيه ابي الحسن علي ولقبه سيف الدولة .

ابن حمدان وتوزون

ولما قلد الخليفة ابن حمدان الامارة سار الى بغداد بجيش كبير فانهزم منها البريدي ودخل الخليفة وامير الامراء ناصر الدولة بغداد باحتفال عظيم . ولما كانت سنة ٣٣١ ﻫ ثار الاتراك في الموصل على سيف الدولة وكبسوه ليلا فهرب من معسكره فبلغ ذلك ناصر الدولة فسار من بغداد لنصرة اخيه فاغتنم الاتراك الفرصة وتغلبوا على الخليفة وقبض على زمام

الأمور توزون (طوسون) التركي فولاه الخليفة امارة الامراء ببغداد فضيق هذا على الخليفة فاستوحش منه وتوجس منه خيفة. فكاتب سرا ناصر الدولة واخاه سيف الدولة لينجداه مما هو فيه فيفوض اليهما الملك والتدبير فلما لم ينجداه كتب الى ناصر الدولة يطلب منه ارسال جيش ليصحبه الى الموصل وكان توزون يومئذ خارج بغداد فارسل ابن حمدان جيشا مع ابن عمه ليصحب الخليفة. فلما اقتربوا من بغداد خرج الخليفة منها باهله وحرمه ووزيره وسار الى الموصل واقام بها عند ناصر الدولة فانفق عليه بنوا حمدان اموالا كثيرة مدة اقامته عندهم . فلما بلغ توزون ذلك رجع الى بغداد وقصد بني حمدان وكانوا هم ايضاً قد قصدوه فالتقى الجمعان و بعد حروب انهزم بنوا حمدان فلما علم الخليفة بهزيمتهم سار الى الرقة وقوي امر الاتراك ببغداد وعظم شأنهم فارسل الخليفة الى توزون يسأله الصلح فحلف توزون للخليفة والوزير بالامان . وفي اثناء ذلك كان الاخشيد بن طغج صاحب مصر والشام قد سار الى الرقة وحمل الى الخليفة اموالا كثيرة وكانت بينهما عهود ومواثيق بحلف وايمان فقال للخليفة : انا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الاتراك وفجورهم وغدرهم فالله الله في نفسك سر معي الى مصر فهي لك وتأمن على نفسك . فلم يقبل فعاد الاخشيد الى مقره وانحدر الخليفة من الرقة في الفرات ولما وصل هيت اقام بها وارسل الى توزون من يجدد له اليمين . فجدد توزون اليمين واعطاه الوعود والمواثيق عن يد الفقهاء

والقضاة والائمة . فقبل المتقي بذلك واشار عليه بنوا حمدان ان لا يأمن لتوزون ولا ينحدر اليه وخوفوه منه فابى ذلك ووثق بما ورد عليه من العهود وانحدر الى الفرات فالتقاه ابو جعفر كاتب توزون احسن ملتقى ثم سار توزون من بغداد لاستقبال الخليفة فالتقاه بالسندية «١» فنزل من فرسه وترجل اليه وقبل الأرض بين يديه ومشى خلفه فاقسم الخليفة عليه بالركوب فلم يقبل بل مشى قدامه الى المضرب الذي كان اعد له على نهر عيسى فلما نزل الخليفة المتقي قبل الارض توزون بين يديه وقال : ها انا ذا قد وفيت بيميني والطاعة لك . ثم قبض عليه وعلى وزيره وأهله والبعض من رجاله واخذ كل ما كان معه وسمل عينيه وسار بالجميع الى بغداد واحضر ابا القاسم عبد الله بن المكتفي فبايعوه بالخلافة ولقبوه المستكفي بالله (٣٣٣ — ٣٣٤) هـ (٩٤٤ — ٩٤٥) م وليس له من الامر شيء بل الامر كله للاتراك .

امارة زيرك

ولما كانت سنة ٣٣٤هـ مات توزون ببغداد فبلغ ذلك زيرك بن شيرزاد احد القواد وكان في هيت فاسرع الى بغداد فاجتمع اليه الاجناد وعقدوا له الرئاسة عليهم فولاه المستكفي امارة الامراء وحلف له فبعد ان كان القواد والامراء والوزراء يحلفون للخليفة اصبح الخليفة يحلف لهم وصار آلة في ايدي الاتراك .

«١» السندية قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد والانبار .

ولما تولى امارة الامراء زيرك بن شيرازد التركي زاد في اعطيات الجند على جاري العادة عند كل بيعة لكنه لم يجد في بيت المال مايعطيهم منه فلما طالبوه قسط الاموال على الرؤساء والكتاب والتجار فاضطربت بغداد لهذا الامر وكثرت فيها السرقات والنهب فانهزم اكثر التجار واهل الوجاهة منها وتقاعد الناس عن الاعمال والزراعة فغلت الاسعار وقطعت الطرقات واصبحت بغداد وما جاورها في فوضى فلما ضاق الامر بالناس وسئموا تجبرالاتراك وظلمهم وغدرهم بالخلفاء استغاثوا مراً باحمد ابن بويه فسار الى بغداد بجيوشه الديلم مغتنماً فرصة الاضطرابات فحالفه النصر واسس الدولة البويهية فيها كما سنذكره .

الدولة البويهية في بغداد . وزوال هيبة الخلافة

(٣٣٤ — ٤٤٧) ه (٩٤٥ — ١٠٥٥) م

اسس الدولة البويهية الفارسية ثلاث اخوة وهم علي والحسن واحمد اولاد ابي شجاع بويه الديلمي (١) وكان ابتداء ظهورها بشيراز سنة ٣٢٢ ه الموافقة لسنة ٩٣٤ م ثم قويت وفتحت عدة مدن وملكت بلاد فارس وعظم شأنها فلما اختلت شؤون بغداد وتوالت فيها الاضطرابات طمع فيها احمد فزحف اليها فلقيه والي واسط يوم ذاك بجكم التركي في ارجان فانتصر عليه احمد فانهزم بجكم الى الاهواز وتقدم احمد حتى ملك الاهواز عنوة وسار بجكم الى بغداد واستولى عليها كما مر وقلده الخليفة امارة

---

(١) الديلم جيل من الفرس وكانوا من الشيعة

الامراء خوفاً من شره . ولما عظمت الفتن في بغداد واستولى توزون عليها وتقلد الامارة كان احمد هذا في الاهواز يراقب كل ما يجري في بغداد من الاعمال و يأخذ الاخبار عن الحوادث التي تقع فيها فاغتنم فرصة نكبة الخليفــة المتقي بالله فحمل بجيشه الى واسط فلاقاه توزون والمستكفي بالله بالعساكر فعاد احمد الى الاهواز وذلك سنة ٣٣٣ﻫ وظل يترقب الفرص ولما اشتد الضيق ببغداد وضاقت الجبايات على العمال وامتدت الايدي الى اموال الناس وزاد ظلم الاتراك فيها وكثر النهب والسرقات ايام امارة زيرك بن شير زاد واخذ اهلها بالجلاء عنها استغاث من فيها باحمد وكتب اليه احد القواد الاتراك المدعو ينال يطمعه في ملكها فنهض احمد مغتنماً تلك الفرصة وسار بجيوشه الديلم من الاهواز مسرعاً فخرج اليه زيرك بن شير زاد بمن معه من جيوش الاتراك وقبائل الاكراد والتقى الفريقان و بعد معارك هائلة انهزم زيرك بمن معه الى الموصل بعد ان تولى الامارة ثلاثة اشهر واختفى الخليفة في بغداد فقدم احمد كاتبه حسن بن المهلبي فدخل هذا بغداد فظهر الخليفة وعاد الى مقره ودعى المهلبي واظهر له السرور والفرح بانتصار احمد وقدومه ثم دخل احمــد بغداد باستقبال عظيم واجتمع بالخليفة المستكفي فولاه الامارة وحلف له وخلع عليه والبسه طوقاً من الذهب وسوره بسوارين من الذهب وفوض اليه تدبير المملكة وعقد له لواء وامر ان يخطب له على المنابر ولقبه معز الدولة ولقب اخاه علياً عماد الدولة واخاه الحسن ركن الدولة وامر بضرب القابهم على الدراهم والدنانير وذلك سنة ٣٣٤ ﻫ

٥٢

معز الدولة

(٣٣٤ — ٣٥٦)

لما استتب امر معز الدولة في بغداد وقوي امره حجر على الخليفة وقدر له كل يوم برسم النفقة خمسة آلاف درهم ولكنه قلما كان يدفعها اليه (١) وهو اول من فعل ذلك واول من ملك بغداد من الديلم وبعد قليل حدثت بينه وبين الخليفة وحشة ورآه يسعى في اعادة حقوق الخلافة المغصوبة فاجتمع به في قصر الخلافة في محفل حافل وبينما هم جلوس دخل اثنان من الديلم وتناولا يد الخليفة فظنهما يريدان تقبيلها فمدها فجذباه عن سريره واخذا بخناقه ونهض حالا معز الدولة وسار الى داره فنهب الديلم جميع ما في قصر الخلافة وساقوا الخليفة ماشياً الى دار معز الدولة في اسوأ حال وهناك خلعوه وامر باعتقاله فاضطربت بغداد ونقم اهلها على معز الدولة فاحضر ابا القاسم الفضل ابن المقتدر فبايعوه بالخلافة ولقبوه المطيع لله « ٣٣٤ — ٣٦٣ » ه « ٩٤٥ — ٩٧٣ » م فغصب معز الدولة ما بقي من حقوق الخلافة وازداد امرها ادباراً ولم يبق للخليفة غير كاتب يدبر املاكه واقطاعه التي تركها معز الدولة ليسد بها حاجاته وأصبحت سلطة الخلافة مسلوبة تماماً بعد ان كانت مع ضعف شانها وادبار امرها لها بعض الشيء من السلطة

---

(١) اما رواتب حاشية الخليفة الذين ليس لهم علاقة الا بشخصه كالحجاب والحرس الخاص والاطباء فكانت تدفع من بيت مال الخاصة .

والحرمة فاسقط معز الدولة اعتبارها وهيبتها ولم يترك للخليفة غير الاسم ونال باعماله كل ما كان يتمناه ببغداد وظل السعد يخدمه حتى بلغ ما لم يبلغه احد قبله في الاسلام الا الخلفاء .

ولما بلغ ناصر الدولة ابن حمدان صاحب الموصل خبر اعمال معز الدولة من الاستيلاء على بغداد وخلع المستكفي وسلب جميع حقوق الخلافة اغتاظ لذلك وجهز جيشاً لقتال معز الدولة وسار به نحو بغداد فارسل اليه معز الدولة جيشاً فاوقع به ناصر الدولة في عكبرا او تقدم قليلا فسار معز الدولة ومعه الخليفة لقتاله فحدثت بين الفريقين حروب كثيرة وفي اثناء ذلك ارسل ناصر الدولة زيرك بن شيرزاد التركي الذي التحق به بفرقة من عساكره الى بغدادفاستولى عليها بغتة باسم ناصر الدولة وعلى اثر ذلك توجه ناصر الدولة من سامرا الى بغداد وعاد معز الدولة والخليفة اليها ايضاً فوجدا ناصر الدولة قد دخلها فدخلوها وانقسمت المدينة الى شطرين الجانب الشرقي في قبضة ناصر الدولة والجانب الغربي بيد معز الدولة فجرت بينهما عدة معارك داخل المدينة دامت اياماً نهب جند الديلم فيها كثيراً من اموال الناس واخيراً انتصر معز الدولة وانهزم ناصر الدولة من بغداد وعاد الى مقره وذلك السنة ٣٣٥ هـ .

ولم تمض مدة قصيرة حتى شغب الجند على معز الدولة في بغداد من اجل تأخير مرتباتهم فضمن لهم ايصالها ولما اعجزه ذلك اضطر الى اخذ اموال الناس بالباطل وسلم ضياع الخلافة وضياع المالكين الى القواد

ليزرعوها ويأخذوا مرتباتهم من غلتها . ولم يكفه هذا الظلم بل انه لما بنى داره ببغداد في محلة الشماسية وصرف عليها نحو مليون دينار احتاج الى المال فصادر جماعة من رجال الحكومة وذلك سنة ٣٥٠ ﻫ ثم اضطر في هذه السنة الى المال ايضاً فاعطا القضاء بالضمان فضمنه عبد الله بن الحسن بن ابي الشوارب بمائتي الف درهم سنوياً يدفعها الى بيت المال ببغداد وسمي قاضي قضاة بغداد وهو اول من ضمن القضاء في الاسلام(١).
ولما كان معز الدولة شيعي المذهب وكان في عهده عدد كبير من البغداديين قد اعتنقوا مذهبه اراد ان يجلب قلوبهم اليه فابتدع بدعة لم يسبقه اليها احد من الامراء وذلك انه امر بالزام اهل بغداد باغلاق جميع الاسواق ومنع الطباخين من الطبخ في يوم عاشورا وباخراج نساء يلطمن في الشوارع ويقمن العزاء للحسين . ففعلوا ذلك وخرجت جماعة من النساء ناشرات الشعور يلطمن في شوارع المدينة وهذا اول يوم جرى فيه مأتم رسمي عام في بغداد على المقتول بكربلا ظلماً وعدواناً وذلك سنة ٣٥٢ ﻫ .

عز الدولة

ولما مات معز الدولة ببغداد تولى الامارة ابنه بختيار بعهد منه (٣٥٦—٣٦٧) ﻫ فاقره الخليفة وخلع عليه ولقبه عز الدولة وكان ضعيف

---

(١) ومنذ ذاك صاروا يعطون القضاء بالضمان في اكثر الاحيان . ثم صاروا يعطون الحسبة والشرطة وغيرهما بالضمان ايضاً .

الرأي فاساء السيرة مع رجال الحكومة واشتغل باللهو واكثر الحروب مع امراء المدن المجاورة له وطرد كبار الدولة طمعاً في اقطاعاتهم فشغب الجند عليه ببغداد وكانوا طائفتين الديلم والاتراك وتوالت الفتن من اجل ذلك وقلت الاموال . ولما كانت سنة ٣٦١ ﻫ وجاء فريق كبير من المسلمين الى بغداد مستصرخين بما فعل بهم الروم في الجزيرة والرها ونصيبين وثارت عامة بغداد تريد حرب الروم طلب عز الدولة من الخليفة مالا لتجهيز الجنود فقال له الخليفة : تلزمني النفقة على الحرب اذا كانت البلاد في يدي وتجبي الي الاموال اما اذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء وانما يلزم من في يده البلاد وليس لي الا الخطبة فاذا شئتم ان اعتزل فعلت . فلم ينفعه احتجاجه وهدده عز الدولة فاضطر الى بيع انقاض داره وأثاثها وثيابه فجمعت اربعمائة الف درهم فسلمها الى عز الدولة فشاع في بغداد ان الامير صادر الخليفة ولما قبض المال عز الدولة تقاعد عن الحرب طمعاً بالمال وصرفه على مصالحه وانقطع حديث الحرب .

ولما دخلت سنة ٣٦٣ ﻫ سار عز الدولة الى الاهواز فحدثت هناك فتنة عظيمة بين الديلم والاتراك ادت الى حرب دموية بين الفريقين فانتصر الامير للديلم واعتقل رؤساء الاتراك وفتك الديلم بالاتراك فثار الحاجب سبكتكين التركي بمن معه من الاتراك في بغداد ونهب دار عز الدولة واستولى على حكومة بغداد وطلب من الخليفة ان يخلع نفسه ويسلم الخلافة الى ابنه وكان الخليفة قد أصيب بالفالج فخلع نفسه وبايع

ابنه عبد الكريم بالخلافة ولقبه الطايع لله فبايعه الجميع (٣٦٣ — ٣٨١) هـ
(٩٧٣ — ٩٩١) م وعلى اثر ذلك جاء عز الدولة من واسط الى بغداد
فراى الترك قد استولوا على الدولة فأخذ يدبر المكيدة على سبكتكين
واغرى رجاله باذاعة خبر موته ليأتي سبكتكين الى داره للعزاء فيقبض
عليه ففعلوا ذلك غير ان سبكتكين لم تفته حيلتهم فحاصر دار عز الدولة
يومين ثم وضع النار فيها فخرج اهلها وطلب عز الدولة الذهاب الى
واسط بمن معه فاذن لهم فانحدروا في دجلة ومعهم الخليفة فارسل في اثرهم
سبكتكين جماعة من رجاله لرد الخليفة فردوه الى بغداد وقوي امر الاتراك
ببغداد واستولى سبكتكين على جميع ما كان لعز الدولة من المنقول والثابت
فثار الديلم ونهبوا اموال الاتراك فحدثت من جراء ذلك فتنة عظيمة
وانقسم البغداديون الى حزبين السنة وهم انصار الاتراك والشعية وهم انصار
الديلم وبعد قتال دام اياماً في شوارع المدينة واسواقها انتصر السنة واحرقوا
دور الشيعة . اما عز الدولة فانه بعد ان وصل مدينة واسط استنجد بابن
عمه عضد الدولة المستقل ببلاد فارس فلما علم الثاني بضعف امر الاول
وما فعله الاتراك معه عزم على المسير لنصرته فسار في عساكر فارس
سنة ٣٦٤ هـ قاصداً واسط ولما وصلها واجتمع بعز الدولة اتفقا على ان
يسير عضد الدولة الى الجانب الشرقي من بغداد ويسير عز الدولة الى
الجانب الغربي منها فيحاصرها من جميع الجهات ثم سارا بالجيوش على
تلك الخطة حتى احاطوا بالمدينة . وكان سبكتكين قد مات قبل ان يحاصرا

بغداد وولى الاتراك مكانه افتكين التركي فتجهز هذا لصد جيوش الديلم فلما احاطوا ببغداد اتخذ خطة الدفاع ودافع رجاله دفاعاً شديداً وفي اثناء ذلك غلت الاسعار وقلت الاقوات فاحتاج افتكين الى الطعام واضطر الى كبس بيوت البغداديين فكبسها واخذ منها كل ما وجده من الطعام فاضطرب حبل الامن وكثر النهب والسلب في المدينة وسادت الفوضى فيها . واخيراً اضطر افتكين الى منازلة عدوه خارج المدينة فخرج اليه وقاتلت جنوده قتالاً شديداً وبعد معارك هائلة انهزم بمن معه الى تكريت واستولى عضد الدولة وعز الدولة على بغداد .

ولما كان عضد الدولة طامعا في العراق وعالماً بضعف عز الدولة وقلة المال عنده اغرى الجنود على ان يثوروا عليه ويطالبوه بنفقاتهم فشغبوا عليه وبالغوا فيه فاحتار عز الدولة لانه كان لا يملك شيئاً من المال فاشار عليه عضد الدولة بعدم الاكتراث بهم والتظاهر بالتنازل عن الملك فظنه عز الدولة لضعف رأيه انه ناصحاً له ومدبرا ففعل بما اشار عليه واغلق باب داره وصرف حجابه وكتابه فشاع في المدينة ان عز الدولة قد تخلى عن الملك فاجتمع رجال الحكومة والجنود حول عضد الدولة ففرق على الجيوش الاموال وجلب اليه قلوبهم فنودي له بالملك . ولما نجح عضد الدولة في حيلته اعتقل عز الدولة واخوته وصفا له الجو ببغداد وشرع يعمر ما افسدته الفتن . وعلى اثر ذلك ثار المرزبان ابن عز الدولة وكان متولياً على البصرة وكاتب امراء البلاد يطلب منهم نصر ابيه فكتب الى ركن الدولة يخبره

بما فعل ابنه عضد الدولة بابيه فغضب ركن الدولة لهذا الأمر وكتب الى ابنه يأمره بان يعيد الملك الى عز الدولة فاجابه يخبره بضعف رأي عز الدولة وانه لايقدر على ضبط الملك وتدبيره وانه اذا ترك العراق له ربما ضاع من بني بويه كافة . فاساء ابوه الرد عليه وحبس وزيره ابن العميد اباالقاسم فاحتال الوزير على ركن الدولة حتى اقنعه على شرط انه اذا اطلقه من السجن يعيد الملك الى عز الدولة فاطلقه على هذا الشرط فسار الى بغداد وخوف عضد الدولة من ابيه وحذره عاقبة التعنت وصادف ذلك اتفاق الامراء الذين راسلهم ابن عز الدولة على قتال عضد الدولة واجماع كلمتهم على نصر ابيه فخشى عضد الدولة عـاقبة الامر فاخرج عز الدولة من السجن واعاده الى منصبه وسار عن بغداد راجعاً الى مقره واستلم عز الدولة زمام الامور .

ولما مات ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ وتولى ملكه ابنه عضد الدولة كان عز الدولة يسعى في اجتذاب الامراء اليـه ليقوى بهم على عضد الدولة حتي انه اغرا بعضهم في الانتقاض عليه فعلم ذلك عضد الدولة فعزم على اخذ العراق منـه وسار بجنوده نحوه فخرج عز الدولة الى واسط لصده وبعد معارك شديدة انحدر عز الدولة وتحصن في واسط وطلب الصلح فترددت الرسل بينهما اياما بدون فائدة واخيراً سار عضد الدولة الى بغداد ودخلها بسلام وكتب الى عز الدولة يدعوه الى الطاعة ويأمره بالخروج من العراق الى اي قطر شاء الا الموصل فخرج عز الدولة من واسط قاصداً سورية وذلك سنة ٣٦٧ هـ

عضد الدولة

(٣٦٧—٣٧٣) هـ

عندما دخل عضد الدولة بغداد خلع عليه الخليفة الطائع وتوجه بتاج مجوهر وطوقه وسوره بسوار على جري العادة وقلده سيفاً من الذهب وعقدله لوائين احدهما مذهب والاخر مفضض وكتب له عهداً قرئ بحضرته وامر بان يخطب له على المنابر بالملك وان يضرب اسمه ولقبه على الدراهم والدنانير . ولما خرج عضد الدولة من قصر الخلافة ارسل الى الخليفة هدية فاخره نقلها خمسون جمالا من جملتها خمسون الف دينار والف الف درهم « مليون » وخمسمائة ثوب من الحرير وثلاثين صينية مذهبة فيها المسك والعنبر والكافور والند وغير ذلك من الثياب والفرش والخيل .

اما عز الدولة فانه لما خرج من واسط قاصداً سوريه ووصل الى حديثة الفرات وافاه ابو تغلب ابن حمدان في عشرين الف مقاتل وكان من انصاره فاتفق معه على قتال عضد الدولة واخراجه من العراق فزحفا على بغداد وخرج اليهما عضد الدولة والتقوا بالقرب من تكريت وبعد عدة معارك دارت الدائرة على جيش ابن حمدان وانتصر عضد الدولة واسر عز الدولة وقتله وقتل وزيره ابا طاهر وامر بصلب جثته فرثاه ابو الحسن الانباري بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

علو في الحياة وفي الممات　　　لحق تلك احدى المعجزات

وفي هذه السنة اعتقل عضد الدولة ابا اسحق ابراهيم الصابي الكاتب المشهور ببغداد وعزم على القائه تحت ايدي الفيلة فشفعوا فيه ثم اطلقه سنة ٣٧١ ﻫ وسبب ذلك هوان ابراهيم كان كاتباً في ديوان الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة ثم تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ ﻫ وكانت تصدر عنه رسائل الى عضد الدولة بما يؤلمه فحقد عليه . ولما مات الصابي سنة ٣٨٠ ﻫ رثاه الشريف الرضي بقصيدة بديعة اولها :

أرأيت من حملوا على الاعواد   أرأيت كيف خبا ضياء النادي

وبعد ان هدأت الاحوال شرع عضد الدولة في عمارة بغداد فعمر جوامعها ومدارسها واسواقها وجدد ماالندثر من الانهار التي حولها وذلك سنة ٣٦٩ ﻫ وكانت قد خربت المدينة من توالي الفتن والاضطرابات ومن الغرق الذي اصابها مراراً اثناء اشتغال حكوماتها واهلها في الحروب والثورات التي اشغلتهم عن تحكيم السداد وعن تعمير كل ما خرب .

وفتح عضد الدولة صدره للعلماء وناظرهم في المسائل واكرمهم وشجعهم على نشر العلوم والفنون ورغب الناس في الاشتغال بذلك ونشطهم على توسيع نطاق الزراعة والتجارة فزهت بغداد في ايامه وتوفرت فيها الاموال وامتلأ بيت المال وقصدها جماعات من رجال العلم وصنفوا له كتباً عديدة في علوم مختلفة فاشتهر ببغداد في ايامه جماعة من العلماء والحكماء والادباء والاطباء وغيرهم . وبنى مارستاناً كبيراً على طرف الجسر في الجانب

الغربي من بغداد نقل اليه كل ما يلزم له من الادوية والآلات ورتب له ٢٤ طبيباً وفيهم الجراحون والكحالون والمجبرون وممن كان يدرس صناعة الطب فيه الطبيب ابراهيم بن بكس وكان رئيس هذا المارستان الشيخ ابو منصور صاعد بن بشر الطبيب وهو اول من عالج الامراض التي كانت تعالج بالادوية الحارة بالادوية الباردة ولما نجح في عمله عين رئيساً لهذا المارستان . وكان يسمى البيمارستان العضدي . واراد عضد الدولة ان تكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب فحمل الطايع على ان يتزوج بابنته فتزوجها على صداق مائة الف دينار فجمع الخليفة بهذا الزواج بين بنت عضد الدولة وبنت عز الدولة التي تزوجها قبلا على مثل ذلك الصداق .

وتوفى عضد الدولة ببغداد سنة ٣٧٣ ﻫ بعد ان اتسع ملكه فحمل نعشه الى مشهد الامام علي . وكان عاقلا فاضلا حسن السيرة والسياسة والتدبير محباً للعلوم والفنون والعمران سعدت في ايامه بغداد وعاش اهلها تحت عدله بهناء وسلام وهو اول من ضرب الطبل على بابه واول من عقد له الخليفة لوائين واول من تسمى بملك في الاسلام .

صمصام الدولة

(٣٧٣ — ٣٧٧) ﻫ

وتولى بعد عضد الدولة ابنه صمصام الدولة ابو كاليجار فخلع عليه الخليفة

على جرى العادة وخطب له على المنابر ولكنه لم يكن كأبيه فاساء السيرة مع اهل بغداد وطرح عليهم كثيراً من الرسوم حتى كادوا يثورون عليه فمن ذلك انه لما احتاج الى المال سنة ٣٧٥ ﻫ ضرب ضريبة على ثياب الحرير والقطن التي تنسج في بغداد ونواحيها وامر باحصاء ما سيجبي من تلك الضريبة فبلغت مليون درهم في السنة وعلى اثر صدور هذا الامر ثار اهل بغداد واجتمعوا في جامع الخلفاء وعزموا على الامتناع من صلاة الجمعة فاضطربت الاحوال واضطر صمصام الدولة الى لغوهذه الضريبة .

ولما كانت سنة ٣٧٦ ﻫ حدثت بين صمصام الدولة وبين اخيه شرف الدولة ابي الفوارس وحشة وكان الثاني عالماً بعدم رضاء اهل بغداد وجنودها على صمصام الدولة وكرههم له وشغبهم عليه لسوء تدبيره فاغتنم فرصة ذلك الاضطراب وزحف من الاهواز على العراق بخمسة عشر الف مقاتل من الديلم فلما وصل الى واسط واستولى عليها شغب الجند ببغداد على صمصام الدولة فخاف انساع الخرق فسار بجماعة من رجاله الى واسط ليصالح اخاه فلما التقى به طيب قلبه واكرمه ولما اراد الرجوع الى بغداد وخرج من منزل شرف الدولة قبض عليه واعتقله وسار نحو بغداد ومعه اخوه المعتقل فدخلها بدون حرب وذلك سنه ٣٧٧ ﻫ .

شرف الدولة

(٣٧٧ — ٣٧٩) ﻫ

دخل شرف الدولة بغداد فركب اليه الخليفة الطايع وهنأه وعهد اليه

بالسلطنة وتوجه والبسه سوارين وخلع عليه وامر فقري عهده وخطب له على المنابر وصار لقب السلطان بدلا من لقب امير الامراء فاحسن شرف الدولة السيرة ووجه نظره الى احوال المملكة وشرع يصلح ما افسدته الفتن المتوالية فرد الاملاك المغصوبة الى اهلها منهم النقيب ابو احمد والد الراضي والشريف محمد بن عمر الكوفي واقر على الناس مراتبهم ثم وجه نظره الى تشجيع العلوم والفنون وبنى رصداً في طرف بستان دار المملكة ببغداد وجمع فيه الفلكيين وامرهم برصد الكواكب فرصدوها له منهم ويجن الكوهي وذلك سنة ٣٧٩ﻫ واكرم هذا السلطان العلماء وقربهم ولم يحدث في ايامه ببغداد ما يخل بالنظام غير حادثتين . الاولى ان عساكره الذين كانوا نحو الخمسة عشر الفاً من الديلم استطالوا على جنود الاتراك الذين كانوا في المدينة وحدثت بينهم منازعة في دار او اصطبل وآلت المنازعة الى القتال داخل بغداد فانتصر الديلم لكثرتهم وانخذل الاتراك لانهم كانوا يوم ذاك ثلاثة آلاف رجل — فنادى الديلم باعادة صمصام الدولة الى الملك فارتاب بهم شرف الدولة ووكل بصمصام الدولة من يقتله ان هموا بذلك . ثم انتصر الاتراك على الديلم بمساعدة الاهلين من السنة وفتكوا بهم وشتتوهم فاعتصموا بشرف الدولة فاصلح بينهم وحلف بعضهم لبعض وعلى اثر هذه الحادثة ارسل شرف الدولة اخاه صمصام الدولة مسجوناً الى بلاد فارس فاعتقل هناك . اما الثانية فهي ان قائد الجيوش قراتكين الذي كان قد افرط في

الدولة حتى صار حملا ثقيلا على شرف الدولة حدثت بينه وبين منصور بن صالحان وزير شرف الدولة وحشة فاغرى الجنود بالشغب على الوزير فثاروا عليه واسمعوه ما يكره فانبسط لهم الوزير ولاطفهم فسكنوا فاصلح شرف الدولة بين الوزير والقائد وشرع سراً في تدبير الخلاص من القائد حتي تمكن بعد ايام قليلة من القبض عليه وعلى جماعة من انصاره وصادر اموالهم فشغب الجند فقتل شرف الدولة القائد وولى مكانه طغان الحاجب فسكن الجيش واخلد الى السكون . وتوفي شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ ببغداد .

بهاء الدولة

٣٧٩—٤٠٣ هـ

وتولى الامر بعد شرف الدلة اخوه ابو نصر فركب الخليفة الطايع اليه ودخل عليه يعزيه باخيه فقبل ابو نصر الارض بين يدي الخليفة واظهر له احتراما عظيما ثم عاد الخليفة الى قصره فحضر عنده الوجوه والامرآء وابو نصر فخلع عليه الخليفة سبع خلع وطوق عنقه بطوق كبير من ذهب والبسه سوارين من الذهب ومشى الحجاب بالسيوف بين يديه فقبل الارض بين يدي الخليفة وجلس على كرسي اعدله فقرئ عهده ولقبه الخليفة بهاء الدوله .

ولما تم الامر لبهاء الدولة استخلف على بغداد ابا نصر خواشاذه وسار

هو منها الى جرجان سنة ٣٨٠ هـ وملكها وجرت بينه وبين صمصام الدولة الذي فر من السجن بعد وفات شرف الدولة حروب عديدة ثم اصطلحا وعاد بهاء الدولة الى بغداد وفي اثناء غيابه حدثت فتن عديدة ببغداد تارة بين الديلم والترك واخرى بين السنة والشيعة فلما عاد اصلح ما افسدته تلك الفتن وبينما هو يصلح ما فسد شغب الجند عليه لتأخير مرتباتهم فاحتاج الى المال فاغراه ابو الحسن بن المعلم — وكان مقرباً عنده — بالقبض على الخليفة الطايع واطمعه في امواله . وصادف ان الخليفة كان قد حبس رجلا من خواص بهاء الدولة فاغتاظ منه واضمر له السوء وارسل اليه في الحضور عنده فجلس الخليفة حسب العادة على سريره متقلداً سيفه فجاء بهاء الدولة مع جماعة من حاشيته وقبل الارض بين يدي الخليفة وجلس على كرسيه وكان قد اوصى بعض رجاله بالقبض على الخليفة وبينما هم جلوس تقدم رجاله الى الخليفة وجذبوه من سريره ولفوه في كساء وصعدوا به الى دار السلطنة وهو يستغيث ويقول (انا لله وانا اليه راجعون) فحبسوه واخذ بهاء الدولة كل ما كان في قصره وانفقه على الجند فاضطربت بغداد لهذه الحادثة وكان الشريف الرضي ببغداد فقال في ذلك ابياتاً منها :

من بعد ما كان رب الملك مبتسماً الي ادنوه في النجوى ويدنيني
امسيت ارحم من قد كنت اغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني

فهيهات اشتر بالسلطان ثانية   قد ضل ولاج ابواب السلاطين

ونهب الناس بعضهم وتقموا على بهاء الدولة ولكنه لم يبال بهم واجبر الطايع على خلع نفسه واشهد عليه بالخلع وانفذ جماعة من الوجوه الى البطيحة لاحضار ابى العباس احمد ابن الامير اسحق ابن المقتدر فاحضروه الى بغداد وخرج لاستقباله بهاء الدولة والامراء والعلماء والوجوه وادخلوه قصر الخلافة وبايعوه ولقبوه القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢) ﻫ (٩٩١ — ١٠٣١) م ولما تمت البيعة حمل الطايع المخلوع الى قصر القادر بالله فبقي مكرماً الى ان مات . وكان القادر هذا عالماً فاضلا صنف كتاباً في الاصول وله شعر جيد وتمكن بحسن سيرته وتدبيره من ارجاع بعض مجد الخلافة . وفي السنة نفسها (٣٨١) ﻫ بنى سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة مكتبة كبيرة على مثال بيت الحكمة الذي انشاه الرشيد وزادفيه المأمون . بناها في محلة بين السورين في الجانب الغربي من بغداد وسماها دار العلوم وجعل فيها من الكتب الخطية النفيسة اكثر من عشرة آلاف كلها بخطوط الائمة ورجال العلم فكانت اشهر مكتبة في بغداد بل كانت مجمعاً للعلماء والادباء والفلاسفة الذين كان منهم جماعة كبيرة في هذه العاصمة حينذاك (١)

ولما كانت سنة ٣٩٠ ﻫ وكان بهاء الدولة قد تم امره في العراق

(١) احترقت هذه المكتبة فيما احترق من محلات الكرخ يوم مجيء طغرل بك اول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ ﻫ

والموصل وخوزستان وشيراز وكرمان ولم يبق له منازع في الملك ارتأى المقام في خوزستان فاستخلف على بغداد ابا علي ابن جعفر المعروف باستاذ هرمز ولقبه عميد العراق وسار هو من بغداد ومنذ ذاك بقي ملوك الديلم مدة طويلة يقيمون بفارس والاهواز و يستخلفون على العراق رجلا من خاصتهم يقيم فى بغداد .

وبعد ان مات النائب عميد العراق ببغداد سنة ٤٠١ ولى مكانه بهاء الدولة ابا غالب و لقبه فخر الملك وظل هذا ببغداد نائباً على العراق حتى مات بهاء الدولة سنة ٤٠٣ ﻫ بارجان وحمل نعشه الى بغداد ومنها نقل الى مشهد الامام علي ودفن هناك . وممن تولى ديوانه ببغداد علي بن محمد الكاتب وصنف له المنشور البهائي وهو نثر كتاب الحماسة .

سلطان الدولة ومشرف الدولة

« ٤٠٣ — ٤١٦ » ﻫ

وتولى بعد بهاء الدولة ابنه ابو شجاع سلطان الدولة فابقى فخر الملك ببغداد نائبا على العراق ثم خالفه في بعض الامور فأمر بالقبض عليه سنة ٤٠٦ ﻫ فارسل من بغداد الى شيراز فقتله هناك وولى مكانه ابا محمد الحسن بن سهلان ولقبه عميد الجيوش وظل هذا مقيماً في بغداد . ولما كانت سنة ٤٠٧ ﻫ جاء سلطان الدولة الى بغداد واقام بها اياماً ثم سار منها لقتال اخيه ابي الفوارس مشرف الدولة وبعد ان تم الصلح بينهما عاد الى بغداد سنة ٤١١ ﻫ وعلى اثر ذلك ثارت عليه الجنود فيها ونادوا

بولاية اخيه مشرف الدولة فاسكتهم بالمال وعزم على الذهاب الى واسط فطلبوا منه ان يستخلف مشرف الدولة على بغداد فاستخلفه كرهاً وسار الى واسط ثم عزم على المسير الى الاهواز فاستخلفه على العراق كله بعد ان تحالفا ان لا يستخلف احد منهما ابا سهلان . فلما وصل سلطان الدولة الى تستر استوزر ابن سهلان وسيره بالعساكر لحرب مشرف الدولة واخراجه من العراق فاغتاظ مشرف الدولة واتحد مع مع الاتراك وجهز جيشاً جراراً مؤلفاً من الاتراك والديلم والتقى بالوزير قرب واسط وبعد معارك هائلة انهزم الوزير وتحصن بواسط فحاصره مشرف الدولة حتى اضطره الى الفرار بمن معه فدخلها مشرف الدولة واعلن استقلاله في العراق فعظم امره وعلا شأنه وخوطب بشاهنشاه (ملك الملوك) وخطب له بالملك على المنابر وذلك سنة ٤١١ ﻫ واستمر ملكه على العراق الى ان توفي ببغداد سنة ٤١٦ ﻫ .

وفي عهده توفي ببغداد الشريف الرضي الحسن بن محمد سنة ٤٠٤ ﻫ وكان عالماً فاضلاً وشاعراً مفلقاً وكاتباً بليغاً . تولى نقابة نقباء الطالبين سنة ٣٥٩ ثم ضمت اليه الاعمال التي كان يليها ابوه وهي النظر في المظالم والحج بالناس . وكان من سمو المقام بحيث يكتب الى الخليفة القادربالله من قصيدة طويلة :

عطفاً امير المؤمنين فاننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... ابداً كلانا في المعالي معرق

الا ا لخلافــة ميزتك فانني انا عاطل منها وانت مطوق

جلال الدولة

« ٤١٦ - ٤٣٥ » هـ

وتولى بعد مشرف الدولة اخوه ابو طاهر جلال الدولة وكان ضعيف الرأي سيء التدبير من ذلك انه لما بويع بالملك وهو يومئذ في البصرة طلب الجيش قدومه الى بغداد فامتنع فخرجوا عن طاعته وقطعوا خطبته وخطبوا لابن اخيه ابي كاليجار ابن سلطان الدولة الذي ملك فارس بعد ابيه فلما علم جلال الدولة بذلك ترك البصرة وسار نحو بغداد فخرج اليه جيشها ليرده فقاتلهم وانتصر عليهم ودخل بغداد فخرج لاستقباله الخليفة وقلده الامارة على جرى العادة . ومنهـا ان الجيش ثار عليه ببغداد سنة ٤١٩ هـ بسبب قطع مرتباتهم وحصروه في داره ومنعوا عنه الماء فاضطر الى بيع حلي نسائه وثيابه وفرق ثمنها على الجيش . ثم ثاروا عليه ثانية سنة ٤٢٣ هـ وشغبوا عليه فدخل قصره واغلق ابوابه فجائت الاتراك ونهبوا قصره وسلبوا كتابه وارباب دواوينه فاضطر الى الخروج من بغداد فسار منها الى عكبرا[١] فخطب الاتراك للملك ابي كاليجار ابن سلطان الدولة وارسلوا اليه يطلبونه وهو يومئذ بالاهواز فلم يجبهم فاعدوا خطبة

---

(١) عكبرا من بلاد العراق القديمة كانت بين بغداد وسامرا على عشرة فراسخ من بغداد وتكتب عكبرا وعكبرى وعكبره

جلال الدولة وسار زعماؤهم اليه وسألوه الرجوع الى بغداد واعتذروا عما فعلوه فعاد الى بغداد بعد « ٤٣ » يوماً .

ولسوء تدبير وضعف رأيه كثرت الفتن في بغداد وتوالى فيها شغب الاتراك وعظم أمرهم فيها وكثر المفسدون واللصوص وانتشر الاعراب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطرق وبلغوا اطراف بغداد حتى وصلوا الى جامع المنصور وسلبوا ثياب النساء في المقابر . بل ان الفوضى عمت في ايامه جميع البلاد العراقية وكثر السلب والنهب والقتل وضعف امر الدولة البويهيـة في العراق وخصوصاً بغداد حتى حاول البغداديون ترك وطنهم لعدم الامن وشيوع الفوضى في المدينة وما يليها ولكنهم لم يجدوا الى ذلك سبيلا لانقطاع الطرق وانتشار اللصوص في كل الجهات حتى ان جماعة من الاكراد نهبوا دواب بعض الجنود ونهبوا ثمرة قراح (مزرعة) الخليفـة القائم فلم يتمكن جلال الدولة من القبض عليهم لعجزه فعظم ذلك على الخليفة واضطر ان يهدده فامر القضاة والفقهاء بالاضراب عن العمل بترك القضاء والفتوى ففعلوا فلما لم يحصل الخليفة على شيء امر بترك الاضراب . ومع عجز جلال الدولة وضعفه لقب سنة ٤٢٩ هـ بملك الملوك وتوفي ببغداد سنة ٤٣٥ هـ وفي عهده توفي الخليفة القادر بالله فبويع بالخلافة لابنه ابي جعفر عبد الله ولقبوه القـائم بامر الله « ٤٢٢ — ٤٦٧ » هـ « ١٠٣١ — ١٠٧٤ » م وكان القائم عالماً فاضلا كثير الورع له عناية كبيرة في الادب . ضيق عليه جلال الدولة واخذ منه سنة ٤٣٤ هـ اموالا كانت

مقررة للخلفاء من ذي قبل فحدثت من اجل ذلك وحشة بينهما دامت الى ان توفي جلال الدولة .

ابو منصور وابو كاليجار

«٤٣٥—٤٤٠» هـ

لما توفي جلال الدولة كان ابنه الاكبر الملك العزيز ابو منصور بواسط فبويع له ببغداد وكتبت اليه الجيوش بالطاعة وشرطوا عليه تعجيل حق البيعة فلما تأخر ذلك عنهم كتبوا الى ابي كاليجار ابن سلطان الدولة يسألونه القدوم اليهم فاجابهم ورغبهم بالمال وزيادة العطاء فمالوا اليه وقطعوا خطبة الملك العزيز وبايعوا ابا كاليجار وخطبوا له على المنابر فسار هذا الى بغداد ودخلها سنة ٤٣٦ هـ ولقبه الخليفة محي الدين

وفي ايامه قوي امر السلجوقيين الاتراك وانتزعوا البلاد من بني بويه وعظم شأن زعيمهم ركن الدين طغرل بك السلجوقي فخافه ابو كاليجار وكتب اليه في الصلح سنة ٤٣٩ هـ فاجابه اليه وكتب طغرل بك الى اخيه يأمره بعدم التعرض بمملكه ابي كاليجار واستقر الحال بينهما على ان يتزوج طغرل بك بنت ابي كاليجار ويتزوج الامير منصور ابن ابي كاليجار بنت الملك داود اخي طغرل بك وجرى ذلك الزواج في السنة نفسها ولما كانت سنة ٤٤٠ هـ سار ابو كاليجار بجيشه من بغداد قاصداً اخضاع عامله الذي عصى في كرمان وقبل ان يلتقي به مات في الطريق .

الملك الرحيم

«٤٤٠ — ٤٤٧» هـ

حينما توفي ابو كاليجار كان ابنه ابو نصر ببغداد فبويع له بالملك وحلف له الجيش بالطاعة فارسل الى الخليفة القائم بامر الله يطلب منه الخطبة وتلقيبه بالملك الرحيم فاجابه الخليفة الى ماطلب الا اللقب فانه امتنع من اجابته قائلا : لايجوز ان يلقب باخص صفات الله ، فترددت الرسائل بينهما من اجل ذلك واصر الخليفة على رفض اللقب فلقبه اصحابه به رغم ارادة الخليفة فاستقر ملكه بالعراق وخوزستان .

وفي عهده بلغت دولة بنى بويه في العراق من الضعف والفوضى الى درجة محزنة وحدثت ببغداد فتن عديدة بين السنة والشيعة قتل فيها خلق كثير لعدم تمكن الحكومة من قمع الفتن التي كانت تقوم فيها تارة من اجل المناصب واخرى من التعصب المذهبي الذي هو السبب الاكبر لتمزيق الامة ومحوها . وقد قتل في احدى تلك الفتن ببغداد مدرس الحنفية ابو سعيد الرخجي واحرقت دور الفقهاء وضريح الامام موسى بن جعفر الصادق وقبر زبيدة زوجة الرشيد وقبور الخلفاء وقبور ملوك بني بويه وذلك سنة ٤٤٣ هـ .

وعلى اثر تلك الفتن وانحلال امور الدولة طمع طغرل بك السلجوقي في الاستيلاء على العراق فتقدم الى بغداد بعد ان فتح بلاداً كثيرة

فاستولى عليها وقرض الدولة البويهية من العراق بعد ان حكمته مائة وثلاثة عشرسنة من تاريخ استيلاء معز الدولة احمد على بغداد الى آخر ايام الملك الرحيم . وعدد الملوك البويهيين الذين ملكوا العراق عشرة .

الدولة السلجوقية في بغداد

(٤٤٧—٥٤٧) هـ

(١٠٥٦—١١٥٢) م

السلجوقيون قوم من الترك الخزر اسس دولتهم سلجوق بن يكاك في تركستان ثم عظم امرهم وقوي شأنهم وملكوا بلاداً كثيرة وعرفت دولتهم بالدولة السلجوقية نسبة الى جدها سلجوق . وبينما كانت دولة البويهيين تنحط عاما فعاما كانت دولة السلجوقيين تتوسع يوما فيوما حتي استولت على البلاد المحاددة لشرقي العراق

فلما كانت سنة ٤٤٧ هـ جاء ابو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق الملقب ركن الدين طغرل بك ونزل بجيوشه الاتراك مدينة حلوان(١) واعلن انه يريد الحج وسيمر بالشام . فلما بلغ ذلك اهل بغداد وكانوا يومئذ قد سئموا حكم البويهيين وملوا سياستهم وتمنوا زوال ملكهم اظهر البعض الفرح والسرور فشغب الجند الاتراك وقصدوا ديوان الخلافة وطلبوا خروج الخليفة القائم بامر الله معهم للدفاع فامتنع الخليفة لان السلطة

(١) حلوان بلدة قديمة في آخر حدود العراق شرقا . كان موقعها في المكان المسمى الان يطاق على مسافة ست ساعات من قصر شيرين

الفعلية كانت بيد الملك الرحيم وكان هذا يومئذ في واسط فعسكر الاتراك بضواحي بغداد فلما رأوا عجز حكومتهم وانحلال امرهم عادوا اليها فاسرع الملك الرحيم الى بغداد فرأى الفوضي ضاربة اطنابها فلم يتمكن من اتخاذ الوسائل الدفاعية تجاه جيش الاتراك الجرار لضعف بيت المال واختلال شؤون الدولة .

اما قواد الاتراك فانهم لما شاهدوا عجز حكومتهم وتقاعد ملكهم راسلوا طغرل بك باذلين له الطاعة وطلبوا قدومه الى بغداد ووافقهم على ذلك الخليفة فاجابهم طغرل بك ووعدهم بالمواعيد الجميلة واقسم للخليفة وللملك الرحيم باحترام حقوقهم بل انه كاتب الخليفة بطاعته واحترام جميع حقوقه ثم سار حتى نزل بضواحي بغداد وعسكر فيها وذلك في اليوم السادس عشر من شهر رمضان سنه ٤٤٧ ه .

طغرل بك

(٤٤٧—٤٥٥) ه

بعد ان نزل طغرل بك بجيوشه بظاهر بغداد ارسل فرقة من جنوده لى المدينة لتحتلها حسب الاصول المتخذ يوم ذاك فانتشرت عساكره في شوارع المدينة واسواقها فظن العامة ان الملك الرحيم امر بقتالهم فثاروا وقاتلوا هؤلاء الجنود وتمادوا في ثورتهم وخرجوا الى معسكر طغرل بك فخاف الملك الرحيم من ان تنسب اليه هذه الثورة فاحتمى بقصر الخلافة

مع اصحابه . فركبت عساكر طغرل بك وصالت وجالت في شوارع المدينة واسواقها ومحلاتها ودروبها وقاتلت العامة حتى هزمتهم ونهبت بعض الدروب حتى دروب الخلفاء وفشى النهب والقتل وعظمت الفتنة واحرقت دور كثيرة من جملتها دار العلم التي بناها سابور بن اردشير في محلة بين السورين بالكرخ .

فلما صار الغد سكنت الفتنة وارسل طغرل بك الى الخليفة يعاتبه على ما جرى ونسب كل ذلك الى الملك الرحيم وطلب حضوره مع رجاله فامرهم الخليفة بالذهاب اليه و بعث معهم رسوله ليبرئهم فساروا في ذمامه ولما وصلوا قرب خيمة طغرل بك امر فقبضوا عليهم ثم ارسل الملك الرحيم محبوساً الى قلعة السيروان . ودخل طغرل بك بغداد واستقر له الملك بالعراق وملك اخوه داود خراسان

ولما دخل طغرل بك بغداد سار الى قصر الخلافة وقبل الارض بين يدي الخليفة القائم بامر الله وحلف له بالطاعة فرحب به الخليفه وخلع عليه وامر بان يخطب له على المنابر . فاستبد هذا بالدولة العباسية و بث العمال في البلاد العراقية ونظم شؤون دولته . و بدخوله بغداد ابتدأت الدولة السلجوقية فيها ومنذ ذلك عاد الخلفاء الى اتخاذ الوزراء ببغداد لان السلجوقيين لم يضغطوا عليهم كما ضغط البويهيون. واراد طغرل بك ان يوطد قدمه في الدولة فزوج خديجة ابنة اخيه داود الى الخليفه القائم بامر الله وانفق على ذلك الزواج اموالا طائلة واستخلف طغرل بك

وزيره عميد الملك في بغداد نائبا على العراق سنة ٤٥٠ ه وسار عنها لقتال اخية ابراهيم حاكم الجبل وهمذان الذي ثار عليه وخطب لخليفة مصر المنتصر باغراء ارسلان البساسيري[١] فحاربه حتى قتله . وفي اثناء اشتغاله بحرب اخيه اغتنم ارسلان البساسيري فرصة غيابه فزحف من الانبار على بغداد ثم نزل الجانب الغربي على دجلة تجاه باب الطاق وعقد جسراً عبر عليه بجيوشه الى الجانب الشرقي وزحف على المدينة فدافع عنها الخليفة دفاعا شديدا وجرت بينهما حروب آلت الى خراب بغداد فلما دخل الساسري المدينة جرت بين جيوشه وبين اهل بغداد حروب في الشوارع والاسواق واخيرا اندحر الاهلون ونهبت جيوش البساسيري دوراً كثيرة واضرموا النار في البيوت والاسواق ونهب قائدهم قصر الخلافة وذلك سنة ٤٥٠ ه وخطب في جوامع بغداد لخليفة مصر المنتصر الفاطمي .

اما الخليفة القائم بامر الله فانه خرج من بغداد في جماعة من خدمه فحماه قريش بن بدران امير الموصل وكان مع البساسيري وعبر معه في خدمته الى الجانب الغربي وسيره الى عانة وانزله على عمه مهارش بن مجلى فقام هذا بخدمته الخليفة سنة كاملة [٢] .

---

(١) ارسلان البساسيرى كان من قواد الجيوش وهو تركي الاصل كان له نفوذ كبير وهيبة عظيمة التف حوله عدد عظيم من الاتراك وغيرهم وامده صاحب مصر بالمال فتقوى امره . وهو منسوب الى بساسير مدينته ،

(٢) وفي رواية ان البساسيري قبض على الخليفة وارسله مخفوراً الى حديثة الفرات

ولما علم طغرل بك بما جرى في بغداد اسرع اليها بعساكره وانفذ الى الخليفة من يعيده الى مقره . ولما قرب طغرل بك من بغداد انهزم منها البساسيري وسار الى واسط فدخل طغرل بك بغداد وارسل الجيوش لقتال البساسيري فقاتلوه حتى مزقوا عساكره واسروه وقتلوه وارسلوا رأسه الى بغداد . ولما عاد الخليفة القائم الى بغداد سنة ٤٥١ ه خرج طغرل بك لاستقباله في جماعة من الاكابر والوجوه ولما لقيه نزل عن فرسه واحترمه احتراماً عظيماً واعتذر اليه عن تأخره ثم اخذ بلجام بغلة الخليفة وظل ماشياً في خدمته الى ان وصل الخليفة قصره بكل تجلة واحترام . وظل طغرل بك بعد هذه الحادثة ببغداد اشهراً ثم سار عنها الى الري . فلما كانت سنة ٤٥٣ ه وقد تمهدت لطغرل بك البلاد سير الى الخليفة وخطب ابنته فشق ذلك على الخليفة وانزعج من هذا الطلب فترددت الرسائل بينهما وكان الواسطة في ذلك قاضي الري ولما كانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده اخذ يستعطفه ليعفيه من الاجابة على طلبه فاصر السلطان الا ان يجاب ورفض الخليفة الاجابة فحدثت امور يطول شرحها فاجتمع الوزير عميد الملك نائب السلطان ببغداد بالخليفة ونصحه واظهر له خطارة الرفض وكذلك فعل القضاة والعلماء فلما لم يجد الخليفة من ذلك بداً اضطر الى القبول فعقد للسلطان على بنت الخليفة سنة ٤٥٤ ه بظاهر مدينة تبريز وكان طغرل بك يومئذ يحارب الروم في جهات ارمينية ثم قدم بغداد سنة ٤٥٥ ه ولما دخلها

سير طلب الزفاف وحمل مائة الف دينار وقدم للعروس تحفاً ثمينة فزفت اليه بدار المملكة وجلست على سرير ملبس بالذهب ولما دخل طغرل بك اليها قبل الارض بين يديها وخدمها فلم ترفع الخمار عن وجهها ولا قامت له وظل اياماً يحضر على هذه الصورة و ينصرف . ولم تفعل ذلك الا لكونه غير كفو لها بالنسب .

وبعدان تزوج طغرل بك ببنت الخليفة اعادالمواريث والمكوس وضمن بغداد بمائة وخمسين الف دينار سنوياً ثم سار عائداً الى الري فمرض هناك ومات في السنة نفسها (سنة ٤٥٥) ﻫ . ولم تقم بنت الخليفة في صحبته الامقدارستة اشهرولم يترك ولداً ذكراً . وماتت زوجته بنت الخليفة سنة ٤٩٦ ﻫ وكلمة طغرل بك اسم علم تركي مركب والاول علم على طائر وبه سمي هذا الفاتح وبك معناه الامير .

عضد الدولة الب ارسلان

(٤٥٥ — ٤٦٥) ﻫ

ولما توفي طغرل بك اجلس وزيره عميد الملك سليمان بن الملك داود في السلطنة [١] ببغداد وخطب له فاختلف الامراء عليه ومال اكثرهم للسلطان الب ارسلان ابن داود صاحب خراسان وخطبوا له فاضطربت الامور وثار الب ارسلان على اخيه سليمان وبعد حروب انتصر الب

(١) ولما لم يكن لطغرل بك ولد تنازع على الملك بعده سليمان والب ارسلان ابنا اخيه داود بن ميكائيل ابن سلجوق واخيراً تم الامر لالب رسلان.

أرسلان واستولى على الملك وتم له الامر في العراق وخراسان وبعث اليه الخليفة بالخلع والتقليد على جري العادة ثم عظمت شوكته وقوي امره وفتح بلاداً كثيرة واتسعت مملكته وامتلأت خزائنه وبلغ مالم يبلغه احد من الملوك . وكان القائم بتدبير امور دولته الوزير الشهير نظام الملك

اما العراق فكانت شؤونه تدار من قبل النواب الذين يرسلهم السلطان الى بغداد وكان لهم وحدهم الامر والنهي فيها يولون من ارادوا و يعزلون من شاؤا ولكنهم نشروا لواء العدل و بذلوا جهدهم في نشر العلوم والفنون فنهضت الحركة العلمية والعمرانية في بغداد وساد الامن في ربوع العراق . وتوفي الب ارسلان سنة ٤٥٦ ه قتيلا بطعنة مستحفظ قلعة كانت في طريق خوارزم اسمه يوسف الخوارزمي .

و في عهده بنى شرف الملك ابوسعيد محمد بن المنصور الخوارزمي نائب السلطان ببغداد سنة ٤٥٩ مشهداً وقبة على قبر الامام ابي حنيفة وبنى عنده مدرسة كبيرة . ولما تم البناء ركب اليها في جماعة من اعيان بغداد ووجهائها وعمل مراسم افتتاح المدرسة . وهي التي اتخذت بعد ذلك مسجداً

ابو الفتح ملك شاه

(٤٦٥ — ٤٨٥) ه

لما توفي الملك الب ارسلان تولى بعده ابنه ملك شاه وكان يلقب بالسلطان العادل . وهو من احسن الملوك سيرة واكثرهم ولوعاً بالعمران . بنى سنة ٤٨٥ ه جامع السلطان ببغداد وزاد في دار السلطنة بها وابطل

المكوس والخفارات واقام مرصداً فلكياً بها ولكنه سلب حقوق الخلافة وجعل الخليفة لا يملك غير الاسم ولم يقم هذا السلطان ببغداد الا قليلا حيث قضى اكثر ايامه في الفتح والغزو كابيه واستولى على بلاد كثيرة حتى اتسعت مملكته وصار هو السلطان المطلق على بلاد آسيا الواقعة ما بين البحر المتوسط وحدود الهند . وكان قد استوزر نظام الملك الذي كان وزيراً لابيه فوطد له الملك وقام بتدبير المملكة حق قيام ونشر العلوم والفنون في انحاء البلاد حتى رتع الناس في بحبوحة الامن والسلام. وزهت بغداد في عهده بالعلماء والحكماء والادباء وكثرت فيها المعاهد العلمية والمصانع الجليلة واتسع نطاق التجارة فيها حتى توفر فيها المال وكثرت فيها الثروة .

وفي عهده توفي الخليفة القائم بامر الله فبويع لحفيده ولي العهد ابى القاسم عبد الله بن محمد القائم ولقبوه المقتدي بالله (٤٦٧ — ٤٨٧) ﻫ (١٠٧٤ — ١٠٩٤) م فلما كانت سنة ٤٨٠ ﻫ خطب هذا الخليفة بنت ملك شاه وكان السفير في الخطبة ابو اسحق الشيرازي ارسله الخليفة الى نيسابور فعاد منها بالاجابة على شرط ان لا تكون له زوجه ولا سرية غيرها . ثم زفت الى الخليفة ببغداد واحتفل بزفافها احتفالا عظيماً صرفت فيه اموال طائلة واولم الخليفة وليمة دعى اليها رجال الحكومة والوجوه والقضاة والعلماء والجنود وفي اواخر هذه السنة (سنة ٤٨٠) ولدت ولداً سماه الخليفة ابا الفضل جعفر وزينت بغداد يوم ولادته .

لم يزر السلطان بغداد غير ثلاث مرات وكان قد احب المقام فيها حتى عزم على نقل كرسيه اليها مراراً فاشغلته الحروب والفتوح ولكنه لما زارها في المرة الاخيرة سنة ٤٨٥ هـ الزم الخليفة المقتدي ان يخلع ابنه الاكبر المستظهر من ولاية العهد و يبايع ابنه ابا الفضل جعفر ابن بنت السلطان و يسلم امور الخلافة التي ببغداد اليه ويخرج الى البصرة . فشق ذلك على الخليفة و بالغ في استنزال السلطان عن رأيه فلم يفلح و في الآخير طلب المهلة عشرة ايام ليتجهز للسفر فامهله . وكان السلطان حينذاك مريضاً فتوفى قبل ختام المهلة وكفي الخليفة امره .

الوزير نظام الملك والمدرسة النظامية

ومما ينتقد على ملك شاه مع علو منزلته وحسن سياسته وتدبيره ونشره العلوم والمعارف قتله الوزير نظام الملك الذي اعلا مجد دولته ووطدله ولابيه قبله الملك . قتله سنة ٤٨٥ هـ لاسباب يطول شرحها. ولما وصل خبر قتله الى بغداد ارتجت المدينة ونقم الناس على السلطان لما لهذا الوزير من المنزلة الرفيعة في قلوبهم ورثاه الشعراء منهم شبل الدولة مقاتل بن عطية فانه قال فيه :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

ونظام الدين هذا هو الذي بنى المدرسة النظامية ببغداد في وسط سوق الثلاثا في الجانب الشرقي سنة ٤٥٧ هـ تولى بنائها ابو سعيد الصوفي واتفق

على بنائها مائتي الف دينار من ماله وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها اسواقا تكون حبساً عليها وابتاع ضياعاً وحمامات ومخازن ودكاكين اوقفها عليها فكانت عجيبة البناء تضرب بحسنها ونظامها وترتيبها الامثال وكان لهذه الجامعة الكبيرة التي كانت اعظم مدرسة في العالم يوم ذاك شأن كبير في العالم الاسلامي يصرف عليها في كل عام لنفقات الاساتذة والتلاميذ خمسة عشر الف دينار وكان فيها ستة آلاف تلميذ يتلقون فيها العلوم المختلفة وبها اساتذة من كبار العلماء ومشاهيرهم . واول اساتذتها الشيخ ابو اسحق الشيرازي ثم الامام ابو نصر الصباغ ثم ابو القاسم الدبوسي وابو حامد الغزالى وابو بكر الشاشي وكمال الدين الانباري وغيرهم من كبار العلماء . وكان التلاميذ يتلقون فيها العلوم الدينية والفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف واللغة والادب وغير ذلك من العلوم المفيدة وكانت هذه المدرسة متصلة بمدرسة مرجان المشهورة ولما خربت بغداد من توالى الفتن والحروب خربت المدرسة واهمل امرها على توالي الاعوام حتى اندرست وصار في موقعها محلة كبيرة من محلات بغداد . و بقى ايوان بابها الى ايام الحرب العامة سنة ١٣٣٥ ﻫ وكان يومئذ مزاراً لابناء الشيعة سموه (بنجة علي) اي كف الامام على (ع) وقالوا ان الامام علي كان قد قبض على صخرة فارتسم فيها شكل كفه فوضعوها في هذا المكان . ولما جاء القائد خليل باشا التركي الى بغداد وفتح الشارع العام فيها هدم هذا المكان وادخل في الشارع فحمل الشيعة تلك الصخرة و بنوا لها

مكانا في المحلة المعروفة بإمام طه وهي لاتزال حتى اليوم . وفي ايامه بنيت المدرسة التاجية ببغداد سنة ٤٨٣ ﻫ بناها تاج الملك مستوفي الدولة ومن اساتذتها ابو بكر الشاشي .

محمود و بركيارق ومحمد اولاد ملك شاه

« ٤٨٥ — ٥١١ » ﻫ

لما مات ملك شاه سترت زوجته تركان خاتون موته و بذلت الاموال للقواد واستحلفتهم لابنها محمود وعمره يومئذ اربع سنين وشهور وبعد ان حلفوا لها ارسلت الى الخليفة المقتدى في الخطبة لابنها فاجابها على شرط ان يقوم بوصايته الوزير تاج الدولة فقبلت بذلك وخطب لابنها محمود على منابر بغداد ولقبه الخليفـة ناصر الدين والدولة . وكانت تركان خاتون خايفة من بركيارق ابن ملك شاه فسارت من بغداد ومعهـا ابنهـا والوزير تاج الدولة وجماعة من القواد بعساكرهم ومعها نعش السلطان ملك شاه محمولا قاصدة اصفهان لقتال بركيـارق فجهز لقتالها بركيارق جيشاً وبعد عدة معـارك حاصروها في اصفهان ثم استولى عليهـا وقتل الوزير تاج الدولة وذلك سنة ٤٨٥ ﻫ

وبعد ان انتصر بركيارق سار الى بغداد وخطب له فيها بالسلطنة ولقبه الخليفة ركن الدولة ولما احضر تقليد السلطان بركيارق الى الخليفة المقتدى ليوقع عليه قرأه وتدبره ثم قدم اليه طعام فاكل منه و بعد الفراغ سقط على الارض ميتاً وذلك سنة ٤٨٧ ﻫ وشاع ان جاريته شمس

النهار سمته (ولا يبعد انها سمته بايعاز من السلطان) وكان هذا الخليفة محباً للاصلاح نفى المغنيات من بغداد وامر بتخريب ابراج الحمام في البيوت ومنع الدخول في الحمام بغير مئزر ، ولما توفي بويع لابنه ابي العباس احمد ولقبوه المستظهر بالله (٤٨٧ -- ٥١٥) ه (١٠٩٤ — ١١١٨) م .

كانت ايام بركيارق كلها حروب . خرج عليه عمه تتش فحاربه وانتصر عليه وقتله ولم يكد يستريح منه حتى ثار عليه اخوه الملك محمد ودارت رحي الحرب بينهما وكانت سجالا دامت اكثر من ثماني سنوات تارة ينتصر محمد ويخطب له ببغداد واخرى ينتصر بركيارق فيعيد الخطبة له فقد استولى محمد على بغداد سنة ٤٩٣ ه وخطب له فيها ثم انتصر بركيارق وعاد الى بغداد سنة ٤٩٤ ه وخطب له فيها ولم يلبث قليلا حتي حمل عليه محمد بجيش عظيم فانهزم من بغداد سنة ٤٩٥ ه ودخلها محمد فاستبشر الخليفة المستظهر بالله واحتفل بتوليته بحضور اخيه سنجر وجلس لهما الخليفة في قبة قصر التاج على كرسيه وافاض على السلطان بالخلع والتاج والسوارين وعقد له اللواء بيده وقلده سيفين واعطاه خمسة من جياد الخيل وامر بان يخطب له على المنابر بالسلطة . وبعد ان دامت الحرب بين الاخوين مدة قتل في اثنائها عدد كثير من الناس واصطلحا سنة ٤٩٧ ه وتقررت بينهما شروط الصلح وصار لبركيارق العراق وخوزستان وفارس والجبل والري وطبرستان . وصار لمحمد ديار بكر الموصل والجزيرة والشام وارمنية . وعاد بركيارق الى بغداد وعادت الخطبة فيها له واستتب امره

في البلاد التي صارت له . ولكنه لم يهنأ بهذا الصلح لأن المنية عاجلة بعد سنة «٤٩٨» ه ومات ببغداد .

وكان قد اخذ البيعة لابنه ملك شاه قبل موته وهو ابن اربع سنوات وشهور فخطب له في بغداد ولقبه الخليفة جلال الدولة ونصبوا له وصياً احد القواد المدعو أياس فقام هذا بتدبير المملكة . ولما بلغ ذلك السلطان محمد سار بجيوشه نحو بغداد فلما وصلها سلمها اليه الوصي أياس صلحاً فدخلها بغير حرب وخطب له فيها ولقبه الخليفة غياث الدين ثم قتل الامير ايس ببغداد . و بعد ان استتب الامر للسلطان محمد في العراق خطب الخليفة المستظهر بالله ابنته خاتون العصمة فاجابه الى ذلك وزفت للخليفة سنة ٥٠٢ ه واحتفل بهذا الزواج احتفالا عظيماً وانفق عليه اموالا طائلة .

ولما دخلت سنة ٥٠٥ه قدم بغداد وفد من سورية مستنجداً بالخليفة والسلطان على الصليبين فهاج اهل بغداد وماجوا واجتمعوا يوم الجمعة في جامع السلطان وطلبوا نجدة السوريين وقتال الصليبين فوعدهم الخليفة والسلطان بالنجدة وتهيأ الخليفة للحرب وشرع السلطان بالاستعداد غير ان ذلك لم يتم لقلة العساكر وضعف بيت المال فترك حديث الحرب بعد ايام ونسي .

وتوفى السلطان محمد ببغداد سنة ٥١١ ه وكان عادلا حسن السيرة عظيم الهيبة . وكان لما احس بقرب موته احضر ولده محموداً وعمره يوم

ذاك اربعة عشر سنة وجمع الامراء والوجوه واخذ البيعة له وامره ان يخرج ويجلس على كرسي السلطنة بعد ان توجه وسوره . فخرج محمود وفعل ما امره به ابوه .

محمود بن محمد . ونهوض الخلفاء

« ٥١١ — ٥٢٥ » ﻫ

عندما جلس محمود على كرسي السلطنة بعد ابيه ببغداد ثار عليه عمه سنجر صاحب خراسان و بعد حروب انهزم محمود ثم اصطلحا . وفي تلك الايام مات الخليفة المستظهر بالله فبويع بالخلافة لابنه ابي المنصور الفضل ولقبوه المسترشد بالله (٥١٢ — ٥٢٩) ﻫ (١١١٨ — ١١٣٤) م فاجتهد هذا الخليفة لارجاع نفوذ الخلافة وسطوتها واغتنم فرصة الحروب التي كانت متوالية بين السلجوقيين حتى تمكن بسعيه من تأليف جيش في بغداد قاتل به اعدائه وسيأتي ذكر ذلك .

ولم يكد يستريح محمود من عمه سنجر حتى ثار عليه اخوه طغرل بك سنة ٥١٣ ﻫ وحدثت بينهما الحروب واخيراً اصطلحا . ولم يقم محمود في بغداد الا قليلا اذ كان تارة ينزل بهمدان واخرى بالري حتى مات بالثانية وكان يستخلف على العراق نائباً يقيم ببغداد يدعى الشحنة اي رئيس امور الضبط والربط وهو كالمعتمد اليوم . وكثيراً ما كان السلطان يرسل وزيره الى بغداد للنظر في الشؤون الهامة واتفق انه ارسل اليها وزيره الكمال نظام الدين اباطالب علي ابن احمد السميري فقتل في السوق عند

المدرسة النظامية ببغداد وسبب ذلك هوان الكمال السميري هذا كان قد حرض السلطان محمود على قتل مؤيد الدين ابى اسماعيل الشاعر المشهور المعروف بالطغرائي بحجة انه ملحد فقتله السلطان سنة ٥١٤ ﻫ بتلك التهمة . فلما جاء الكمال السميري الى بغداد وثب عليه عبد اسود كان مملوكاً للطغرائي فقتله .

اما الخليفة المسترشد فانه اغتنم فرصة ضعف السلجوقيين وغياب السلطان محمودواشتغاله بالحروب فتمكن من احياء رسم الخلافة وضبط امورها بهمته العالية حتى كاد يعيد جميع حقوق الخلافة المغصوبة وهيبتها وسطوتها لو لا ارباب المطامع من ذوي الاغراض الباطلة . وبينما هو في تشييداركان الخلافة وارجاع نفوذها ارسل اليه دبيس بن صدقة صاحب الحلة كتاباً يطلب فيه ارسال الامير أقسنقر البرسقي اليه ويهدده ان لم يفعل فابت شهامة الخليفة ارسال من هو في خدمته للقتل او الفتك واغتاظ من ذلك التهديد وامر البرسيقي بتجهيز العساكر وسيره لقتال دبيس فالتقوا واقتتلوا فانهزم دبيس الى طغرل بك واحتمى به واخذ يحرضه على قتال الخليفه وذلك سنة ٥١٧ ﻫ .

ولما كانت سنة ٥١٩ ﻫ تمكن دبيس بن صدقة من اغراء طغرل بك على قتال الخليفة واتحد معه على هذه الغاية واطمعه في ملك العراق فجهزا الجيوش وسارا نحو بغداد .فجهز لهما الخليفة جيشاً وتمكن من تمزيق جموعهم واضطرهم الى الهزيمة . وبينما هم مخذولين لقيهم السلطان

محمود فاوقع بهم فلحقا بالملك سنجر بخراسان واغرياه على اخذ العراق فسار بجيوشه معهما فلما وصلوا الري كان السلطان محمود بهمذان فاستدعاه عمه سنجر اليه لينظر هل هو على طاعته ام تغير فاسرع محمود الى خدمته واظهر له من الاحترام مالا مزيد عليه فتحقق سنجر طاعته اليه وادرك قربة دبيس وطغرل وعاد الى مقره .

الحرب بين الخليفة والسلطان

دخلت سنة ٥٢٠ هـ فولى السلطان محمود شحنكية بغداد (رئاسة شحنة بغداد) رجلا من خاصته يدعى برنقش وما كاد يستقر هذا في بغداد حتى اختلف مع نواب الخليفة المسترشد بالله وحدث بينه وبينهم خصام اجبر الخليفة على تهديد برنقش بالقتل ان لم يرجع عن اختلافه مع نوابه . فخاف برنقش وفر من بغداد الى السلطان محمود واخبره بقوة الخليفة وسعيه لاسترجاع حقوق الخلافة وسطوتها وما صار له من الجند واخذ يحرضه على قتاله حتى اقنعه بالمسير لحربه . فسار السلطان محمود بعساكره قاصداً بغداد .

اما الخليفة فانه لما بلغه ذلك جمع الجنود وسار بهم لقتال السلطان محمود فالتقى الفريقان ودارت بينهما الحروب حتى كاد ينتصر الخليفة فيها لولا خيانة بعض قواده الذين انظموا بعسكرهم الى السلطان فاضطر الخليفة الى طلب الصلح ودارت بينهما المخابرات السلمية فتقرر الصلح على شروط رضياها . و بعد ان دفع الخليفة الاموال التي تقررت عليه

أسند السلطان شحنكة بغداد الى اتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر وطلب السماح من الخليفة وطيب خاطره وعاد الى مقره وذلك سنة ٥٢١ هـ .
ثم توفي السلطان بهمذان سنة ٥٢٥ هـ وكان حسن السيرة عادلا محباً للسلم .

داود بن محمود ومسعود بن محمد

عندما توفى السلطان محمود تولى السلطنة ابنه داود وخطب له في بغداد ولكنه لم يهنأ بالملك اذ ثار عليه عمه السلطان مسعود وحاربه فاستمرت بينهما الحروب شهوراً وكان الفوز فيها لمسعود فاخذ البلاد من يده ومن جملتها بغداد وذلك سنة ٥٢٦ هـ . ولم يهنأ السلطان مسعود بالملك اذ كانت ايامه كلها فتن وحروب من ذلك ان اخوته واولادهم ثاروا عليه وطمعوا في ملكه فاشتغل بقتالهم مدة حتى آلت تلك الحروب الى ضعف الدولة السلجوقية ضعفاً لم يسبق له نظير واصبح السلطان مسعود ليس له غير الاسم .

اما بغداد فلم يصبها اذىً من تلك الحروب مع خضوعها لاوامر السلطان والخطبة له في جوامعها على ان الخليفة المسترشد بالله تمكن بحزمه من ارجاع اكثر حقوق الخلافة واصبح مطاعاً نافذ الكلمة في اكثر شؤون الدولة .

الحرب بين الخليفة ودبيس وزنكي

تقدم قبل هذا ذكر الحرب التي جرت بين الخليفة المسترشد و بين

دبيس بن صدقة المزيدي صاحب الحلة وانخذل دبيس في الاولى والثانية التي كان ينصره فيها طغرل بك . وبعد تلك النكبتين التي اصابت دبيساً استمر دبيساً على عداء الخليفة وظل يغري الامراء على قتاله ويطمعهم في بغداد حتي تمكن من اغراء عماد الدين زنكي صاحب الموصل على حرب الخليفة واتفق معهما السلطان سنجر ثم تقرر بينهم على ان يزحف دبيس وعماد الدين زنكي على بغداد سنة٥٢٦ ه فزحفا اليها بجيوشهما ونزلا بالمناوية من دجيل . اما الخليفة فانه لما بلغه ذلك جمع عساكره وعبر بهم الى الجانب الغربي ونزل بالعباسية . ثم التقى الفريقان بحصن البرامكة وكان على ميمنة جيوش الخليفة جمال الدين اقبال وعلى الميسرة نصر الخادم وعلى القلب الخليفة وبعد معارك شديدة انهزم دبيس وعماد الدين وزنكي بعد ان خسرا من القتلى والاسرى عدداً كبيراً وعاد الخليفة الى بغداد منصوراً .

ولم تنته هذه الفتنة بعد انهزامهما بل ان عماد الدين زنكي استمر على غيه فقبض على رسول الخليفة الشيخ بهاء الدين ابا الفتوح الاسفرايني الواعظ الذي ارسله الخليفة اليه برسالة الى الموصل سنة ٥٢٧ ه واهانه ولقيه بمايكره . فبلغ ذلك الخليفة فسارمن بغداد في ثلاثين الف مقاتل قاصداً الموصل ولما اقترب منها خرج منها عماد الدين زنكي في فرقة من جيوشه وترك في المدينة نائبه نصير الدين في جيش كبير فحاصرها الخليفة وضيق عليها الحصارمدة ثلاثة اشهر ثم تركها وعاد الى بغداد وفي الاخير اصطلحا على شروط رضياها وتم الصلح سنة ٥٢٨ ه .

قتل الخليفة المسترشد بالله

دخلت سنة ٥٢٩ هـ فحدثت نفرة بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود آلت الى الحرب ثم الى قتل الخليفة غدراً . وسبب ذلك هو أن السلطان كان قبل ان يستقل بالسلطنة قد وقعت بينه وبين الخليفة وحشة فلما استقل اطلق العنان لنوابه الذين في العراق فاستطالوا على الناس وعارضوا الخليفة في املاكه فاضطر الخليفة الى تهديدهم فكتبوا بذلك الى السلطان فقويت الوحشة بينهما وتجهز الخليفة للحرب وسار من بغداد بجيش جرار ومعه جماعة من الامراء والاكابر قاصداً همذان . وكان السلطان يومئذ بهمذان فجمع جيشاً جراراً وسار به للقاء الخليفة فلاقاه بالقرب من همذان وهناك دارت رحى الحرب بين الفريقين وما لبث الخليفة حتى انحاز اكثر جنده الى السلطان وغدروا به وظل هو ثابت لم يتغير من مكانه الى ان انهزم عسكره واخذوه اسيراً مع ارباب دولته . فطاف به السلطان بلاد اذربيجان ثم نزل به بالقرب من مراغة ووضع في خيمة منفردة عن العساكر ووكلوا على حراستها جماعة من من الجند وهناك تفاوض السلطان والخليفة في الصلح وتقررت شروطه بينهما على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود لجمع العساكر ولا يخرج من داره .

و بينما الخليفة يتأهب للرجوع الى بغداد شاع قدوم الملك سنجر فسار السلطان ورجاله للقائه وفارق خيمة الخليفة حرسها فهجم على الخليفة

جماعة من الباطنية وقتلوه شر قتلة وذلك في اواخر سنة ٥٢٩ هـ (كان قتله بايعاز من السلطان) ثم دفن الخليفة بظاهر مراغة وقبض على قتلته وامر بقتلهم لئلا ينقم الناس على السلطان .

اما اهل بغداد فانهم لما سمعوا باسر الخليفة ضجوا وحثوا على رؤسهم التراب وتركوا الصلاة في الجوامع وقطعوا الخطبة يوم الجمعة وارتجت المدينة حزناً على الخليفة . ولما جاءهم خبر قتله اغلقوا الاسواق وخرجوا حفاة مخرقي الثياب حتى النساء فانهن خرجن حاسرات الوجوه ناشرات الشعور يندبنه في الشوارع بل ان المدينة ارتجت واقيم فيها مأتم عام حزناً على الخليفة المحبوب .

وعلى اثر وصول خبر قتل الخليفة المسترشد بالله الى بغداد اجتمع القضاة والامراء ورجال الدولة والوجوه وبايعوا بالخلافة لابنه ولي العهد ابي جعفر المنصور ولقبوه الراشد بالله (٥٢٩ — ٥٣٠)هـ (١١٣٤ — ١١٣٥)م فسار هذا الخليفة سيرة ابيه ولكنه لم يمكث في الخلافة الا نحو سنة لخلعه السلطان مسعود والسبب في ذلك هو ان الخليفة استوحش من السلطان وتوجس منه خيفة فاستمال الملوك وامراء البلاد ودعاهم للاجتماع في بغداد فاجتمعوا وفي جملتهم الملك داود بن محمود فانه جاء في عسكر اذربيجان . وعماد الدين زنكي صاحب الموصل وغيره . وبعد ان اجتمعوا في قصر الخلافة قرروا خلع طاعة السلطان مسعود واعلنوا ذلك وخطبوا للملك داود . فلما بلغ ذلك السلطان مسعود جمع جيوشه وسار بهم الى بغداد وحاصرها

فدافع عنها من فيها دفاع الابطال فلما لم يتمكن السلطان مسعود منها عزم على الرجوع الى همذان بعد ان حاصرها خمسين يوماً فارتحل الى النهروان ونزل بعساكره هناك وبينما هو يروم المسير جاءه طرنطاي صاحب واسط بجيوشه في سفن كثيرة فقوي امر السلطان مسعود وعاد الى بغداد وحاصرها . وبينما جيوش بغداد تدافع عن المدينة اختلفت كلمة الامراء المجتمعين فيها فخرج الملك داود منها وعاد الى اذبيجان وتفرق الامراء ولم يبق غير عماد الدين زنكي وكان قد نزل في الجانب الغربي فعبر اليه الخليفة الراشد في نفر قليل من رجاله وسار معه الى الموصل تاركا بغداد فدخل السلطان مسعود ظافراً .

بعد ان دخل السلطان مسعود بغداد جمع القضاة والفقهاء وعرض عليهم صورة يمين كان قد حلفها الراشد وهي بخط يده (انني متى جندت او خرجت اولقيت احداً من اصحاب السلطان مسعود بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر) فافتوا بخلعه فخلع وقطعت خطبته من بغداد وسائر البلاد وذلك سنة ٥٣٠ هـ (١)

ولما خلع الراشد جمع السلطان جماعة من كبار بغداد ووجهائها واعيانها

---

(١) ثم سار الراشد بالله من الموصل الى همذان سنة ٥٣١ هـ قاصداً الملك داود ثم رحل منها الى اصفهان وهناك وثب عليه خدمه الخراسانيون فقتلوه ودفن بظاهر اصفهان والظاهر ان قتله كان بايعاز من السلطان مسعود حيث ان الملك داود اتفق مع كثير من الامراء قصد ارجاع الراشد الى الخلافة فوقعت بينهم وبين السلطان مسعود عدة معارك فهزمهم ثم انتصروا عليه وسار الى اذربيجان وفي تلك الاثناء قتل الراشد .

واستشارهم في من يصلح للخلافة فقال الوزير يصلح لها عمومة الراشد ولكنى لا اقدر ان اذ كر اسمه لئلا يقتل . فامر السلطان بكتابة محضر في خلع الراشد فكتبوا محضراً نسبوا فيه الى الراشد اشياء تقدح في الامامة ، ثم كتبوا فتوي نصها (ما تقول العلماء في من هذه صفته هل يصلح للامامة ام لا) فافتى العلماء والفقهاء : ان من هذه صفته لايصلح ان يكون اماماً . وعلى اثر ذلك احضر القاضي ابو طاهر الكرخي فشهد عنده جماعة بما نسب للراشد من الاشياء التي تقدح في الامامة فحكم القاضي بفسقه وخلعه . ولما تم ذلك اشار الوزير الى مبايعة ابي عبد الله الحسين ابن المستظهر بالله وذ كر صلاحه ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فاتفقوا على مبايعته واحضروه الى قصر الخلافة وذلك في اواخر سنة ٥٣٠ هـ .

حضر ابو عبد الله الحسين ابن المستظهر بالله الى قصر الخلافة فاجلسوه في الميمنة ودخل عليه السلطان مسعود والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما ثم خرج السلطان وحضر الامراء والقضاة والعلماء والفقهاء والوجوه وبايعوه ولقبوه المقتفي لامر الله سنة (٥٣٠ — ٥٥٥) هـ (١١٣٥ ١١٦٠) م ومن ثم ولى السلطان شحنة العراق ببغداد مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثى الرومى وسار من بغداد قاصداً مقره وعلى اثر ذلك خطب الخليفة المقتفي فاطمة بنت السلطان محمد سنة ٥٣١ هـ فوافق اخوها السلطان مسعود على ذلك وحضر العقد وكان الوكيل في قبول النكاح الوزير شرف الدين ابا القاسم بن طراد الزينى ثم نقلت

العروس الى بغداد سنة ٥٣٤ هـ وزفت الى الخليفة المقتفي وكانت بارعة في القرأنة والكتابة .وتوفي مجاهدالدين شحنةالعراق (نائب السلطان) ببغداد سنة ٥٤٠ هـ فعين مكانه مسعود البلالي وكان هذا من الامراء واصله من الخدم الجبشيين الكبار فاساء السيرةهذا الشحنة مع نواب الخليفة .

وجاء السلطان مسعود الى بغداد سنة ٥٤١ هـ ونزل بدارالسلطنةاياماً وقبل خروجه من بغداد امر باسقاط مكس البيع فنودي في جانبي بغداد في الشوارع والاسواق باسقاط ذلك وكتب خبر الاسقاط على الالواح وطيف بها في المدينة وامامها الطبول والبوقات ثم سمرت في الجدران وبقيت مدة الى ان تولى الخليفة الناصر لدين الله فامر بقلعها من الجدران قائلا : مالنا حاجة بآثار العجم .

ولما كانت سنة ٥٤٢ هـ ازدادت سيرة شحنةالعراق سوءاً معالخليفة واستطال رجاله على رجال الخليفة فكتب وزير المقتفي قوام الدين ابو القاسم على بن صدقه الى السلطان مسعود عن لسان الخليفةعدة كتب يخبره بها عن اعمال نائبه مسعود البلالي وشكا منه فلم يجبه السلطان ولما قلد الخليفة رئاسة ديوان الزمام عون الدين ابن هبيرة كتب الى السلطان رسالة طويلة باذن من الخليفةذكره فيها بما كان اسلافه يعاملون به الخلفاء من حسن الطاعة والتأدب معهم والذب عنهم وشكا من نائبه مسعود البلالي فورد الجواب من السلطان بالاعتذار والذم لمسعود البلالي

وذلك سنة ٥٤٢ هـ وكتب الى نائبه مسعود يأمره بالطاعة للخليفة . ثم توفي السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ في همذان . وبموته انقرضت الدولة السلجوقيه من العراق بعد ان دام سلطانها مائة سنة من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٤٧ هـ وفي عهده قصد بغداد الامير البتنش في جموع كثيرة وصدرت منهم فتن عظيمة فأمر الخليفة المقتفي وزيره قوام الدين ابن صدقة في تدبير الحال فشرع الوزير في ذلك ولكنه خفق في مسعاه . فلما رآى الخليفة عجزه امر رئيس ديوان الزمام عون الدين ابن هبيرة في تدبير الحال فاحسن هذا الرئيس التدبير حتى قوي عليهم ونهبت العامة اموالهم وذلك سنة ٥٤٣ هـ وعلى اثر ذلك عزل الخليفة قوام الدين عن الوزارة وولاها عون الدين واحتفلوا بيوم تقليده الوزارة احتفالا عظيما لم يسبق له مثيل وذلك سنة ٥٤٤ هـ .

و في هذه السنة « ٥٤٤ » هـ زادت مياه دجلة زيادة عظيمة وفاضت المياه فامتلات الصحارى واحاط الماء بالمدينة وسقط قسم من السور وغرق قسم من القطيعة وباب الازج والمأمونية وسرى الماء تحت الارض الى اماكن كثيرة فوقعت وهرب الناس وعبروا الى الجانب الغربي . ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقت المحلات التي انهدمت لا تعرف وصارت كالتلول فاخذ الناس حدود دورهم بالتخمين . وليس هذا اول غرق اصيبت به بغداد بل سبقه مثله عدة مرات منذ ضعف امر الخلفاء وتغلب على شؤون الدولة الغرباء .

انفراد الخلفاء بالحكم في بغداد والعراق

« ٥٤٧ — ٦٥٦ » هـ

« ١١٥٢ — ١٢٥٨ » م

على اثر وفاة السلطان مسعود خطب بالسلطنة لملك شاه بن محمود فتغلب عليه اخوه محمد فامتنع الخليفة المقتفي لامر الله من الخطبة له وذلك في السنة نفسها (سنة ٥٤٧) هـ وانفرد بالحكم في العراق ولم يتمكن السلطان محمد من حمله ان يخطب له على المنابر لضعفه حتى انه حاول ان يحمله بالقوة على ان يخطب له وزحف بجيوشه على بغداد وحاصرها فعاد بالفشل والخسران . ومنذ ذلك العهد زال حكم السلجوقيين من العراق واستقل الخلفاء بعد ان كان الحكم للغرباء المتغلبين الذين لم يتركوا للخليفة الا اسم الخلافة .

والمقتفي هذا هو اول من حكم العراق منفرداً عن سلطان من حين تغلب المماليك على الخلفاء ومن عهد المنتصر الى هذا العهد كان لا يجري امر الا بامره وتوقيعه . وكانت ايامه ايام هناء وسرور وعدل وسلام سيما آواخر ايامه . وتوفى هذا الخليفة الحازم ببغداد سنة ٥٥٥ هـ بعد ان اعاد الى العراق الخلافة وانتزع السلطة من المتغلبين .

المستنجد بالله

« ٥٥٥ — ٥٦٦ » هـ

« ١١٦٠ — ١١٧٠ » م

هو ابو المظفر يوسف بويع له بالخلافة بعد موت ابيه المقتفي لامر الله

ولقب المستنجد بالله فسار سيرة ابيه في ضبط امور الدولة وتدبير شؤونها وكان حليماً عادلا ثاقب الرأي حازماًله المام تام بعلم الفلك وغيره من العلوم والفنون وله عناية كبيرة في انماء ثروة البلاد. اسقط كثيراً من المكوس في بغداد وغيرها من المدن العراقية وشدد على المفسدين حتى انه سمع برجل يسعى بالناس فامر بحبسه ولما طال سجنه شفع فيه بعض الوجوه وبذل عنه كغرامة عشرة الاف دينار فقال له المستنجد انا اعطيك عشره الاف دينار ان احضرت لي رجلا آخر مثله لاحبسه فاكف شره عن الناس . فلم يطلقه . وكانت ايامه كلها افراح . شمل عدله وحلمه جميع رعاياه وزادت في عهده ثروة البلاد وامتلأت خزائن الدولة بالاموال من خيرات الرافدين سيما بغداد فانها ارتقت تجارتها وزادت ثروتها واخذت تعيد مجدها الغابر .

وتوفي هذا الخليفة سنة ٥٦٦ هـ مخنوقاً في الحمام خنقه بعض رجال دولته غدراً . وسبب ذلك هوانه كتب الى وزيره رسالة ارسلها مع طبيبه ابن صفية يأمره فيها بالقبض على استاذ الدار عضد الدين ابي الفرج (رئيس خدم قصر الخلافة)وعلى صاحبه الامير قطب الدين قايماز وصلبها. فاجتمع الطبيب بهماواوقفهاعلى الرسالة فقالاله عد اليه وقل له قد اوصلت الرسالة الى الوزير . ففعل الطبيب ذلك . ثم اتفق الاثنان ودخلا على المستنجد (وكان اذ ذاك مريضاً) ومعهما جاعة من اصحابهما فحملاه الى حمام القصر والقوه فيه واغلقوا الابواب عليه وهو يصيح ويستغيث

حتى مات . ومن شعره القصيدة التي اولها :

وجلنار كاعراف الديوك على غصن يميل كاذناب الطواويس

المستضيء بامر الله

« ٥٦٦ — ٥٧٥ » هـ

« ١١٧٠ — ١١٩٩ » م

عند ما توفى المستنجد دخل استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج على ابن المستنجد وولي عهده ابى محمد الحسن واشترط عليه ان يكون وزيراً له وان يكون ابنه كمال الدين مكانه استاذاً لداره (قصر الخلافة) وان يكون الامير قطب الدين اميراً على الجند فقبل المستضيء بهذه الشروط فبايعوه مع اهل بيته البيعة الخاصة ثم بايعه الناس من الغد بيعة عامة في قصر التاج ولقبوه المستضيء بامر الله. ولما تمت مبايعته المستضيء بامر الله خرج استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج من قصر الخلافة ومعه السبتي فقال له ان الخليفة قد تقدم ان يستوفي القصاص من هذا واشار الى وزير المستنجد شرف الدين ابي جعفر احمد المعروف بابن البلدي فاخذ ابن البلدي وسحب وقطع انفه ويده ورجله ثم ضربت رقبته وجع في ترس والقي في دجلة وكان هذا الوزير قد قطع انف ام السبتي المذكور ويد اخيه ورجله ايام وزارته فاقتص منه . بل انه كان قد فتك بجماعة من رجال الدولة وعزل ارباب الدواوين وحبسهم وصادر اموالهم ونكل بهم واخيراً قتل هذه القتلة الشنعاء .

واول عمل عمله هذا الخليفة قتل الوزير ابن البلدي المتقدم ذكره واطلاق المسجونين واسقاط الضرائب والمكوس ورسوم البيع ثم مد جسراً على دجلة فصار في بغداد جسران اذ لم يكن حينذاك غير جسر واحد .

واحتجب هذا الخليفة من اكثر الناس حتى كان لا يدخل عليه احد غير خدم القصر ولا يركب الا وحوله اولئك الخدم ومع ذلك فقد كان لا تصل اليه رقعة (عريضة) الا قضى حاجة صاحبها حتى اشتهر بالسخاء والجود وحسن السيرة. بل انه اظهر من العدل والاحسان اضعاف ما عمل ابوه وفرق اموالا طائلة . وفي عهده سنة ٥٦٧ هـ قطعت خطبة العلويين بمصر بامر نورالدين زنكي ووزيره المشهور صلاح الدين الايوبي وخطب فيها للخليفة المستضيء بامر الله هذا (١) وضربت السكة فيها باسمه . ولما جاء البشير الى بغداد ضربت البشائر فيها عدة ايام وفرح الخليفة ورجال دولته وتهافت الوجوه والاعيان على قصر الخلافة لتهنئة الخليفة بهذا الظفر واغلقت الاسواق للهناء وعقدت القباب (اقواس الظفر) على ابواب قصر الخلافة . ثم ارسل الخليفة في جواب البشارة الى نور الدين طوقاً من الذهب قيمته الف دينار ولواءً وسيفين من الذهب وقباء وحصانين من الجياد وارسل الى صلاح الدين الايوبي الخلع والهدايا

---

(١) بعد ان قطعت الخطبة للعباسيين منها نحو مائتين وعشرين سنة وآخر من خطب له بمصر من العلويين اوالفاطميين العاضد وبموته انقرضت الخلافة العلوية اودولة بني عبيد من مصر .

ولكنها دون ما ارسله الى نور الدين وارسل الى الخطباء اعلاماً عليها اسمه (اسم المستضيء).

ولما كانت سنة ٥٧١ هـ امر الخليفة المستضيء بتقليد عضد الدين ابن رئيس الرؤساء الوزارة وكان بين هذا و بين الامير قطب الدين قيماز امير الجيش عداوة شديدة فاغلق الثاني باب قصر الخلافة محتجاً على امر الخليفة وكان هذا حينذاك قد استطال على شؤون الدولة وضيق على الخليفة بمعاضدة الامير تنامش . فغضب الخليفة وصعد على منظرة الريحانيين التي بناها المستظهر بالله (١) وظهر للناس فاجتمع اهل بغداد تحت المنظرة فقال : يا اهل بغداد انا خليفتكم وقد عصى علي قيماز وكفر بنعمتي وظلم رعيتي واستحل ما حرمه الله تعالى فالمال مالكم والدم لي . فثارت عامة بغداد وهاجوا وماجوا واجتمعوا حول قصر الخلافة وهم ينادون للخليفة يا منصور . وسمع قيماز صياح العامة وضجيجهم فقال هذا الصياح لنا ام علينا . فقالوا علينا . فقال هلكنا ورب الكعبة . ثم هجمت العامة على اصحاب قيماز وقتلوا اكثرهم ونجا من فر وتجمهروا حول دار قيماز وضربوا ابوابه بقوارير النفط فاحرقوها فاحترق جماعة من اصحابه كانوا فيها . وهرب قيماز وتنامش ومعهم جماعة من الامراء منهم حسام الدين تيمرك .

---

(١) كان المستظهر بالله قد بنى هذه المنظرة في سوق الريحان ببغداد وبنى لها داراً كبيرة صحنها ستمائة ذراع وفي وسطها حديقة وفيها ما يزيد على ستين غرفة شرع في بناء ذلك سنة ٥٠٣ واتمه سنة ٥٠٧ هـ والمنظرة بناء مرتفع كالمأذنة يشرف على المدينة والبرية .

وانقسم العامة الى قسمين قسم لحق المنهزمين واخذوا يضربونهم بالآجر والمقاليع والنشاب حتى عبروا الى الجانب الغربي ومن هناك انهزموا الى الموصل . والقسم الآخر دخل دار قيماز ونهب كل ما كان فيها من الاموال وكان قيماز اراد ان يشغل الثائرين بالمال لئلا يلحقوه فبسط في داره البسط ونثر عليها المال والجواهر واليواقيت واطواق الذهب والخلع مما لم يكن عند الخلفاء ولا الملوك نظيرها يوم ذاك فنهبته العامة واستغنى اكثر اهل بغداد من تلك الاموال التي جمعها قيماز من الناس في طرق مختلفة من حلال وحرام .

ولما كان آخر النهار أمر الخليفة فنودي برفع النهب والسكون فعادت العامة الى اماكنها ثم امر الخليفة بحبس الامراء والجنود الذين اتفقوا مع قيماز وتنامش وبمصادرة اموالهم . وامر بعزل نساء المنهزمين وحرمهم في دوره ووكل بهن الخدم للقيام بامرهن وخدمتهن وعلى اثر ذلك استوزر الخليفة عضد الدين (الذي قصده قيماز) وخلع عليه .

وتوفى هذا الخليفة سنة ٥٧٥ ﻫ وكان حسن السيرة عادلاً محباً للعفو. حدثت في ايامه امور عظيمة اهمها الحروب الصليبية .

الناصر لدين الله

(٥٧٥ — ٦٢٢) ﻫ

(١١٧٩ — ١٢٢٥) م

هو ابو العباس احمد ابن المستضيء بويع له بالخلافة يوم موت ابيه

ولقب الناصر لدين الله . وقام لاخذ البيعة له ظهير الدين ابن العطـار ولما تم امره اطلق يد مجد الدين ابي الفضل ابن الصاحب في امور الدولة وبعد قليل قبض على ابن العطار الذي قام في اخذ البيعـة له فحبسه في داره ثم نقله الى قصر التاج مقيداً وصادر امواله . ثم اخرج ابن العطار ميتاً على رأس حمال فثار العامة على جثته واهانوها ومزقوا ماعليها من الثياب وجروها في الاسواق وكانوا يضعون بيده المغرفة ويقولون وقع لنا يا مولانا . الى غير ذلك من الافعال الشنيعة . ثم خلص من ايديهم ودفن .فعلوا به هذه الافعال مع انه كان حسن السيرة كافاً عن اموال الناس واعراضهم ولم نقف على السبب الذي اوجب هذا الفعل معه .

كان هذا الخليفة صارفاً همته للمحافظـة على العراق باذلا جهده في اعادة عز بغداد ومجدها مهتماً في تكثير الجنود اهتماماً زائداً حتى صار له من الجنود ما فتح به البلاد وقاتل به اعداء الدولة وملك بلاداً كثيرة منهـا بلاد خراسان وتكريت وحديثة الفرات وغيرها . واشتهر بجمع الكتب النفيسة فكان له مكتبة كبيرة في قصره جمع فيها من الكتب الخطية النفيسه مالا تحصى واوقف عدا ذلك عدداً عظيماً من الكتب النفيسة المختلفة فرقها على المدارس والمساجد وجعل لها مخازن وحفظة . وكان عالماً فاضلا صنف كتاباً في الحديث سماه روح العارفين قرىء بجوامع بغداد وغيرها وشيد ببغداد كثيراً من الابنية التي خلدت له لذكرا الجميل . منها دور الضيافات لافطار الفقراء في رمضان على نفقته .

ودار الحاج والغرباء . ورباط الحريم ورباط المرزبانية . ورباط الخلاطية بشرع الكرخ . عدا ما عمر من المساجد والمدارس والمشاهد . وكان متفنناً في تجسس الاخبار والوقوف على اسرار الناس حتى ظن بعضهم انه يعلم الغيب .

الحرب بين الخليفة وطغرل

وفي عهده اراد السلطان طغرل بن ارسلان شاه السلجوقي صاحب ايران استرجاع حقوق السلطنة فجمع العساكر واخذ يستولي على البلاد فخافه قزل ارسلان بن محمد الدكز (صاحب اذربيجان وهمذان واصفهان) فكتب الى الخليفة يستنجده ويخوفه عاقبة أمر السلطان طغرل . وفي اليوم الذي وصل فيه رسول قزل الى بغداد قدم اليها رسول السلطان طغرل برسالة الى الخليفة يطلب فيها الخطبة له ببغداد ونقل كرسي السلطنة اليها وذلك سنة ٥٨٢ ﻫ . فرد الخليفة رسول طغرل بغير جواب وأمر بهدم دار السلطنة التي كانت ببغداد فهدمت كلها وعفي اثرها . وعلى اثر ذلك جهز الخليفة جيشاً سنة ٥٨٣ﻫ وارسله بقيادة وزيره جلال الدين عبد الله نجدة الى قزل ارسلان لقتال طغرل فالتقى جيش الخليفة بجيش طغرل قرب همذان وبعد معركة شديدة انهزم جيش الخليفة . ثم جمع قزل شتات عسكره واعاد الكرة على طغرل وانتصر عليه وهزم جيشه وأسره وذلك سنة ٥٨٤ ﻫ . ولما قتل قزل في احدى المعارك سنة ٥٨٧ ﻫ وتولى مكانه ابنه اينانج هرب طغرل من السجن والتف حوله خلق كثير فجهز الجيوش وحمل على اينانج بن قزل وانتصر عليه في عدة معارك حتى قوي

أمره وخافه الخليفة فانفذ سنة ٥٩٠ ﻫ الى خوارزم شاه تكش احد ملوك بيت خوارزم يشكواليه من السلطان طغرل ويحرضه على قتـاله واخذ بلاده وارسل مع الرسول منشوراً باقطاعه البلاد . فسار خوارزم شـاه تكش من نيسابور الى الري والتقى بطغرل و بعد حرب طاحنة انهزمت عساكرطغرل وقتل هو في المعركة واستولى تكش على البلاد و بقتل طغرل هذا انقرضت الدولة السلجوقية من عالم الوجود ثم ارسل تكش رأس طغرل الى بغداد فأمر الخليفة فنصب فيها عدة ايام .

و في عهد هذا الخليفة كان ببغداد جماعة كبيرة من العلماء والحكماء والادباء نبغ فيهم كثيرون في علوم مختلفة منهم الركن عبد السلام بن جنكي دوست الجيلي الحكيم فانه نبغ في الفلسفة واشتهر بها ولكنه رمي بالزندقة اخيراً ووشى به الى الخليفة الناصر وحرضوه على الفتك به وحرق كتبه فامر الخليفة بالقبض عليه وعلى كتبه (وكانت اكثرها من الكتب الفلسفية الثمينة) .ثم امر باخراج الكتب الى الرحبة (موضع ببغداد) وحرقها بحضور الناس . فاحضر لذلك عبـد الله التيمي المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر صعد عليه وبجانبه كانون . فاجتمع اهل بغداد وصعد التيمي على المنبر وخطب خطبة طويلة لعن بها الفلاسفة ومن يقول بقولهم وذكر عبد السلام هذا بشر . ثم اخذ يخرج الكتب التى له كتاباً كتاباً يتكلم عليه و يبالغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده في النار . ومن جملة الكتب التي احرقت في ذلك اليوم كتاب الهيئة لابن الهيثم .

وظل الركن عبد السلام هذا في السجن الى سنة ٥٦٩ ﻫ فامر الخليفة باطلاقه وعفى عنه .

و في ايامه سنة ٦٢٠ ﻫ قتل ببغداد ابو بكر صاعد بن توما النصراني الطبيب البغدادي الملقب بامين الدولة وكان هـذا مقرباً عند الخليفة وله منزلة رفيعة عنده بل كان طبيبه الخاص وامين سره . وسبب قتله هو ان الخليفة لما ضعف بصره في آخر ايامه استحضر امرأة من النساء البغداديات (١) تعرف باسم نسيم وقربها وكانت تكتب خطاً قريباً من خطه فجعلها بين يديه تكتب الاجوبة وشاركها في ذلك احد خدم قصر الخلافة اسمه تاج الدين رشيق فصارت المرأة تكتب في الاجوبة ما يملي عليها الخليفة . واتفق ان كتب الوزير القمي المدعو بالمؤيد مطالعة وعاد جوابها وفيه اخلال بين فتوقف الوزير وانكر ثم استدعى صاعد الطبيب بن توما وسأله عن ذلك سراً فعرفه ما الخليفة عليه من ضعف البصر وما اودع للمرأة والخادم من كتابة الاجوبة . فتوقف الوزير عن العمل باكثر الامور الواردة عليه . فعلمت المرأة والخادم بذلك وتحقق لديهما ان صاعد الطبيب هو الذي افشى ذلك السر . فاتفق الخادم مع رجلين من الجنود الواسطية يعرفان بولدي قمر الدين ان يغتالا الطبيب ويقتلاه . فرصدا الطبيب في بعض الليالي الى ان خرج من دار الوزير عائداً الى دار الخلافة فتبعاه الى باب الغلة ووثبا عليه بسكينيهما وجرحاه

---

(١) وينقل انه كانت له جارية علمها الخط بنفسه فكانت تكتب مثل خطه فاودع لها كتابة الاجوبة عندما ضعف بصره .

وانهزما . فبصر بهما وصاح خذوهما . فمادا اليه وقتلاه وجرحا النفاط الذي بين يديه (حامل المصباح) فلما سمع الخليفـة بذلك امر وزيره بالبحث عن القاتلين فعرفا وقبض عليهما . وفي بكرة تلك الليلة اخرجا الى موضع القتل وصلبا على باب المذبح المحاذي لباب الغلة التي قتل في القرب منها الطبيب .

وفي عهده ظهر التترمن بلادهم الواقعة غرب بلاد الصين في سنة ٦١٧هـ تحت قيادة زعيمهم جنكيز خان فقصدوا اولا بلاد خوارزم وفتحوها وملكوا بخارا وسمرقند وغزنة بعد حروب عنيفة ثم سارت فرقة منهم الى بلاد الروس الشمالية وملكوها . وكان ابتداء دولة المغول او التتر هـذه سنة ٦٠٣ هـ اسسها تموجين ثم تولى بعده ابنـه جنكيز خان ففعل ماهو مشهور في التاريخ . وفي ايام هذا الخليفة سنة ٦٠١ هـ احترق مخزن الاسلحة ببغداد وسرت النار بكثير من الدور والاسواق وتجسم الامر وتلف كثير من الدور والحوانيت والمخازن والاموال والنفوس وعظمت المصيبة حتى جاء الاعراب من اطراف بغداد لاطفـاء ذلك الحريق الهائل الذي لم يسبق له مثيل في بغداد فاطفي .

وتوفي هذا الخليفة سنة ٦٢٢ هـ بعد ان عجز عن الحركة في آخر ايامه وذهبت احدى عينيه ، وضعف بصر الاخري .

١٠٨

الظاهر بامر الله

٦٢٢—٦٢٣ ﻫ

«١٢٢٥—١٢٢٦» م

هو عدة الدين ابو نصر محمد ابن الناصر لدين الله بويع له بعد وفاة ابيه ولقبوه الظاهر بامر الله . ولما تولى بسط العدل واعاد الاملاك المغصوبة الى اهلها ورفع من المكوس شيئاً كثيراً كان قد جدد وفرق في الناس أموالا جزيلة وفعل كثيراً من الخيرات والمبرات وازال الظلم وضرب على ايدي المفسدين واعتق خمسين جارية صرن اليه من ابيه وفرق عليهن الاموال . بل انه اظهر من العدل والاحسان والامن مالا يمكن وصفه وزال عن الناس ما كانوا الفوه من الخوف في ايام ابيه من ذلك ان العادة كانت ببغداد في عهد ابيه ومن جاء قبله ان الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة بما تجدد في دربه من اجتماع الناس على نزهة او عرس او غير ذلك من قدوم وسفر وكل شيء من صغير وكبير مما جعل الناس في حجر عظيم ويقدم تلك المطالعة الى رئيس الحرس وهذا يقدمها بالواسطة الى الخليفة فلما ولي هذا الخليفة اتته المطالعات على العادة فامر بقطعها قائلاً : اي غرض لنا في معرفة احوال الناس في بيوتهم فلا يكتب احد الينا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال : نحن ندعوا الله ان يصلحهم

وعقدهذا الخليفة جسراً ثانياً لبغداد وكان قدخرب احد الجسرين وبقي جسر واحد فصار ببغداد فيعهده جسران . وما زالت دولته عادلة آمنة منذ ولي الى ان مات سنة ٦٢٣ ه ولم يملك غير تسعة اشهر .

المستنصر بالله

«٦٢٣—٦٤١» ه

«١٢٢٦—١٢٤٣» م

هو ابوجعفر المنصور ابن الظاهر بامر الله بويع له بالخلافة بعد وفاة ابيه ولقب المستنصر بالله فسار سيرة ابيه في العدل والاحسان وافاض من الصدقات ما اربي على من تقدمه . ولما تم امره ووجد الدولة قداختلت والجباية قدانتقصت وضاقت عن ارزاق الجنود اضطر الى اسقاط كثير من الجند توفيراً لبيت المال ولكنه عاد بعد مدة واستخدم جنوداً كثيرة وسيأتي ذكر ذلك . وفي عهده ازداد المشتغلون بالعلوم والفنون رغبة واشتغالاً ببغداد وكثر الولوع بالادب والشعر واكثر هذه الخليفة من تشييد المدارس والمساجد والمشاهد ووسع الطرقات واكثر من الصدقات . وأمر سنة ٦٣٢ه ان تضرب الدراهم الفضية ليتعامل بها بدلاً من الدراهم المتخذة من قراضة الذهب فجلس الوزير واحضر رجال الدولة والامراء والتجار والصيارفة وفرشت البسط وافرغ عليها الدراهم وقال الوزير : وقد رسم مولانا امير المؤمنين لمعاملتكم بهذه الدراهم عوضاً عن قراضة الذهب رفقاً بكم

وانقاذا لكم من التعامل بالحرام من التصرف الربوي . ثم سعرت هذه الدراهم واعتبر كل عشرة بدينار .

وكان هذا الخليفة عاقلا اديباً مغرماً بالعلوم ومن فرط حبه للعلوم انشأ في قصره مكتبة جمع فيها من الكتب الخطية النفيسة النافعة مالا يحصى وكان يعظم رجال الادب والعلم ويحترمهم احتراماً زائداً ينفق عليهم الاموال ويحب الادب واهله حباً جاً

وفي ايامه قويت شوكت التتر وعظم شأنهم فارسل السلطان جلال الدين خوارزم شاه صاحب العراق العجمي وخوزستان واذربيجان رسولا الى الخليفة سنة ٦٢٤ هو آخر الى الملك الاشرف ورسولا الى علاء الدين السلجوقي يستنجدهم على التتر ويحذرهم عاقبة أمرهم قائلا ان المصلحة تقضي بالاتفاق والاتحاد تجاه هذا العدو لدفعه عن البلاد فلم يجبه احد من هؤلاء الثلاثة (١) وسبب اختلافهم هذا تمكين التتر من البلاد فشنوا الغارات في ديار بكر والجزيرة وغيرها بقيادة ملكهم قاءآن ثم استولوا على بلاد كثيرة لاحاجة لذكرها في هذا المختصر . ثم حملوا على العراق سنة ٦٣٥ ﻫ حتي وصلوا تخوم بغداد وكان الخليفة قد استعد لحربهم واستخدم جنوداً عظيمة فارسل لقتالهم مجاهد الدين الدويدار وشرف الدين اقبال الشرابي مع عساكرهما وكانوا مائة الف فارس فالتقوا بالتتر وهزموهم . ثم

---

(١) وينقل ان الذي ارسل الرسل هو الملك الاشرف ارسلهم الى الخليفة والى السلطان علاء الدين صاحب الروم يخبرهم بوصول التتر قرب تبريز في طلبه واستنجدهم وحذرهم عاقبة امرهم فلم يجبه احد .

عادوا سنة ٦٣٦ هـ فخرجت عساكر بغداد والتقوا فوق خانقين فهزموهم وردوهم على اعقابهم ثم اعادو الكرة فدحروا ايضاً . وعلى اثر ذلك خافوا من عودة الكرة فنصبوا على سور بغداد المنجنيقات. والمستنصر هذا هو الذي بنى المدرسة المستنصرية ببغداد .

المدرسة المستنصرية

بنى المستنصر بالله المدرسة المستنصرية على الضفة الشرقية من دجلة وتولى عمارتها الوزير مؤيد الدين ابو طالب محمد ابن العلقمي ورتب فيها غرف التدريس والمنام والطعام وغرف المدرسين وجعل فيها مستشفاً وصيدلية وحماماً وداراً للوضوء ومسجداً للصلاة وغرفاً للحلاقة ومطبخاً وخزانة للكتب وانباراً فيه كل ما يحتاج اليه التلامذة من لبس واكل وشرب وكتب وورق وحبر وغير ذلك . وخصص فرشاً وبسطاً وسرائر ومصابيح وثياباً مختلفة وورقاً وحبراً وزيتاً وصابوناً وكل ما يحتاجون اليه لتحصيل العلوم عدا الرواتب الكافية وما يطبخ يومياً من الطعام الفاخر وما يقدم لهم من الخبز والحلوى والفواكه المختلفة واللحم . وفرش غرفها بافخر الفرش ورتب لها البوابين والفراشين والخدم والطباخين وجعلها وقفاً على المذاهب الاربعة وجعل لكل مدرس من مدرسي هذه المذاهب ايواناً ومسجداً وموضع تدريس (وهو قبة خشب صغيرة فيها كرسي) وجعل لكل من هؤلاء المدرسين معيدين يعيدان الدرس

يجلس الواحد في يمين المدرس والآخر في شماله . فكان يدرس فيها علم الاصول والفروع والحديث والفقه واللغة والفرائض والقواعد العربية وعلم القوافي وعلم الطب والحساب والمساحة ومنافع الحيوان وعلم الصحة وتقويم البلدان ونقل الى مكتبتها مائتين وتسعين حملا من الكتب الخطية النفيسة المختلفة وشرط ان يشتغل في هذه المكتبة عشرة ممن يعنون بعلم الحديث وبنى في جانب هذه المدرسة داراً لتلقين الصبيان الايتام القرآن ورتب لهم معلماً ومعيدا وخادماً واجرى الماء الى المدرسة وفروعها وحمامها ومطبخها وكان يوم ذاك يدرس فيها علماء عظام من كل علم وفن وطب وكانت غاصة بالطلاب وكان فيها مائتان وثمانية واربعون تلميذاً من الذين يشتغلون بعلوم الدين فقط وكانوا يسمونهم الفقهاء عدا المعلمين والشيوخ ومن يرتب الكتب للتلاميذ وعدا الطبيب والصيدلي والمضمد الذين بني لهم بهواً تجاه المدرسة جعل فيه كل ما يحتاجونه لصنعتهم وجعل في جدار هذا البهو دائرة عجيبة على صورة الفلك فيها طاقات صغيرة لها ابواب من الذهب فاذا مضت الساعة الاولى من النهار والليل انفتح باب من تلك الابواب وخرج باز صغير مصنوع من الذهب فيرمي بندقة من فمه في طاسة من الذهب لها صوت كصوت الساعة الكبيرة اليوم ثم يعود الى محله وتعود البندقة الى محلها واذا مضت ساعتان خرج من كل باب باز (اي بازان) فيرمي كل واحد منهما من فمه بندقة في كاسته متعاقبين وهكذا يشتغل البازان ليلاً ونهاراً على عدد الساعات ليعلم الاساتذة والتلاميذ أوقات الدرس واوقات الصلاة

وفي سقف هذا البهو سماء زرقاء تطلع منها شمس من ذهب عند طلوع الشمس وتدور في ذلك الفلك مع دورانها وتغيب مع غيابها . وهناك قمر مضيء اذا جاء الليل طلع ودار كما يدور قمر السماء ثم يغيب .

ابتدأ هذا الخليفة في عمارة هذه المدرسة الكبرى سنة ٦٢٥ هـ واتمها في سنة ٦٣٠ هـ اي قضى في بنائها خمس سنوات وانفق عليها اموالاً طائلة واوقف عليها عدة قرى وضياعاً . وقد فتحها في يوم خميس من شهر رجب واحتفل بها يوم فتحها احتفالاً عظيماً حضره الخليفة والامراء ورجال الدولة والقضاة والعلماء والادباء والشعراء وغيرهم كما احتفل بها عندما وضع الخليفة الحجر الاساسي وا كثر الشعراء من وصفها يوم ذاك منهم ابو المعالي عبد الحميد الشهير بابن ابي الحديد شارح نهج البلاغة اذ قال واصفاً لها في قصيدته التي مطلعها :

وضع الامام بها اساس بنائه والموج بين مجمجم ومزمجر

ولما تم بناء هذه المدرسة انشأ الخليفة بجانبها حديقة بنا فيها محلاً يشرف على المدرسة فكان يأتي كل يوم بعد صلاة العصر لمراقبة ما يجري في مدرسته من الاعمال وتفقد شؤونها . ويجدر بنا ان نذكر للقراء ما جرى على هذه المدرسة بعد تأسيسها حسب ما علمناه عنها ثم نعود الى ما نحن بصدده .

(ما صارت اليه هذه المدرسة)

بقيت هذه المدرسة على نظامها وانتظامها اعواماً وغصت بالتلامذة واشتهرت في العالم حتى اذا ما جاء هولاكو التتري واستولى على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقرض الدولة العباسية ضعف شأنها ولكنها مع ذلك كانت حافلة بالعلماء والتلامذة ثم اخذت في عهد الدول التي اعقبت الدولة الايلخانية تنحط يوماً فيوماً ثم خربت بسبب توالي النكبات على هذه المدينة وانتقال الحكم فيها من يد الى يد حتى اصبحت خاوية على عروشها لم يبق فيها غير نصف ابنيتها تقريباً (اذ كان من اجزائها محل جامع الاصفية الذي بناه الوزير داود باشا والى بغداد وكذلك سوق المولى خانة وسوق الهرج وسوق دانيل وسوق الرماح وما اتصل به وسوق الاطراقجية ومايليه وسوق السبلان والمقهى المعروفة بقهوة المميز والادارة النهرية والخان الملاصق لها الآن وكان مطبخها والحمام الذي اشترته الحكومة التركية اخيراً من بعض الاهلين وادخلته فيها عندما جعلتها مركزاً للكمارك) ثم تغلب عليها المتنفذون وصارت تتداول من يد الى اخرى وسميت باسماء مختلفة وعرفت اخيراً بخان المصالوة . فلما تولى امارة العراق الوزير سليمان باشا الكبير المقتول سنة ١٢٢٥ هـ اشتراها ممن وصلت اليه من خالص ماله وجعلها وقفاً ولكنه خصص ريعها لمدرسته المعروفة بمدرسة سليمان باشا — اذ كانت يوم ذاك مخزناً لاموال التجار — ولما انقضى عهد ذلك الوزير استلمتها دائرة الاوقاف واخذت تنفق ريعها على مدرسته

ثم وضعت قيادة الجيش العليا في بغداد يدها عليها وجعلتها مخزناً لملابس الجنود ولما طالبتها دائرة الاوقاف باعادتها اسكتتها بدفع اجرة سنوية حتى اذا ماجاء القائد المشهور رجب باشا التركى الى بغداد سنة ١٣١١ هـ باعها الى دائرة الكمارك بالف وخمسمائة ليرة عثمانية يقال انه انفقها على بناء ديوان الجند الذي كان في الثكنة العسكرية وظلت دائرة الاوقاف ساكتة عن امرها مدة خوفاً من بطش ذلك الطاغية ومن جاء بعده من القواد والولاة الذين لايهمهم امر المعاهد العلميه وخصوصاً القديمة منها سيما ما تركه العرب حتى دخلت سنة ١٣٢٩ هـ فرأت دائرة الاوقاف ان الفرصة قد حانت للمطالبة بهذه المدرسة فاقامت الدعوى على ثبوت وقفها وساعدها على ذلك جماعة كبيرة من رجال العلم والادب وكان القاضي ببغداد حينذاك محمد عاصم بك وبعد ان شهد نحو الخمسين رجلاً من العدول في وقفها وابرزت الوثائق الرسمية ثبت لدي المحكمة انها وقف من قبل سليمان باشا الوزير على مدرسته فحكم القاضي بردها وقفاً بشهادة التواتر والوقفيات وذلك في اليوم الثالث من ربيع الثاني سنة ١٣٢٩ هـ ثم ارسل اعلام الحكم الى الاستانة ليصدقه شيخ الاسلام فاختفته اليد الظالمة هناك وظل نسياً منسياً حتى قامت الحرب العامة وغيرت الارض ومن عليها واحتل البريطانيون بغداد لتحريرنا وانقاذنا من الاستعباد سنة ١٣٣٥ هـ فقلنا ستعود المستنصرية على ما كانت عليه ايام بانيها . فولى يوم وجاء آخر وانقضى عام وتلاه حول وتغيرت ادارة البلاد من

احتلال عسكري الى حكومة موقتة الى دولة مستقلة عليها ملك هاشمي عربي الى وزارة تلو الوزارة الى عقد مجلس تأسيسي الى تأليف مجلس نيابي واذ بهذه المدرسة عادت الى الكمارك كما كانت عليه في العهد العثماني الاخير فاضطرت وزارة الاوقاف في هذه السنة (سنة ١٣٤٤ هـ) الى المطالبة ببدل اجارتها او تسليمها فامتنعت وزارة المالية عن ذلك مدعية ان وزارة المالية التركية قد اشترتها لديوان الكمارك منذ عهد بعيد وانها ملك لها . فشرعت وزارة الاوقاف بتجديد الدعوى السابقة فقامت المرافعات بين الوزارتين في المحكمة الشرعية ببغداد فشهد بوقفها جماعة كبيرة من خيرة الرجال وابرزت الوثائق الرسمية ولكن المحكمة الشرعية بصرها الله قررت اخيراً ويا للاسف رد دعوى وزارة الاوقاف فاضطرت هذه الى تمييز ذلك الحكم الذي احزن رجال العلم والادب وجاء انموذجاً على اعمال رجال الحكومات في قرن العشرين للميلاد قرن العلم والمدنية والنور : ولا ندري ماذا يقولون لمن يقرأ ماهو باق على صدر الباب الشرقي لهذه المدرسة حتى اليوم من الكتابة التي نقشت عام بنائها وهي: بسم الله الرحمن الرحيم . قد انشأ هذا المحل رغبة في ان الله لا يضيع اجر من احسن عملاً ، وطلباً للفوز بجنان الفردوس ، التي اعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلا ، وامر ان تجعل مدرسته للفقهاء على المذاهب الاربعة ، سيدنا ومولانا امام المسلمين وخليفة رب العالمين ابو جعفر المنصور المستنصر بالله امير المؤمنين شيد الله معالم الدين بخلود سلطانه ، واحيا

قلوب اهل العمل بتضاعف نعمه واحسانه . وذلك في سنة ثلاثين وستمائة .
وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله .

ولنعد الى ما نحن بصدده . توفي المستنصر بالله سنة ٦٤١ هـ وكانت سيرته سيرة عدل وحلم وكرم ونهوض بالعلم . فبويع بعده لابنه عبد الله ولقب المستعصم بالله .

المستعصم بالله

« ٦٤١ — ٦٥٦ هـ »

« ١٢٤٣ — ١٢٥٨ م »

هو عبدالله بن المستنصر بالله. كان يوم توفي ابوه نازلاً في قصر التاج فاستدعاه رجال الدولة الى قصر ابيه فحضر وجلس في بهو المبايعة وحضر الوزير واستاذ الدار (قصر الخلافة) ورجال الدولة والامراء والقضاة والعلماء والوجوه فبايعوه بالخلافة ولقبوه المستعصم بالله . ولم يحضر في حفلة المبايعة احد من اعمامه ولا اولادهم وامتنعوا عن الحضور . وعندما تمت البيعة امر الخليفة بغلق باب الفردوس الذي يحتوي على دورهم فاغلق عليهم وظلوا ثلاثة ايام بغير طعام لا يدخل عليهم احد فاضطروا الى الاذعان وطلبوا ان يحضروهم للمبايعة فاحضروهم فبايعوه مكرهين . والظاهر انهم امتنعوا عن مبايعته بادئ بدء لكونه ضعيف الرأي غير كفو لهذا المنصب الخطير .

(المستعصم في قصره)

لما استتب امر هذا الخليفة عاد الى قصر التاج واقام فيه بعدان زاد في عمارته وزخرفته (١) وبنى فيه منظرة كالعريش تشرف على دجلة جعل فوقها قبة من الخشب مزخرفة بالنقوش والتذهيب البديع وفي وسط المنظرة المائدة الثمينة وفي صدر المنظرة سرير الخليفة وفي ارضها السجاد الثمين عليه الرسوم البديعة وفوق السجاد الوسائد المطرزة. وفي هذا القصر دار العامة (غرفة الاستقبال) كانت مفروشة احسن الفرش بالستائر والنمارق والارائك وفيها انواع الزخارف وفي صدرها كرسي الخلافة وكان الخليفة اذا اراد الجلوس في هذا المحل لمقابلة الناس يلبس ملابسه الرسمية وهي جبة سوداء وعمامة كبيرة. اما اذا اراد الجلوس في مجلس انسه ولهوه تزى بزي الاتراك ولبس ثوباً ابيضاً شبه القباء فيه رسوم ذهبية وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر اسود وكان في هذا القصر سبعمائة جارية من الجواري الحسان عدا العدد العظيم من الخدم المعروفين بالخصيان الذين كان احدهم اذا خرج من القصر مشى بين يديه امراء الجنود وسلت حوله السيوف وكان لهم نفوذ كبير يومذاك وكلهم تبع لاستاذ الدار الذي كان هو الآمر الناهي في هذا القصر وكان يعرف بالصاحب

«١» وقعت على هذا القصر صاعقة في ايام المقتفي سنة ٥٤٩ هـ فاحترق وبقيت النار تعمل فيه تسعة ايام ثم طفئت بعد ان احترق القصر كله . ثم اعاد بنائه الخلفاء شيئاً فشيئاً حتى عاد كما كان قبلا ثم زاد فيه المستعصم وزخرفه واقام فيه.

ويسمى رئيس الخصيان ايضاً وله سطوة كبيرة ونفوذ عظيم في شؤون الدولة السياسية والادارية لضعف رأي الخليفة واشتغاله باللهو والانس في هذا القصر البديع بين جواريه ومغنيه .

انحطاط الدولة

كان هذا الخليفة كثير الغفلة عن امور دولته مغرماً باللهو والغناء منغمساً بالملذات ضعيف الرأي سيء التدبير غلب على امره استاذ الدار وخدم القصر وجواريه واستبد في الاعمال ابنه الاكبر ابو العباس احمد المعروف عند العامة بابي بكر بل انه كان العوبة بين يدي ابنه هذا وصاحبه ركن الدين الداودار «امير الجيوش» ورجال القصر وجواريه حتى تسلط هؤلاء على امور الدولة واستبدوا بالاعمال وهو لاه في قصره غير ملتفت الى امور دولته فتوالت من اجل ذلك الاضطرابات سيما في بغداد اذ كثرت فيها المنازعات الاهلية والفتن المذهبية بين السنة والشيعة سفكت في اكثرها الدماء الطاهرة واحرقت الدور وكان نصير الشيعة الوزير ابن العلقمي ونصير السنة ابن الخليفة والداودار حتى انهما كانا في اكثر الاحيان يحرضان الجنود على الفتك بالشيعة نكاية بالوزير على ان الوزير ما كان ليتجاهر بنصرة ابناء مذهبه بل كثيراً ما كان يسعى في الاصلاح بين الطرفين و يبذل جهده في سبيل ذلك .

استوزر هذا الخليفة مؤيد الدين ابو طالب محمد ابن العلقمي لدهائه

وكفائته فكان وزيراً خبيراً بتدبير الملك ناصحاً للخليفة باذلاً جهده فيما يعود بالصلاح للدولة ولكن الخليفة مع حسن ظنه بهذا الوزير القدير ما كان يصغي لنصائحه الا قليلاً لانه كان طوع ارادة ابنه ومن التف حوله من رجال القصر وجواريه والداودار ومن على شاكلته من رجال الحكومة الذين صاروا سبباً لضعف الدولة وانقراضها .

وبينما الخليفة لاه في قصره بين جواريه وفي مجالس انسه . والاضطرابات تزداد يوماً فيوماً . والفتن الاهلية المذهبية قائمة على قدم وساق ورجال الدولة في نزاع وانشقاق . والجيش في انحلال . والدولة في ضعف مستمر اذ بالتتر قد زحفوا على العراق بقيادة هولاكوخان بن تولي بن جنكيزخان المغولي الشهير .

زحف التتر المغول على بغداد

كان جنكيزخان المغولي قد تغلب على عرش المغول وضم الى مملكته عدة ممالك واكتسح بلاداً كثيرة حتى تمكن من انشاء مملكة عظيمة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ودخل في سلطانه الملايين من الصينيين والتنكوت والافغان والهنود والفرس والترك وغيرهم فلما مات سنة ٦٢٤ اقتسم مملكته اولاده الاربعة وعرفوا بالخاقانات وصارت بلاد المغول نصيب ابنه تولي « طلوى » احد هؤلاء الاربعة فولى هذا ابنه هولاكو على بعض المقاطعات ولما قويت شوكته واستفحل امره استقل بها ثم

ملك بلاد فارس سنة « ٦٥٣ » ه وقد عرفت دولته فيها بدولة ايلخان اومغول الفرس. ثم طمع في العراق وكان قد علم بضعف شأن الدولة العباسية واختلاف كلمة رجالها في بغداد فارسل فرقة من جنوده الى العراق ولما اجتازت الحدود جهز الخليفة المستعصم بالله جيشاً لصدهم وقتالهم فلم يتمكنوا من منازلة جيش الخليفة لانه كان حينذاك اكثر عدداً من المهاجين وذلك سنة ٦٥٣ ه .

ولما كانت سنة ٦٥٥ ه عزم هولاكو على محو الدولة العباسية من عالم الوجود فحمل على العراق من همذان بجيش جرار من قومه المغول « قيل كان عدده اربعمائة الف مقاتل بين فارس وراجل » فاجتاز بجيوشه الحدود وتوغل في البلاد العراقية الشرقية وكان الخليفة المستعصم بالله قد سرح اكثر الجنود عندما تولى منصب الخلافة لسبب قلة المال باشارة وزيره ابن العلقمي على ما يقال فلم يتمكن من تجهيز جيش كبير لصد هذا الطاغية فارسل اربعين الف مقاتل وبعد معارك شديدة انهزم عسكر الخليفة وتقدم هولاكو بجيوشه حتى نزل على مرحلتين من بغداد وبث قواده وجنوده حول بغداد . فاستيقض الخليفة من سباته. وانتبه من غفلته وادرك خطورة موقفه بعد ان كان يقول لمن يشير عليه بالاستعداد للتتر ويخوفه منهم « ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي اذا تنازلت لهم عن باقي البلاد ولا يهجمون علي وانا بها وهي بيتي ودار مقامي » فجمع

رجال دولته للمشاورة فاشار الوزير باسترضاء هولاكو بالاموال الكثيرة والهدايا الثمينة واشار الداودار وابن الخليفة بالحرب واشار غير هؤلاء بما لا فائدة فيه وبعد مفاوضات طويلة قرر الخليفة مباشرة الحرب وارسل عساكره بقيادة الداودار فالتقى بالمغول وبعد قتال عنيف تمزق جيش الخليفه ونجا من فر الى بغداد وذلك في اوائل محرم سنة ٦٥٦ ﻫ .

سقوط بغداد بيد المغول

على اثر اندحار جيش الخليفة تقدم هولاكو من الجانب الشرقي وتقدم قواده من الجانب الغربي فالقى الحصار على بغداد من كل الجهات ونصبت جنوده عليها المنجنيقات والعرادات والآت النفط فايقن الخليفة بعجزه وضعف جنوده واستولى عليه الرعب فارسل الى هولاكو في طلب الصلح وترددت الرسل بينهما بدون جدوي وبدأ المغول بضرب المدينة بالحجارة والنفط والسهام واخذت قنابل المنجنيقات واللفائف النفطية تتساقط بشدة على قصور الخلفاء ودور بغداد واسواقها وكان لها دوي هائل. وكانت جنود بغداد تجيبهم بمثلها تقريباً . ثم حمى وطيس الحرب واشتد الحصار وامر هولاكو جنوده ان يكتبوا على السهام التي يرمونها على المدينة « ان من لم يقاتل فهو آمن على نفسه واهله وماله » ففعلوا ذلك ودافعت جنود الخليفة دفاع المستميت ولكنها لم تتمكن من صد هجمات هذا العدو القوي الشديد وبعد عدة هجمات احتل المغول اسوار بغداد

بعد حصار دام احد عشر يوماً واضطر الخليفة الى الخضوع والتسليم لهذا الفاتح وارسل يستأذنه بالخروج اليه فاذن له فخرج في جمع من رجال دولته واعيانها والقضاة والائمة فانزل عند باب كلواذا ثم خرج اولاد الخليفة وارسل عامة اهل بغداد شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذا لهم الامان .

وعلى اثر ذلك سلمت المدينة ودخلتها جيوش هولاكو ففتكوا باهلها فتكاً ذريعاً وقتلوا كثيراً من الوجوه والاشراف وغيرهم ودام القتل والنهب سبعة ايام واصاب اهل بغداد بما لم يصب مثله بل كانت هذه الحادثة من اعظم المصائب على الاسلام والمسلمين . ثم نودي بالامان في أواخر شهر محرم « سنة ٦٥٦ هـ » ودخل هولاكو المدينة دخوله الرسمي واستولى على كل ما كان في قصر الخلافة من الاموال الثمينة والمجوهرات والجواري وامر بالكتب التي كانت في قصور الخلفاء فالقيت في دجلة . وعلى اثر ذلك قتل الخليفة المستعصم بالله وولديه الاكبر ابا العباس احمد والاوسط ابا الفضائل عبد الرحمن وجماعة من الخواص وذلك في شهر صفر من السنة المذكورة . واسر بنات الخليفة وابنه الصغير مبارك (وكان طفلاً فاراد قتله فشفعت له زوجة هولاكو فعفى عنه) فتشتت من بقي من بني العباس في البلاد وبذلك انقرضت الدولة العباسية من العراق بعد ان دامت ٥٢٤ سنة من سنة ١٣٢ الى سنة ٦٥٦ هـ وعدد خلفائها ٣٧ خليفة اولهم السفاح وآخرهم المستعصم بالله . واصبحت عاصمة العباسيين

تحت سلطة المغول بعد ان كانت مركز الخلافة الاسلامية التي تثبت ملوك العالم الاسلامي على عروشهم بتقاليدها ويحترمها المسلمون في مشارق الارض ومغاربها .

(لماذا حمل هولاكو على بغداد)

ماحمل هولاكو على بغداد الا طمعاً باراضى العراق الخصبة الكثيرة الخيرات التي تحكمها دولة منهوكة القوى تسربت فيها الفتن وتحكم فيها الانشاق واستولى عليها الضعف واشتغل زعيمها باللهو والانس ، بعد ان فتح بلاد فارس الواحدة تلو الاخرى واستولى على مدن كانت احصن البلاد واشدها قوة ، وحدت به نفسه الى انشاء دولة كبيرة مترامية الاطراف معتمداً على قومه المغول الاشداء الخاضعين لاوامره ونواهيه متبعاً خطة جده جنكيز في فتوحاته وشدة بأسه وقسوته . ولا يعقل ان يزحف هذا الفاتح الشهير بجنود جرارة على مركز الخلافة الاسلامية بتحريض ابن العلقمي وزير الخليفة « كما يقول بعض المؤرخين ». معتمداً على ذلك فقط . كما لا يعقل ان الذي يحمل على بغداد باربعمائة الف مقاتل يحتاج الى طلب النجدة عند محاصرته قلاع الملاحدة من خليفة ضعيف لم يتمكن يوم العسرة من تجهيز جيش يزيد على اربعين الف مقاتل ولا يستطيع الدفاع عن عاصمته شهراً .

فلو سلمنا جدلاً للقائلين بذلك اذن فمن الذي يكون قد حرضه

على فتح كيلان وخراسان واصبهان وهمذان وجميع البلاد الفارسية. ولا يخفى مقدار ما يعانيه من يقوم بمثل هذا العمل الكبير .ومن الذي دعاه لاخذ الجزيرة وما يليها وملك الخوارزمية ومن اطمعه في آسية الصغرى وسورية . وكيف يعقل ان يأمن هذا الداهية ابن العلقمي مع علمه بخيانته لخليفته فيوليه بعد سقوط بغداد منصباً رفيعاً فيها . عجيب والله امر هؤلاء القوم الذين حادوا عن الحقائق وحملوا على هذا الوزير حملات تجلي فيها التعصب المذهبي الذي يشين التاريخ . ولوانهم انصفوا ونبذوا مقاصدهم السياسية وتعصباتهم المذهبية جانباً لما الصقوا بهذا الرجل تلك التهم من التحريض والخيانة والتحزب للشيعة والسعي لحوالة دولة العباسية الى غير ذلك من الاسنادات التي تكذبها الاخبار التاريخية الصحيحة ويأباها العقل السليم . ولما استمروا في الضرب على وتر التلفيق .

اقول هذا غير مبال بنقد المغرضين مهما زعموا لاني غير متعصب لمذهب وليس لي بهذا النقد مأرب وماغايتي الا اظهار الحقائق للقراء خدمة للتاريخ . ولاجل ان يقف القارئ على الاسباب التي حملت هولاكو على فتح بغداد وغيرها والى ما كان يرمي به الملوك وماكان عليه من شدة البأس . نقلت الكتاب الذي ارسله الى صاحب حلب بعد فتح بغداد وهذا نصه :

يعلم الملك الناصر اننا نزلنا بغداد في سنة ٦٥٦هـ وفتحناها بسيف الله تعالى واحضرنا مالكها وسألناه مسئلتين فلم يجب لسؤالنا فلذلك

استوجب منا العذاب كما قال في قرآنكم ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم . وصان المال. فآل الدهر به الى ما آل . واستبدل النقوش النفيسة بنقوش معدنية خسيسة . وكان ذلك ظاهر قوله تعالى. ووجدوا ما عملوا حاضرا . اننا قد بلغنا بقوة الله الارادة . ونحن بمعونة الله في الزيادة ولا شك ان نحن جند الله في ارضه خلقنا وسلطنا على من حل عليه غضبه . فليكن لكم فيما مضى معتبر . وبما ذكرناه وقلناه مزدجر. فالحصون بين ايدينا لا تمنع . والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع . ودعائكم علينا لا يستجاب ولا يسمع . فاتعظوا بغيركم . وسلموا الينا اموركم . قبل ان ينكشف الغطا ويحل عليكم الخطا . فنحن لا نرحم من شكا . ولا نرق لمن بكا ... فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من سهامنا مناص. فخيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وعقولنا كالجبال وعددنا كالرمال . فمن طلب منا الامان سلم . ومن طلب الحرب ندم . فان انتم اطعتم امرنا وقبلتم شرطنا . كان لكم مالنا وعليكم ما علينا . وان انتم خالفتم امرنا . وفي غيكم تماديتم فلا تلومونا ولوموا انفسكم . فالله عليكم يا ظالمين. فهيئوا للبلاد جلباباً . وللرزايا اترابا . فقد اعذر من انذر وانصف من حذر لانكم اكلتم الحرام وخنتم بالايمان . واظهرتم البدع واستحسنتم الفسق بالصبيان . فابشروا بالذل والهوان . فاليوم تجدون ما كنتم تعملون . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فقد ثبت عندكم اننا كفرة . وثبت عندنا انكم فجرة : وسلطنا عليكم من بيده مقاليد الامور مقدرة . والاحكام

مدبرة . فعزيزكم عندنا ذليل . وغنيكم لدينا فقير . ونحن مالكون الارض شرقاً وغرباً . واصحاب الاموال نهباً وسلباً . واخذنا كل سفينة غصباً . فميزوا بعقولكم طرق الصواب . قبل ان تضرم الكفرة نارها . وترمي بشرارها . فلاتبقى منكم باقية . وتبقى الارض منكم خالية . فقد ايقظناكم حين راسلناكم . فسارعوا الينا برد الجواب بتة . قبل ان يأتيكم العذاب بغتة . وانتم تعلمون .

اسباب انقراض الدولة العباسية

قامت الدولة العباسية على انقاض الدولة الاموية سنة ١٣٢ه فاشتغل خلفاؤها الاولون بادئ الامر في تأسيس الدولة ثم شرعوا في تعمير البلاد ونشر العلوم والمعارف وبذلوا لذلك اموالاطائلة فعمرت البلاد وكثرت فيها الثروة وزهت بالعلوم والفنون وامتلأت خزائن الدولة بالمال خصوصاً في عهد الرشيد والمأمون الذي انتشرت فيه العلوم والمعارف انتشاراً مدهشاً حتى بلغت الدولة معظم ثروتها ومنتهى عزها ومجدها. وكان العامل الاكبر لهذا الرقي العظيم الذي اوصل الدولة الاسلامية الى اوج المدنية والحضارة والعمران سداد رأي الخلفاء ووزائهم وصدق ولائهم وعدلهم واشتغال الناس بالتجارة والزراعة والعلوم والفنون تحت راية اولئك الخلفاء العادلين الذين اطلقوا حرية العمل والدين وبذلوا جهدهم في اسعاد رعاياهم الذين كانوا نحو مئتي مليون الى مئتين وخمسين مليون من

أمم مختلفة يوم اتسع نطاق هذه الدولة فبلغت حدودها من الشمال الى اعالي تركستان في آسيا وجبال البيرينية في شمال اسبانيا وفي الجنوب الى بحر العرب والاقيانوس وصحراء افريقية ومن الشرق الى بلاد السند والپنجاب من بلاد الهند ومن الغرب الى الاقيانوس الاطلانطي .فكانت مساحتها تزيد على ضعفي مساحة اوربا . وولاياتها ٤٤ ولاية لكل منها وال وقاض وبيت مال وديوان خراج وغير ذلك مما تحتاجه البلاد من الدواوين والموظفين .

ثم اخذت هذه الدولة في الانقسام فانفصلت منها الاندلس ثم بلاد المغرب غيران ذلك الانفصال لم يؤثر عليها الا قليلاً . ولما تولى المعتصم وابعد العرب وقرب المماليك الاتراك واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء تغلب الاتراك على الدولة واستبدوا بالاعمال فضعف شأن الخلافة واصبح الخلفاء العوبة بيد هؤلاء الغرباء يخلعون منهم من ارادوا ويقتلون من شاؤا ويولون من احبوا حتى ادى ذلك الامر الى انقسام تلك الدولة العظيمة المجد المترامية الاطراف الى عدة دول بعضها فارسية وبعضها تركية اوكردية والبعض الاخر عربية ولكنها كانت تبايع للخليفة وتؤدي اليه المال — قليلاً كان اوكثيراً — وتخطب له وتضرب السكة باسمه . ثم ازداد امر الخليفه ادباراً كما ازداد الغرباء تجبراً واستبداداً فاخذت سلطة الخلافة تضعف شيئاً فشيئاً وانقطع عنها المال من الملوك المنفصلين منها حتى اصبح الخلفاء وليس لهم غير العراق وكان الحكم

فيه لمن غلب من الامراء وليس للخليفة غير الخطبة والتوقيع على التقاليد التي كانت ترسل الى هؤلاء المستقلين . ثم تناهت في الضعف فاستولى على امرها البويهيون الفرس واسسوا الدولة البويهية وسلبوا جميع حقوق الخلافة ودام ملكهم في العراق الى ان قامت الدولة السلجوقية التركية فقرضتهم من هذا القطر واستبدت بالاعمال حتى اذا ما ضعف شأنها بعد حين من الدهر نهض الخلفاء واسترجعوا نفوذهم في العراق وانفردوا فيه بالحكم ولكنهم لم يهنأوا بالملك الا قليلاً حتى تولى الخلافة من اغفل امرها واشتغل باللهو والملذات فقامت الفتن الاهلية والمنازعات المذهبيـة وتكررت في بغداد وسفكت فيها الدماء وآل ذلك الى اختلاف الكلمة وضعف الدولة ضعفاً اطمع التتر في محوها فحملوا بعددهم وعددهم على العراق وقرضوا الدولة العباسية من بغداد واصبحت أثراً بعد عين .

وخلاصة ما تقدم ان العوامل التي ادت الى انقراض الدولة العباسية هي تغلب الاتراك عليها وانهماك الخلفاء المتأخرين على اللهو والانس وانغماسهم بالترف وغفلتهم عن شؤون المملكة « ذلك الامر الذي هو علة العلل » وقيام الفتن الاهلية المذهبية التي توالت في العاصمة وادت الى اختلاف الكلمة وانقسام رجال الدولة وضعف الحكومة ضعفاً ساقها الى الدمار .

الدولة المغولية التترية الايلخانية في بغداد

« ٦٥٦ — ٧٣٨ » هـ ١٢٥٨ — ١٣٣٨ م

هولاكو

« ٦٥٦ — ٦٦٣ » هـ

قد تقدم ذكر استيلاء هولاكو على بغداد وما اجرى فيها من الاعمال غير ان هذا الفاتح لما كان قد تنصر قبل بضعة اعوام بعد ان كان وثنياً اراد القاء الحجة على الناقمين عليه في بغداد وتمكين خواطرهم فامر ان يستفتى العلماء ايما افضل . السلطان الكافر العادل او السلطان المسلم الجائر . ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك فلما وقفوا على الفتيا احجموا عن الجواب وكان رضي الدين علي بن طاووس حاضراً هذا المجلس وكان مقدماً محترماً . فلما رأى احجامهم تناول الفتيا ووضع خطه فيها بتفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر . فوضع الناس خطوطهم بعده (١) فامر هولاكو بنشر الفتيا وتواقيع العلماء على الجواب ولم يكتف بذلك بل انه بعد ان بث جنوده في اطراف العراق واخضعوا له جميع المدن العراقية نظم ادارة البلاد وابقى قوانينها على ما كانت عليه (٢) والف حكومة

---

(١) الفخري . (٢) ما كانت قوانين البلاد غير احكام الشريعة الاسلامية منذ الفتح الاسلامي الى انقراض الدولة العباسية ولكنها قلما كانت في العهد الاخير موقع التطبيق

بغداد من رجال الحكومة السابقة فولى ولاية العراق في بغداد فخر الدين الدامغاني « رئيس ديوان الخلافة » وجعل له معاونين « مشاورين » مؤيدالدين بن العلقمي الوزير وابن درنوش ، وولى منصب قاضي القضاة نظام الدين عبدالمؤمن . وولى على عمارة الرساتيق (٣) في شرقي بغداد احمدبن عمران « عامل الخليفة على بعقوبا » . وولى غير هؤلاء جماعة من اهل البلاد الذين كانوا في خدمة الحكومة السابقة على بقية المناصب والدواوين . اما شحنة العراق « نيابة السلطان » وحماية بغداد فانه ولى عليهما قائدين من قواده وهما ايلجكتاي وقرا بوغا تورين ، وترك لهما ثلاثة آلاف جندي تتري. ثم سار هولاكو بجيوشه الكثيفة قاصداً فتح آسيا الصغرى وسورية، بعد ان مكث ببغداد اربعين يوماً ، يظهر للمتأمل في هذه الاحوال ان حكومة التتر الاولى كحكومات الاشغال العسكري الذي تجريه الدول الآن مع ان الدولة التي اسسها هولاكو لم تكن مستقلة تماماً بل كانت تحت سيادة الخان الاعظم وكانت تضرب السكة باسمه (٤) وقد سميت بالدولة الايلخانية نسبة الى لقب هولاكو « ايلخان » المعطى له من الخان

والتنفيذ لضعف الخلفاء وتلاعب المستبدين في مصالح الدولة ومناصبها ، على ان هذه الدولة منذ نشأتها حتى زوالها كانت مستبدة بالاعمال والاحكام ليس لرعاياها رأي في شيء من الامور الادارية والسياسية الا ما قل وندر . (٣) الرساتيق هي النواحي التي في طرف الاقاليم ويراد بها هنا الجهة الشرقية من بغداد . (٤) ولكنه لما تولى السلطنة ارغون خان اشرك اسمه مع الخان الاعظم ونال بذلك بعض الاستقلال حتى اذا ما تولى غازان بن ارغون المذكور رفع اسم الخان من السكة وضربها باسمه وابطل الاعتراف بسيادة خاقان التتر .

الاعظم منونككا خان . وكان من المقربين عند هولاكو نصير الدين الطوسي وهو الذي كان يكتب اليه الرسائل العربية التي يرسلها الى ملوك العرب وباشارته ألف حكومة بغداد .

وبعد مضي ثلاثة اشهر من تأليف حكومة بغداد توفي ابن العلقمي فولى هولاكو مكانه ابنه شرف الدين ابا القاسم علي بن مؤيد الدين بن العلقمي.

وعندما استوزر هولاكو شمس الدين محمد الجويني سنة ٦٦١ ه ولى على العراق علاء الدين عطاء الملك اخا الوزير الجديد فاحسن هذا الوالي السيرة والتدبير ونشر العدل والامن في بغداد وغيرها من المدن العراقية واهتم في اصلاح ما افسدته الفتن والحروب وحفر نهراً (١) من الفرات الى مشهد الامام علي « النجف » .

وتوفي هولاكو سنة ٦٦٣ ه في مراغة بعد ان امتدت دولته واصبحت تشتمل على ثمانية اقاليم : خراسان ، فارس ، اذربيجان ، خوزستان ، العراق العجمي « بلاد الجبل » ، العراق العربي ، اشوربة ، الاناضول « او بلاد الروم التي كان مركزها قونية » .

اباقا خان ابن هولاكو

٦٦٣ — ٦٨١ ه

عندما مات هولاكو في مراغة سنة ٦٦٣ ه بويع بالسلطنة لابنه اباقا

---

(١) بقي هذا النهر حيناً من الدهر ثم اهمل أمره وتراكمت فيه الرمال وسدت مجراه حتى اذا ما فتح الشاه اسماعيل الصفوي بغداد سنة ٩١٤ ه أمر بحفره فسمي بالنهر الشاهي . ثم قل ماؤه وكاد يعدم فكراه احد امراء الهند في لكنهور اسمه آصف الدولة عندما جاء العراق لزيارة مرقد الامام علي سنة ١٣٠٩ ه فسمي نهر الهندية .

«ابغا» فأقر والي العراق ببغداد علاء الدين عطاء الملك على منصبه واودع اليه السلطة العامة على جميع الموظفين .

ولما كان اباقا حسن السيرة خدم العلم وقلد امور الاوقاف والمدارس في بغداد والموصل نصير الدين واذن له بصرف واردات الاوقاف على المدارس فيما يحتاجه الاساتذة والتلامذة .

وفي ايامه حدثت فتنة ببغداد بين المسلمين والنصارى النساطرة آلت الى نقل مركز الجاثليق من بغداد الى اربل سنة ٦٦٨ ﻫ وتحرير خبرها هو ان نسطورياً كان قد اسلم قبل بضعة اعوام فقبض عليه جاثليق النساطرة « دنحا » وحبسه في داره اياماً فشاع انه يريد تغريق الرجل في دجلة فثار المسلمون وتجمهروا امام دار الحكومة وطلبوا من الوالي عطاء الملك اخذ الرجل من الجاثليق فلبى طلبهم وارسل الى الجاثليق يطلب ارسال الرجل اليه فامتنع الجاثليق من تسليمه واصر على ابقائه في داره فهجم الثائرون على دار الجاثليق واحرقوا بابها وتسلقوا الجدران فدخلوا الدار ولكنهم لم يجدوا فيها احداً لأن الجاثليق ومن معه انهزموا منها بمساعدة رجال الحكومة قبل ان يهجموا عليها ومنذ وقوع هذه الفتنة ذهب الجاثليق الى اربل واتخذها مركزاً له . ولم تنته الفتنة بين الامتين بخروج الجاثليق من بغداد بل عادت ثانية في السنة نفسها . وذلك ان جماعة من الاسماعيلية حاولوا قتل الوالي عطاء الملك فقبض عليهم وقتلهم فشاع في بغداد ان هؤلاء من النساطرة وقد ارسلهم الجاثليق من اربل

الى بغداد لقتل الوالي انتقاماً منه وان للاساقفة والمطارنة الذين في بغداد يد في هذه الحادثة فأمر الوالي بحبسهم وظلوا في الحبس اياماً ثم ثبتت لديه برائتهم فأمر باطلاقهم .

ولم يهنأ عطاء الملك بولاية العراق طويلاً حتى وشي عليه مجد الملك عند اباقا الملك واتهمه بمواصلة المصريين ومكاتبتهم سراً لمقاصد سياسية ضد الدولة فجاء اباقا الى بغداد سنة ٦٦٩ هـ قاصداً التنكيل بالوالي ولكنه لم يجد ما يثبت تلك التهمة عليه ومع ذلك امر بحبسه وضيق عليه حتى اضطر ان يفتدي نفسه بالمال فتعهد للسلطان اباقا بتسليم مبلغ كبير من الذهب لخزينة الدولة على شرط ان يطلقه ويعيده الى الولاية فقبل السلطان بهذا الشرط غير ان عطاء الملك عجز عن دفع ذلك المبلغ المعين دفعة واحدة فظل محبوساً ببغداد اشهراً ثم اطلق واعيد الى منصبه على شرط ان يسلم ما بقي عليه من المال اقساطاً .

وبعد ان مكث السلطان اباقا ببغداد شهوراً سافر الى همذان سنة ٦٨٠ هـ ومالبث ان عاد وطالب عطاء الملك بما بقي في ذمته من المال الذي تعهد به وارسل مجد الملك الى بغداد في السنة نفسها لاستيفاء ذلك المال وزوده بامر يخوله حق قبض المال او سجن الحاكم وارساله مخفوراً اليه . فلما وصل مجد الملك وعجز عطاء الملك عن دفع ما عليه صفقة واحدة قبض عليه وجرده من الثياب وامر ان يطاف به على تلك الحالة في شوارع بغداد واسواقها ثم ارسله مخفوراً الى اباقا في همذان وتولى هو الحكم على العراق واقام ببغداد

و بينما عطاء الملك يساق الى همذان اذ بالسلطان اباقا مات قبل وصوله وذلك سنة ٦٨١ هـ .

تكو داراغول او السلطان احمد بن هولاكو

٦٨١—٦٨٣هـ

توفى اباقا فبويع بالسلطنة لاخيه تكودار (تا كودار) بن هولاكو سنة ٦٨١ هـ فلما تم امره اسلم وسمى نفسه احمداً وكتب بذلك الى بغداد وغيرها من المدن التابعة لدولته . وعندما وصل ذلك النبأ الى بغداد اقيمت فيها الاعياد والافراح وزينت المدينة اثنى عشر يوما . وعلى اثر ذلك ارجع عطاء الملك على ولاية العراق ثم اصدر امراً بارجاع جميع الاوقاف والمدارس التي غصبها اسلافه منذ فتحوا العراق وباستثناء الكنائس والاديرة والقسوس والرهبان من دفع الجزية والتكاليف الاميرية فنفذ امره واحبته الرعية لحسن سيرته وتدبيره . ولحبه للسلم راسل الملوك في الصلح فتم له ذلك .

اما عطاء الملك فانه عندما وصل بغداد واستلم زمام الامور فيها قبض على مجد الملك وحبسه وعذبه عذابا اليماً وانتقم منه ثم هجم خدمه على مجد الملك وقتلوه وقطعوا اعضاءه ووزعوها على النواحي وعلقوا رأسه على جسر بغداد . ولم تطل ايام عطاء الملك بعد هذه الحادثة فتوفي في اواخر هذه السنة ببغداد « ٦٨١ هـ » ولما كانت سنة ٦٨٣ هـ ثار ارغون بن اباقا بن هولاكو على عمه السلطان احمد طمعاً بالملك وقامت بينهما الحروب

فانتصر اخيراً ارغون وتغلب على الملك ثم قتل احمد هذا وتم له الامر .

السلطان ارغون خان

٦٨٣ — ٦٩٠هـ

تولى السلطنة بعد السلطان احمد سنة ٦٨٣ هـ واول عمل قام به توديع ولاية العراق لاخيه بايدو اوغول وتعيين اروق « اخو الوزير بوقا » قائداً للجيوش العراقية ثم جعل طبيبه الخاص سعد اليهودي الموصلي مفتشاً على مالية العراق سنة ٦٨٥ هـ ولقبه سعد الدولة فاكثر هذا المقام في بغداد وولى اخاه فخر الدولة ناظراً عاماً على مزارع العراق وولى اكثر اقاربه اليهود في وظائف الحكومة ودواوينها في بغداد واخذ يوشي على قائد الجيوش العراقية واخيه الوزير بوقا حتى اثبت خيانتهما عند السلطان فاقامه مراقباً على واردات الدولة وخزائنها فاغتر هذا بمنصبه وطغى وتجبر حتى انه حبس الزين الحظائري ضامن التمغات ومجد الدين اسماعيل بن الياس سنة ٦٨٨ هـ واستوفى منهما المال الذي في ذمتهما للحكومة ثم أمر بقتلهما وقتل جماعة من موظفي الحكومة ببغداد منهم منصور بن علاء الدين صاحب الديوان . وقتل سنة ٦٨٩ هـ جمال الدين ابن الحلاوي ضامن تمغات بغداد وصلبه بباب النوبي بتهمة انه كتب ذماً في اليهود . وزاد تجبره وظلمه واستبد هو واقرباؤه بالاعمال حتى كرهه الناس ونقموا عليه فاتفق رجال الحكومة في بغداد مع جماعة من الوجوه على

الفتك به والتخلص من غروره وطيشه فقتلوه غيلة وثار المسلمون على اليهود وهجموا على محلاتهم فحدثت فتنة عظيمة بين الفريقين قتل فيها عدد كبير من الجانبين وذلك سنة ٦٩٠ ﻫ قبل وفاة السلطان ارغون خان .

ومن الحوادث التي وقعت في بغداد في عهد السلطان ارغون ان امير الجيش العراقي اروق امر سنة ٦٨٧ ﻫ ان تكون احكام الميراث وفقاً للمذهب الشافعي فاتفق موت رجل ليس له غير ابن عم فاراد ان يرث مورثه فانكر النواب نسبه ووضعوا ايديهم على تركة المتوفي فاستغاث الرجل بالعامة فثاروا بدعوى ان النواب غيروا التقسيم الشرعي وقصدوا النواب فاختفوا خوفا من القتل وتحصنوا في بيوتهم فنهبت العامة بعض الاسواق فكفهم الديوان عن ذلك وخرج النواب من بغداد قاصدين بلادهم فلقيهم الاكراد بالجبل وقتلوهم . ثم حدثت فتنة اخرى في ايامه ايضاً وذلك ان عز الدولة سعد بن منصور بن سعد الملقب بابن كمونة الفلسفي اليهودي كان قد الف كتابا سماه الابحاث عن الملل تعرض فيه بذكر النبوات فشاع خبره في بغداد فثار العوام في يوم الجمعة وهاجوا وماجوا وتجمهروا على دار هذا الفلسفي قاصدين قتله فركب تمسكاي شحنة العراق ومجد الدين ابن الاثير وجماعة من الحكام الى المدرسة المستنصرية واحضروا قاضي القضاة والمدرسين لتحقيق ماشاع وارسلوا في طلب الفلسفي فاختفى وتجمهر الثائرون على ابواب المستنصرية فركب

قاضي القضاة منها قاصداً الجامع لصلاة الجمعة فمنعه الثائرون حتى اضطروه الى الرجوع الى المدرسة فخرج ابن الاثير ليسكن الثائرين فاسمعوه اقبح الكلام ونسبوه الى التعصب لابن كمونة والدفاع عنه . وزاد الهياج فاضطر الشحنة الى استعمال الحيلة وامر فنودي ببغداد باجتماع الناس في الغد عند ظاهر السور لمشاهدة احراق ابن كمونة . فسكن الثائرون وعادوا الى اماكنهم فارسلت الحكومة المحلية ابن كمونة محمولاً في صندوق الى الحلة فاقام فيها حتى مات بعد قليل وكان ابنه كاتباً هناك قبل هذه الحادثة والظاهر انه اقام عند ولده بعد هذه النكبة . ولهذا الفلسفي عدة تأليف في الفلسفة وغيرها . ومات ارغون خان سنة ٦٩٠ وهو اول من ضرب في السكة اسمه مع اسم الخان الاعظم الذي كان هو واسلافه تحت سيـــادته .

السلطان كيخاتو خان

٦٩٠ — ٦٩٤ ﻫ

ولما مات السلطان ارغون سنة ٦٩٠ ﻫ تولى السلطنة بعده كيخاتو خان « كيخا خان » ويسمى ارناغين وكان هذا سيئ التدبير فسار سيرة ذميمة وانهمك على الملذات واللهو واسرف وابذر حتى انه اصبح من كثرة تبذيره في اشد الحاجة الى المال واضطر لبيع المناصب والولايات فقلدها لمن بذل له اموالاً كثيرة .ثم اضطر الى الغاء النقود المعدنية ثم اصدر

اوراقامالية سماها الشاو وجعلها انواعاً مختلفة منها ما هو بقيمة دينار واحد ومنها ماهو بقيمة خمسة دنانير ومنها بقيمة عشر دنانير ؛ ثم الدرهم الواحد ، وجعل كل نوع من هذه قطعة من ورقة موسومة بعلامة حمراء وعليها قيمتها ، وامر ان يسلم رعاياه ما عندهم من ذهب وفضة الى الخزينة ويستعيضوا عنها بتلك الاوراق ، وتهدد بالقتل من خالف ذلك الامر فضاق الامر بالناس وهاجر كثير من اهل البلاد الى اقطار بعيدة تخلصاً من ظلمه .

طغى كيخاتو وازداد ظلماً وتبذيراً حتى اضطربت امور مملكته وثار عليه بايدو خان (بيدو) احد رجال الاسرة المالكة والتف حوله الامراء وجهز جيشاً كبيراً من متطوعة التتر فحمل بهم على كيخاتو ودارت بينهما حروب شديدة فتغلب بايدو خان على العراق ثم استولى على الموصل واخيراً قتل كيخاتو في تبريز وتم له الامر سنة ٦٩٤ ﻫ .

بايدوخان بن طرغاي بن هولاكو

٦٩٤ — ٦٩٥ ﻫ

كان بايدوخان قبل ان يتبوأ عرش الملك قد ارسل بعض رجاله الى بغداد لقتل حاكمها محمد السكورجي فلما قتلوه سنة ٦٩٤ ﻫ ثار البغداديون وانتقضوا على الحكومة فسادت الفوضى في المدينة واختل نظامها حتى اذا ما تم الامر لبايدو خان ارسل احد رجاله المدعو توداجو بفرقة من

جنده وولاه العراق فدخل هذا بغداد وسكن الفتنة وصادر وجوه المدينة واخذ منهم اموالاً طائلة وبالغ في اضطهاد الاهلين فعزله بايدو خان وولى مكانه جمال الدين الدستجرواني .

ولما تولى جمال الدين ولاية العراق واستلم زمام الامور في بغداد ارسل اليه بايدو خان يأمره بالقبض على فخر الدولة اخي سعد الدولة اليهودي فاتفق جمال الدين مع النواب وشحنة بغداد وقبضوا على فخر الدولة وحبسوه ، وكان البغداديون وبالاخص المسلمون يكرهون فخر الدولة واخاه لظلمهم الناس واستبدادهم بالامور حتى آل ذلك الكره الى عداء اليهود فلما حبس فخر الدولة ثارت عامة المسلمين على اليهود ونهبوا دار فخر الدولة ودوراً كثيرة لليهود ودام النهب ثلاثة ايام حتى ركب جمال الدين في فرقة من الجنود وسكن الفتنة وحبس جماعة من زعمائها وقتل بعضهم . ولم يمض الا قليلاً حتى ثاروا مرة ثانية على اليهود ، وسبب ذلك ان بعض العامة اشاعوا ان الحكام قد اباحوا نهب اليهود فثارت العامة طمعاً بالمال ونهبوا دور اليهود ودكاكينهم واضطر الوالي الى الركوب في جماعة من الجند وسكن الفتنة .

ولم تطل ايام بايدو خان بسبب الحروب التي قامت بين امراء التتر وقتال بعضهم بعضاً طمعاً بالملك ومن جملتهم غازان (قازان) بن ارغون ابن اباقا والي خراسان فانه ثار على بايدو وقاتله حتى تغلب عليه وانتزع منه الملك سنة ٦٩٥ هـ ثم قتله .

السلطان غازان خان بن ارغون

٦٩٥ — ٧٠٣ هـ

عندما تغلب غازان علي بايدو وتولى السلطنة ترك النصرانية التي كان عليها اباؤه واسلم وتبعه في ذلك مئة الف جندي من جنوده كلهم اسلموا فانتشر بذلك الدين الاسلامي في التتر، ولكن هذا السلطان مع اسلامه كان كثير البغض لملوك المسلمين وكانت اكثر حروبه معهم واهمها حروبه مع سلاطين مصر.

وغازان هذا هو اول من ابطل الاعتراف بسيادة الخان الاعظم خاقان التتر فانه ترك نقش اسمه على السكة وابطل الاعتراف بسيادته بعد ان كانت دولتهم تحت سيادة ذلك الخان وكان اسلافه منذ قام هولاكو يضربون السكة باسم الخان ويعترفون بسيادته عليهم وان كانت ضعيفة.

ولقد اكثر السلطان غازان المقام في بغداد وبنى فيها سنة ٦٩٦ هـ دوراً لضيافة العلويين الذين ينزلونها وسماها دور السيادة وانفق عليها اموالاً طائلة واوقف عليها الاملاك والضياع. ومن اعماله الحسنة انه حفر سنة ٧٠٣ هـ ثلاثة انهر من الفرات احدها جره الى مدينة كربلا والثاني الى شرقيها والثالث الى مرقد السيد ابي الوفاء وأمر بزرع الاراضي التي على هذه الانهار فزرعت فكانت غلة مزارعها عظيمة جداً.

وأمر هذا السلطان بالزام النصارى واليهود بوضع العلائم تمييزاً لهم

من المسلمين ، فكانت علامة النصارى شد الزنار في اوساطهم وعلامة اليهود خرقة صفراء في عمائمهم غير ان ذلك لم يدم طويلاً بل ازيل بسبب طمع السفلة بهم . ومات هذا السلطان في الري سنة ٧٠٣ هـ .

السلطان محمد خان

٧٠٣ — ٧١٦ هـ

وخلف غازان أخوه الجايتق ويسمى نيقولاوس . تولى السلطنة سنة ٧٠٣ هـ وعند تبوئه عرش الملك اسلم واعلن اسلامه وتسمى بمحمد وتلقب غياث الدين وسمي محمد خدا بنده ومعنى خدا بنده عبد الله . وسماه بعضهم اولجايتي محمد خدا بنده .

تولى هذا في يوم كانت فيه دولة التتر الايلخانية قد انقسمت وتفرعت الى عدة فروع صغيرة ولم يكن نصيبه منها غير العراقين (العراق العجمي والعراق العربي) وخراسان ، أي ثلاثة اقطار فقط . وكان مقامه تارة في بغداد واخرى في مدينة السلطانية التي بناها بين قزوين وهمذان . واستوزر سعد بن الساوجي ثم عزله سنة ٧١٢ هـ واستوزر تاج الدين علي شاه ثم عزله واستوزر غياث الدين محمد بن خواجه رشيد . وهذا السلطان هو اول من جاهر بميله الى الشيعة وأمر بتخليد اسم الأئمة الاثنى عشر فنقشت اسماؤهم في السكة . ولم نقف على ما جرى في ايامه ببغداد .

السلطان ابو سعيد بهادر خان

٧١٦ — ٧٣٦ هـ

هو ابو سعيد بهادر خان بن السلطان محمد خدابنده تولى السلطنة بعد موت ابيه سنة ٧١٦ هـ ويسمى القاآن بهادرخان ايضاً . بويع له وهو صبي عمره ثلاثة عشر سنة فاستوزر وزير ابيه غياث الدين محمد بن خواجا رشيد ولصغر سنه استبد بالدولة الامير جوبان رئيس الجيوش حتى اصبح هو الحاكم المطلق وليس بيد هذا السلطان شيءٌ من الامر بل انه حجر على السلطان التصرفات ولم يبق له الا الاسم حتى اصبح محتاجاً الى المال .

استبد هذا الامير بمصالح الدولة وتصرف في اعمالها كيف شاء وولى اولاده المناصب الرفيعة والولايات منهم دمشق خواجا حاكم بغداد وظل على ذلك مدة حتى زحف اوزبك خان سلطان مملكة التتر الشمالية على خراسان واستولى عليها فخرج الامير جوبان بعساكر التتر من بغداد ومعه اولاده الامير حسن وطالش وجلوخان لقتال اوزبك خان فقاتله حتي اجلاه عن خراسان وهزمه شر هزيمة . وبينما الامير جوبان عازم على العودة الى بغداد بعد فوزه الباهر اذ بابنه دمشق خواجا حاكم بغداد قد اساء ادبه مع زوجة السلطان محمد والد السلطان ابي سعيد بهادرخان فدخلت هذه على ابي سعيد وقصت عليه ماهم به

دمشق خواجا وخاطبته بكلمات أثارت بها غضبه فاستشاط غضباً وغلبته الغيرة فامر الامراء والعساكر بالقبض على دمشق خواجا وقتله فقبضوا عليه وقتلوه وجاؤا برأسه الى ابي سعيد فامر بنهب داره وقتل من قاتل من خدمه ومماليكه. (يروي ان هذه الحادثة وقعت في مدينة السلطانية لافي بغداد) وبلغ ذلك الى الجوبان فاتفق مع من معه في خراسان من الامراء والجنود على قتال ابي سعيد فزحفوا الى بغداد . وخرج لقتالهم ابو سعيد بعساكر بغداد فالتقى الجمعان وبعد حروب انحازت عساكر التتر الى ابي سعيد وفر الجوبان الى هرات مستجيراً بملكها غياث الدين فاستقبله وامنه ثم غدر به وقتله وقتل معه ابنه الاصغر جلوخان وبعث برأسيهما الى ابي سعيد وذلك سنة ٧١٩ ﻫ وبقتل الجوبان صفا الجو لابي سعيد وانصرف الى تنظيم ادارة البلاد .

وبهذه المناسبة نذكر للقراء ما ذكره ابن بطوطة في رحلته عند ذكر الجهة الشرقية من بغداد بعد كلام طويل ما ملخصه : وكان السلطان الجليل ابو سعيد بهادر خان ملكاً فاضلاً كريماً ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب اجمل خلق الله صورة لانبات بعارضيه ووزيره اذ ذاك الامير غياث الدين محمد بن خواجا رشيد ، رأيتهما يوماً بحراقة في دجلة وتسمى عندهم الشبارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجه ابن الامير جوبان المتغلب على ابي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما اهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم انه تعرض له

جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فامر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجري عليه .

وقال (ابن بطوطة) في موضع آخر : ولبغداد جسران وفيها احد عشر مسجداً تقام فيها الجمعة منها ثمانية بالجانب الغربي وثلاثة بالجانب الشرقي عدا المساجد الصغيرة الكثيرة التي في الجانبين وكذلك المدارس المتروكة الخربة . وفيها من الحمامات البديعة عدد كثير ، وفي الجانب الغربي لم يبق غير ثلاث عشر محلة كل محلة كأنها مدينة وفيها جامع المنصور والمارستان على دجلة وقد خرب ولم يبق منه غير الآثار ، وفي الجهة الشرقية من بغداد اسواق عظيمة اعظمها سوق الثلاثا كان فيها كل صناعة على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية المشهورة وفي آخره المدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله ، وفيها من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة احدهم جامع الخلفاء (الذي بناه محمد المهدي وجدده الرشيد ثم من جاء بعده) وهو جامع كبير جداً تتصل فيه قصور الخلفاء ودورهم ، وبجانبه مقبرة الخلفاء ، والجامع الثاني جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان ، والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو ميل . اهـ

عندما انفرد ابو سعيد بالحكم ولى خاله علي بادشاه ولاية العراق

بغداد سنة ٧٢٠ هـ (١) وسار الى خراسان وهناك أصدر امراً في سنة ٧٢١هـ ارسله الى بغداد منع فيه الخمور على اختلاف انواعها وابطل الفواحش والمنكرات وختم على من خالف الامر اشد الجزاء .

فلما وصل ذلك الامر الى بغداد امر الوالي بكسر دنون الخمور وبغلق الحانات وبالنداء في شوارع المدينة واسواقها بما جاء في امر السلطان . وامر رجال الأمن من الجنود بالقبض على كل من خالف ذلك ، فحدثت من جراء ذلك فتن كثيرة ببغداد لأن الجنود لم يميزوا بهذا المنع بين المسلمين وغيرهم فاصاب النصارى واليهود اذى كثيراً بسبب شرب الخمور فكتب الوالي بذلك الى السلطان فاصدر امراً سنة ٧٣١ هـ بوضع العلائم على النصارى واليهود تمييزاً لهم من المسلمين لئلا يتوهم بهم اذا شربوا الخمر فيصيبهم اذى ، ولكن ذلك لم يغن شيئاً بل زاد اضطهاد هؤلاء الامتين حتى انهم هدموا بعض الكنائس والأديرة .

وتوفي ابو سعيد سنة ٧٣٦ هـ وكان عادلاً حسن السيرة والتدبير ، وفي عهده زاد الخلاف بين امراء التتر وتفرقت كلمتهم وانقسمت مملكتهم بينهم ، وتغلب على بعض البلاد العراقية الفراتية المماليك ملوك سورية ومصر ، واستولى العرب على البصرة والسماوة والكوفة وجميع البلاد التي

---

(١) علي بادشاه هو شيخ قبيلة من الاويرات كان قد نزل بقومه في اطراف بغداد فولاه السلطان ولاية العراق ببغداد .

على حافة البادية وحافة سواد العراق . وغلب على امره نساء قصره خصوصاً زوجته بنت الامير جوبان حتى اصبح ديوانه اذا اصدر امراً يكتب فيه : عن امر السلطان والخواتين .

ولما مات السلطان ابو سعيد بهادر خان ولم يخلف ولداً يرث الملك تنازع الامراء على المملكة وجرت بينهم حروب كثيرة دامت اعواماً وآلت الى انقراض هذه الدولة (الدولة الايلخانية) بعد ان دامت (٨٠) سنة من ٦٥٦ الى ٧٣٦ ﻫ وقام فيها تسعة ملوك اولهم هولاكو خان وآخرهم ابو سعيد بهادر خان .

ولم يكن حكم ملوك الدولة الايلخانية سائراً على وتيرة واحدة في ادارة البلاد بل كان يتغير من حين الى آخر فتارة يتولى العرش من هو محب للاصلاح ناشراً لواء العدل حسن السيرة فيزيل عن رعيته ثقل الضرائب ، واخرى يتولى الامر من هو شديد على رعاياه فيظلم ويضطهد ويجور ويثقل على عاتق الامة بزيادة الضرائب طمعاً بالاموال . ولقد كان منهم من يعطي المدن بالضمان بمبلغ معين من المال الى اجل مسمى ، ومنهم من كان يرسل الجباة في كل سنة الى المدن فيجمعون له المال ، ومنهم من استعمل الأمرين في آن واحد ، فمن الذين اعطوا المدن بالضمان هولاكو خان فانه اعطى مدينة اربل لبدر الدين لؤلؤ بسبعين الف دينار الى اجل معلوم ثم اعطاها لشرف الدين الجلالي ، وكذلك فعل كيخاتو خان في مدن اخرى ، وخلاصة القول ان هذه الدولة لم يكن لها نظام

خاص تسير عليه في ادارة المملكة بل كانت ادارة البلاد تابعة لارادة من يتولى كرسي السلطنة وما يوحيه اليه ضميره .

تمهيد

حينما توفي السلطان ابو سعيد عقيماً سنة ٧٣٦ ﻫ تولى السلطنة اربا غاوون (اربا خان) في خراسان فبلغ ذلك والي العراق ببغداد علي پادشاه فنادى بسلطنة موسى خان احد افراد الاسرة المالكة « من سلالة هولاكو » وجمع قومه الاويرات وغيرهم واستعد لقتال اربا غاوون ، وجهز الثاني جيوشاً ايضاً فالتقى الفريقان وبعد حروب انتصر علي پادشاه وفر اربا غاوون بحاشيته فلحقته جنود علي پادشاه وقتلوه بعد ان ملك ستة اشهر ، وعلى أثر ذلك نهض امير بلاد الروم في آسية الصغرى الشيخ حسن الجلائري منتصراً لرجل آخر من رجال العائلة المالكة وهو محمد خان فحدثت بينه وبين علي پادشاه وموسى خان معارك هائلة فاز في آخرها الشيخ حسن ووقع علي پادشاه قتيلاً وفر موسى خان الى بغداد وذلك في اواخر سنة ٧٣٦ ﻫ وكانت بغداد في قبضة الاويرات اصحاب موسى خان . ثم جمع موسى خان جموعه وسار لقتال الشيخ حسن وعادت المعارك بينهما بالقرب من مراغة فانكسرت جيوش موسى خان ووقع هو اسيراً في قبضة خصمه سنة ٧٣٧ ﻫ فامر بقتله ، ودامت الحروب بين الامرآء مدة فقتل محمد خان قتله الامير حسن بن جوبان بعد حرب جرت بينهما في سنة ٧٣٨ ﻫ واستقل باذربيجان ، وعلى أثر ذلك سار

الشيخ حسن الى العراق واستولى عليه في السنة نفسها واسس الدولة الجلائرية في هذا القطر .

والشيخ حسن هذا هو امير من امراء التتر وكان ابوه الامير حسين رئيساً على الرحل المبثوثين في بلاد خراسان وهو ابن اقبوغا « ييبقا » بن ايلكان ابن جلاير ، وقد سميت دولته بالدولة الجلائرية نسبة الى جدها جلائر المذكور .

الدولة المغولية التترية الجلائرية في بغداد

٧٣٨ — ٨١٤ هـ ١٣٣٨ — ١٤١١ م

الشيخ حسن الكبير

٧٣٨ — ٧٥٧ هـ

استولى الشيخ حسن الكبير على العراق سنة ٧٣٨ هـ كما تقدم فلما دخل بغداد اتخذها عاصمة له واعلن استقلاله بالعراق ثم ما لبث ان ولى ابنه اويس على بغداد وزحف بجموعه الى تبريز لقتال الامير حسن بن جوبان صاحب اذربيجان المستولي على تبريز فالتقى الفريقان بالقرب من تبريز وبعد معارك شديدة اندحرت جيوش الشيخ حسن فعاد الى بغداد مكتفياً بملك العراق سنة ٧٤٠ هـ فخضعت له الموصل ايضاً فتفرغ لاصلاح ما افسدته الفتن والحروب وجدد جامع الخلفاء وزينة وشيد مباني فخيمة في مدينتي النجف وكربلا وسار سيرة حسنة في رعيته وبث العدل

والامن في مملكته وجلب اليه قلوب القبائل العراقية بكرمه حتى اصبح محبوبا عند الجميع مطاعاً نافذ الكلمة الى ان توفي سنة ٧٥٧ هـ فحملت جثته الى مشهد الامام علي (النجف) .

السلطان اويس

٧٥٧ — ٧٧٦ هـ

تولى السلطان اويس السلطنة وجلس على عرش الملك ببغداد سنة ٧٥٧ هـ بعد موت ابيه الشيخ حسن الكبير وسار سيرة ابيه في احكامه وعدله وحسن سيرته واقتدى به في الطموح الى توسيع مملكته فزحف بجيوشه من بغداد سنة ٧٥٩ هـ قاصداً تبريز واذربيجان بعد ان ولى على بغداد نائباً عنه مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن فحدثت بينه وبين اخيجوق عامل الاشرف الجوباني و بين المظفر صاحب اصفهان حروب هائلة واخيراً ظفر باخيجوق وقتله سنة ٧٦١ هـ وافتتح تبريز وضمها الى ملكه ثم زحف على اذربيجان فخانه احد قواده فاضطر الى الرجوع الى بغداد ، فعلم بفشله نائبه ببغداد مرجان فتمرد عليه واعلن استقلاله في العراق وحصن بغداد وساعده على تحصينها مياه الغرق التي حدثت في تلك الايام حتى اصبحت بغداد محاطة بمياه دجلة من كل الجهات ، فلما بلغ ذلك السلطان اويس جد المسير بعسا كره ممتلأ حنقا وغضباً على مرجان فحاصر بغداد براً ونهراً وبذل همة وسعياً وحزماً وشجاعة حتى

تمكن من الانتصار على مرجان ودخل بغداد وقبض عليه ومزق جوعه ثم هم بقتل مرجان فشفع فيه اشراف بغداد وعلماؤها فعفى عنه واطلقه من السجن .

ومرجان هذا هو الخواجا مرجان باني المدرسة المرجانية ببغداد التي لازالت بقاياها قائمة حتى اليوم . بنى هذه المدرسة وجعل في وسطها مسجداً كبيراً وبنى لها مستشفا بباب الغربة (في محله اليوم مقهى دانيل المسماة بقهوة المصبغة) وبنى لها مطبخاً هواليوم مخزناً للتجارة ويسمى بخان الاورتمة. واوقف لها من الدكاكين والخانات والدور والضياع ما لايحصى عده وقد اغتصب المتنفذون من المستبدين اكثر هذه الاوقاف سيما ما كان منها خارج بغداد لاهمال الحكومات التي تلت الحكومة الجلائرية شؤون هذه المدرسه . وكان الشروع في بناء هذه المدرسة سنة ٧٥٨ ه .

وولى السلطان ولاية بغداد بعد مرجان سلطان شاه الخازن فلما توفي هذا سنة ٧٦٩ ه ارجع السلطان اويس مرجان الى هذا المنصب وبقي فيه الى ان مات سنة ٧٧٥ ه فولى السلطان مكانه الخواجا مسرور ومات هذا سنة ٧٧٦ ه مع من مات بالامراض الفتاكة المعدية التي نشأت من الغرق في السنة نفسها فولى السلطان هذا المنصب الامير وجيه الدين ابن الامير زكريا الوزير .

وتوفي السلطان اويس سنة ٧٧٦ ه وبموته انفصلت الموصل من هذا المملكة واستولى عليها بيرام خواجا من آل قره قيونلي ، كان هذا السلطان عادلاً محباً للعلم والعلماء محبة جعلت بغداد غاصة بالعلماء والادباء والشعراء.

السلطان حسين

٧٧٦ — ٧٨٤ هـ

عندما توفي السلطان اويس تنازع اولاده الملك (الحسين والحسن واسماعيل وعلي واحمد) وبعد نزاع وحروب استمرت شهوراً انتصر الحسين فبويع له بالسلطنة . ثم سافر من بغداد بجيوشه قاصداً تبريز سنة ٧٧٨ هـ وعلى أثر ذلك انتهز قواده الذين في بغداد فرصة غيابه ليستبدوا بالعراق فنادوا بسلطنة الشاه منصور بن محمد من آل قره قو يونلي (الخروف الاسود) واستقدموه الى بغداد فبلغ ذلك السلطان حسين وكان قد فتح له العراق العجمي احد قواده المدعو عادل اغا فسيره بجيش كبير لاسترجاع بغداد فزحف هذا القائد وانتصر على الشاه منصور وهزمه واسترد بغداد عنوة للسلطان وقتل زعماء ذلك الانقلاب وكتب بذلك الى السلطان فاصدر امره بتولية الامير اسماعيل على ولاية بغداد .

ولما كانت سنة ٧٨٠ هـ تآمر جماعة من وجوه بغداد واعيانها على الامير اسماعيل والي العراق واتفقوا على قتله بايعاز الشيخ علي بن السلطان اويس فقتلوه غدرا حين ذهابه الى الجامع للصلاة ونادوا بسلطنة الشيخ علي المذكور على العراق . وكان السلطان حسين حينذاك في تبريز . ولما بلغه ذلك خشي اتساع الخرق لما لعلي من نفوذ وقوة فاضطر ان يقره على العراق ريثما تسنح له الفرص وظلت بغداد في قبضة علي حتى دخلت

سنة ٧٨٢ هـ فزحف السلطان حسين بجيش جرار من تبريز قاصداً بغداد فلما اقترب منها رآى علي نفسه عاجزاً عن منازلته فانهزم بمن معه قاصداً ششتر .

فدخل السلطان حسين عاصمة العراق . ولم يمض الا قايلاً حتى ثار عليه اهل بغداد لسوء سيرته وظلمه وعظمت الفتنة حتى كادوا ان يقتلوه فانهزم ليلاً بحاشيته الى تبريز فنادى الثائرون بسلطنة الشيخ علي واستقدموه الى بغداد .

ولم تمض اشهر حتى جهز السلطان حسين جيشاً عرمرماً وارسله بقيادة اخيه احمد لقتال اخيهما الشيخ علي واخراجه من بغداد فخرج الأخير بجيوشه مدافعاً ولكنه انخذل ووقع قتيلاً في المعركة واسترجع احمد بغداد لاخيه السلطان حسين ومكث فيها نائباً عنه . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى طمع احمد بملك العراق والتف حوله الامراء والجنود وثار على اخيه السلطان حسين ولم يكتف بذلك بل انه جهز سنة ٧٨٤ هـ جيشاً كبيراً وسار به لقتال السلطان في تبريز وكان السلطان اذ ذاك مشغولاً باللهو والملذات غير ملتفت الى شؤون دولته ومايجري في بلاده ، ففاجئه احمد بجيوشه وقاتله حتى قتله واستولى على تبريز واستقل بالملك .

السلطان احمد

٧٨٤ — ٨١٣ هـ

بويع للسلطان احمد بالسلطنة بعد قتل السلطان حسين سنة ٧٨٤ هـ ولكنه لم يهنأ بالملك الا قليلاً فلاقى من الشدائد مالا يطاق حمله . ففي السنة التي تم فيها امره ثار عليه اخوه الصغير الامير بايزيد وانتصر له القائد عادل اغا فجرت بين الفريقين عدة معارك انكسر في آخرها السلطان احمد وانهزم مستجيراً بقره محمد التركماني والد قره يوسف فانجده بالعدد والعدد وعادت الحرب ثانية بينه وبين الامير بايزيد والقائد عادل اغا وانتهت بانهزام بايزيد وعادل واخيراً عقدوا هدنة الى اجل مسمى ، وعلى أثر ذلك ارسل البغداديون الى عادل اغا يطلبون منه ان يبعث اليهم حاكماً يتولى امرهم الى ان تنتهي الحروب فارسل اليهم طرسون ابن اخيه ، فلما استلم هذا ولاية بغداد قتل كل من تدخل بقتل الامير اسماعيل منهم عبدالملك الطمغجي واستعمل الشدة والعنف فثار البغداديون عليه واضطربت المدينة واختل نظامها فبلغ ذلك السلطان احمد فخرج من تبريز مسرعاً الى بغداد وعندما اقترب منها فر طرسون فلحقته جنود السلطان وقبضوا عليه واحضروه بين يديه فأمر بقتله ودخل بغداد واستقر أمره في العراق .

قضى السلطان احمد ببغداد شهوراً بعد هذه الحادثة ثم ولى عليها

الخواجا يحيي السمناني وعاد الى تبريز وذلك سنة ٧٨٥ ﻫ وعلى أثر ذلك توسط الشاه شجاع خان صاحب شيراز في الصلح بين السلطان احمد وبين الامير بايزيد وعادل اغا وارسل وفداً الى السطان عهد اليه اصلاح ذات البين بالحسنى فتم ذلك واستقدم السلطان اخاه بايزيد الى بغداد وانزله فيها مكرماً غاية الاكرام .

تيمورلنك والسلطان احمد الجلائري

ولد هذا الفاتح التتري المشهور في مدينة كش (كيش : قش) من مدن ماوراء النهر سنة ٧٣٦ ﻫ وكان ابوه رئيساً لقبيلة (بولاس) يلقب بلقب (هويان) ويحكم على مقاطعة كش فنشأ تيمور في كش ولما شب تولى بعض الاعمال ثم تولى زعامة قبيلته بعد موت ابيه ولما مات عمه سيف الملك سنة ٧٦٢ ﻫ بعد ان تولى امارة كش خلفاً لاخيه صارت الامارة لتيمور فحدثته نفسه بالفتح ففتح الامارات التي حوله الواحدة تلو الاخرى وانضم اليه كثير من قومه فقوى أمره وطمع بالملك فتغلب على السلطان محمود واستقل سنة ٧٧٠ ﻫ ثم سمى نفسه خاناً سنة ٧٧٢ ﻫ وقد سمي تيمورلنك بمعنى تيمور الاعرج لأن معنى لنك (الاعرج) سمي بذلك حينما جرح في احدى غزواته في فخذه فاصابه العرج ، وسماه الاتراك اقصاي تيمور ، والفرس تيمورلنك ، والغربيون تامهرلان ، ولم يكن هذا الفاتح المغولي التتري من الاسرة المالكة ابناء جنكيز بل ان نسبه يتصل بجنكيز من النساء وكان متزوجاً بأميرة من اسرة جنكيز

وهو من اكبر قادة الجيوش في الشرق ومن الفاتحين المشهورين بالقسوة والظلم وسفك الدماء ولكنه مع ذلك كان محباً للعلوم والفنون اسس عدة مدارس في مملكته وشيد عدداً من المكتبات وكان شديد التمسك بمذهب الشيعة ناصراً لاتباعه غير عالم بتنظيم الحكومات وسياسة البلاد ولذلك ذهبت فتوحاته ادراج الرياح بعد وفاته وتمزقت تلك المملكة العظيمة التي اسسها في مدة قصيرة وعادت البلاد الى اصحابها بعد زمن قصير .

بعد ان استولى تيمورلنك على جميع مدن ما وراء النهر وخوارزم استولى على شيراز ثم بلاد فارس بل لم تمض سبع سنوات حتى فتح جرجان وقازندران وسجستان وافغانستان وقارص واذربيجان وكردستان وخراسان .

ولما كانت سنة ٧٩٥ هـ ، ١٣٩٣ م حمل تيمورلنك التتري بجيوشه على السلطان احمد فانهزم من تبريز الى بغداد فاستولى تيمور على تبريز وششتر والسلطانية ثم استولى على اصبهان والعراق العجمي والري وفارس وكرمان بعد حروب هائلة ثم سار بجيوشه نحو العراق فتوغل في البلاد وقصد بغداد .

اما السلطان احمد فانه عندما ايقن بعدم قدرته على صد هذا الفاتح العظيم اضطر الى ترك بغداد والانسحاب منها بجيشه الذي كان نحو الفي مقاتل فخرج من بغداد بعساكره ليلاً وحمل ما قدر عليه من الاموال

والذخائر ونزل في سهل كربلا . فاستولى تيمور على بغداد في السنة نفسها « سنة ٧٩٥ هـ » وفتك باهلها فتكاً ذريعاً ثم ارسل جيوشه في اثر السلطان احمد فدارت بين الفريقين معركة شديدة في سهل كربلا انهزم في آخرها السلطان احمد الى مصر مستجيراً بسلطانها الملك الظاهر برقوق .

ولقد بالغ المؤرخون في الفضايع التي اجراها تيمورلنك في بغداد - كما بالغوا في اعمال هولاكو - وهي عادتهم - وقالوا انه جاء بفضايع لم يسمع بمثلها واستمرت جيوشه ثمانية ايام تقتل وتسفك وتنهب وانه بنى من رؤس القتلى من البغداديين مأذنة او مآذن وزعم بعضهم انه بنى هرماً من رؤس اولئك القتلى . حتى قال بعضهم انه قتل تسعين الفاً من اهل بغداد . وبعد ان استتب امر تيمورلنك في العراق سار من بغداد وترك فيها حامية ونواباً وذهب لفتح الهند سنة ٨٠٠ هـ وغزا قشمير ودهلي ثم عاد الى بلاده .

ولما اقترب السلطان احمد الجلائري من مصر خرج سلطانها الملك الظاهر برقوق الى لقائه ومشي الامراء في ركابه الى داخل المدينة وذلك سنة ٧٩٥ هـ ثم جهز له جيشاً كبيراً وخرج معه الى دمشق ثم الى حلب وسير معه العساكر الى بغداد فلما قرب منها السلطان احمد انضم اليه كثيرون من قبائل العراق فقوي امره فحاصر بغداد واضطرو اليها الامير مسعود السبزاوي نائب تيمورلنك الى الهزيمة لعدم قدرته على منازلة السلطان احمد فانهزم بحاشيته ودخلها السلطان احمد بدون حرب وقبض

على انصار الامير مسعود وقتلهم وذلك سنة ٧٩٧ ﻫ ولما استرد السلطان احمد بغداد وخضعت له البلاد العراقية دخل في طاعته اهل الموصل والجزيرة وخلعوا طاعة تيمورلنك فهدأت الاحوال وضرب هذا السلطان السكة باسم سلطان مصر الملك الظاهر برقوق وخطب له على المنابر اعترافا له بالسيادة الرسمية ، ثم ذهب الى ديار بكر واتفق مع صاحبها ملك اذربيجان قره يوسف التركماني وعقد معه معاهدة متينة وقعا عليها ومن جملة شروطها الاتفاق الحربي تجاه تيمورلنك وصده عن المملكتين. وبعد ان تم الاتفاق عاد السلطان احمد الى بغداد .

ولما بلغ تيمورلنك ما قام به السلطان احمد من استرجاع بغداد وضم الموصل والجزيرة الى مملكته والاتفاق مع قره يوسف والدخول تحت سيادة ملك مصر والخطبة له كر راجعاً الى العراق سنة ٨٠٣ ﻫ بعد ان فتح سورية وفتك باهل دمشق سنة ٨٠٣ ﻫ واعمل السيف في اهل حلب ، فلما سمع السلطان احمد بقدومه استناب مكانه نائباً الامير فرج وعهد اليه الدفاع عن بغداد وسار هو الى قره يوسف فاتفق الاثنان على ان يكونا تحت سيادة السلطان بايزيد خان العثماني لينقذهما من تيمورلنك ، فحمل تيمور على بغداد وحاصرها من كل الجهات فدافع اميرها فرج دفاع الابطال ودام القتال اربعين يوماً حوالي بغداد فلما اشتد الحصار قحطت بغداد واختلفت كلمة رجالها ووقع النزاع بينهم فهجم جيش تيمور هجمة شديدة فتسلقوا اسوار المدينة واضطر الامير فرج الى الهزيمة وانحدر

مع اهله في سفينة في دجلة قاصداً البصرة فلحقته جنود تيمور واغرقوه ومن معه واستولى تيمور على بغداد ثانية واعاد الفضائع فيها من قتل ونهب وتخريب . ثم ولى على العراق حفيده ميرزا ابي بكر بن ميران شاه واقامه في بغداد وسارهو عنها قاصداً آسيا الصغرى التي في قبضة السلطان بايزيد خان العثماني متخذاً التجاء السلطان احمد وقره يوسف اليه ذريعة للحرب فوصل في فتوحاته الى انقره وهناك حدثت بينه وبين السلطان العثماني معارك هائلة انكسر في آخرها السلطان العثماني ووقع اسيراً في قبضة تيمور سنة ٨٠٤ ه ومات في اسره سنة ٨٠٥ ه .

وبعد انكسار السلطان بايزيد خان انهزم السلطان احمد وقره يوسف وقصدا سلطان مصر الملك الناصر زين الدين فرج بن الملك الظاهر برقوق فلما وصلا دمشق قبض عليهما حاكمها بامر من الملك الناصر وحبسهما في قلعة المدينة وذلك سنة ٨٠٦ه .

فلما كانت سنة ٨٠٧ ه زحف تيمور لنك على بلاد الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٨ ه قبل ان ينظم مملكته الواسعة الاطراف الشاسعة الاكناف فعادت البلاد الى اهلها بعد موته وتمزقت تلك المملكة العظيمة بالحروب الداخلية .

عودة السلطان احمد الى بغداد

على اثر وفاة تيمور لنك سنة ٨٠٨ ه اطلق حاكم دمشق السجينين السلطان احمد الجلائري وقره يوسف التركماني فسار السلطان احمد الى العراق

واختفى في مدينة الحلة اياماً يدبر فيها امره ثم استنفر القبائل العراقية وشرع في جمع الجموع لاسترداد بغداد فالتف حوله خلق كثير ، ولما سمع البغداديون بقدومه ثاروا على حاكمهم الخواجا عتاق حتى اضطروه الى التجاء بقائد الجيوش العراقية في بغداد الميرزا عمر حفيد تيمورلنك فسادت الفوضى في المدينة ومن ثم حل السلطان احمد بجموعه على بغداد سنة ٨٠٨ ﻫ وحاصرها فدافع عنها الميرزا عمر والخواجا عتاق حتى عجزا عن الدفاع واضطرا الى الهزيمة فدخل السلطان احمد بغداد وهذه المرة الثالثة من دخولها تحت حكمه .

بعد ان استتب امر السلطان احمد في بغداد زحف في اواخر هذه السنة (سنة ٨٠٨ ﻫ) على تبريز لاسترجاعها من المتغلبين عليها من اعقاب تيمورلنك فانضمت اليه عشيرة الاويرات وطوائف من التركمان فجعل على مقدمته الامير الشيخ ابراهيم الشرواني وبعد ان حاصر تبريز اياماً استولى عليها عنوةً وارجعها الي مملكته ثم عاد الى بغداد وشرع في بناء اسوارها سنة ٨١٠ ﻫ وبنى على الاسوار الحصون والابراج وحفر لها الخنادق ولكنه جعل الاسوار اضيق نطاقاً من الاسوار القديمة لتقلص دور المدينة وخراب اكثرها بالفتن والحروب التي افنت اكثر سكانها .

واراد السلطان احمد استرجاع مدينة السلطانية سنة ٨١١ ﻫ فزحف عليها بجيوشه وحاصرها وبينما هو في ذلك ثار ابنه اويس في بغداد وحاول الخروج عليه والتف حوله خلق كثير من البغداديين

وتحزبوا له وانقسم اهل بغداد قسمين قسم له وقسم عليه فاضطر حزب السلطان احمد من الامراء والاعيان الى اقناع اويس بالحيل والمال حتى اسكتوه فسكنت الفتنة فبلغ ذلك السلطان احمد فترك السلطانية وعاد الى بغداد وقتل كل من تحزب لاويس (والظاهر انه قتل اويساً ايضاً) وجعل الامير بخشائش رئيساً على شحنة بغداد .

ولما كانت سنة ٨١٣ هـ حدثت بين السلطان احمد وقره يوسف وحشة آلت الى نشوب الحروب بينهما وبعد قتال استولى قره يوسف على تبريز عنوةً ثم وقع السلطان احمد اسيراً في معركة دارت بينهما قرب تبريز واضطر الى التنازل عن مملكته لشاه محمد بن قره يوسف وكتب بذلك عهداً على ان يطلق سراحه ولما تم ذلك قتل قره يوسف السلطان احمد غدراً في السنة نفسها « سنة ٨١٣ هـ » في جوار تبريز ولم يترك ولداً يرث الملك بعده فاضطربت بغداد فاجتمع كبراؤها وامراؤها ليملكوا عليهم احداً من الاسرة المالكة فلما لم يجدوا غير تندو سلطانة (او الاميرة تندي) اخت السلطان احمد وثلاثة صبيان اولاد اخته الاخرى وهم محمود ومحمد واويس اتفقوا على تمليك اكبر هؤلاء الصبيان وهو محمود فملكوه وجعلوا عبد الرحيم الملاح وصياً عليه يحكم باسمه حتى يبلغ الرشد ، فسار الوصي احسن سيرة في اهل بغداد ولكنه قتل بعد بضعة اشهر وانقرضت دولة الجلائريين من بغداد سنة ٨١٤ هـ

وقامت مقامها دولة الخروف الاسود (قرهقويونلي) . بعد ان ملكت الدولة الجلائرية في بغداد ٧٦ سنة من سنة ٧٣٨ الى سنة ٨١٤ ﻫ مع ايام تيمورلنك وقام فيها خمسة ملوك الشيخ حسن الكبير والسلطان اويس والسلطان حسين والسلطان احمد ومحمود .

الدولة المغولية التركمانية الاولى في بغداد
أو
دولة الخروف الاسود (قره قويونلية)

٨١٤ — ٨٧٤ ﻫ ١٤١١ —١٤٦٨م

هذه السلالة (القرهقويونلية) قبيلة من التركمان المغول كانت تسكن قديماً في تركستان ثم نزلت اذربيجان في ايام ارغون خان « ٦٨٣ — ٦٩٠ ﻫ » ومنها رحلوا الى ارزنجان وسيواس وهناك قوي امرهم ثم ملك رئيسهم بيرم خواجا الموصل وسنجار بعد السلطان اويس الجلائري . وخلفه محمد ثم ابنه قرهيوسف فوسع ملكه واسس هذه الدولة .

وبعد ان عظم شأن قرهيوسف طمع في البلاد وجهز الجيوش وقاتل ميران شاه بن تيمورلنك حتى قتله قرب تبريز سنة ٨٠٩ ﻫ ثم حمل على السلطان احمد الجلائري واخذ منه تبريز وظل يقاتله حتى اخذه اسيراً سنة ٨١٣ ﻫ وبعد ان اضطره الى ان يتنازل عن مملكته لابنه شاه محمد كما تقدم قتله غدراً وتم له الامر في اذربيجان وقزوين والموصل وسنجار

وغيرهـا واصبحت مملكته واسعة الاطراف . وسميت دولته بدولة الخروف الاسود (قره‌قويونلية) لأن ملوكها كانوا يرسمون على اعلامهم خروفاً اسوداً .

ولما قتل قره‌يوسف السلطان احمد الجلائري ارسل ابنه محمداً الى العراق للاستيلاء على بغداد فزحف شاه محمد بجيش كبير حتى عسكر قرب بغداد فاستعد لقتاله الامير عبدالرحيم الملاح الوصي عن محمود فثار عليه في بغداد جماعة الامير بخشائش الذي كان رئيساً على شحنة بغداد في عهد السلطان احمد وقاموا عليه قومة واحدة فقتلوه واضطربت المدينة وسادت فيها الفوضى فهربت منها الاميرة تندو سلطانة مع اولاد اختها الثلاثة محمود ومحمد واويس وسارت الى ششتر فاستولى شاه محمد بن قره يوسف على بغداد بغير قتال سنة ٨١٤ هـ وانقرضت الدولة الجلائرية وقامت على انقاضها الدولة المغولية التركمانية المعروفة بدولة الخروف الاسود .

وعندما استتب امر شاه محمد بن قره يوسف في بغداد ارسل من اخضع له بقية البلاد العراقية وظل سلطانه في العراق وحده حتى مات ابوه قره يوسف سنة ٨٣٣ هـ في نواحي الموصل فصارت بلاد ابيه كلها اليه .

ولما كانت سنة ٨٣٦ هـ ثار الامير اسپان بن قره يوسف على اخيه شاه محمد وحمل عليه بجيوش كثيفة حتى اضطره الى الهزيمة من بغداد الى الموصل ودخل هو بغداد ظافراً . وحاول شاه محمد استرداد بغداد واستنفر

جيشاً في الموصل للزحف عليها ولكنه قتل غدراً وصفى الجو في العراق للامير اسپان وبقي مقيماً ببغداد الى ان مات بها سنة ٨٣٨ ﻫ .

وبقتل شاه محمد صار الملك لاخيه الامير اسكندر (عدا العراق) فاتفق معاخيه الآخر جهان شاه او جهانكير شاه على قتال شاه رخ بن تيمورلنك فحارباه اياماً وبعدمعارك انهزما بالفشل والخسران ، ثمحدثت بينهما وحشة فمال جهان شاه الى شاه رخ وانضم اليه مع جماعة من الامراء وانتقضوا على الامير اسكندر ونبذوا طاعته واتفقوا على قتاله وساعدهم على ذلك شاه رخ ثم حمل جهان شاه على الامير اسكندر وتمكن من قتله غدراً سنة ٨٤١ ﻫ وملك اذربيجان وديار بكر واستقل فيهما تحت سيادة شاه رخ بن تيمورلنك .

بقي جهان شاه على اذربيجان وديار بكر حتى مات شاه رخ فاستقل تماماً وقوي امره واستولى على فارس وكرمان سنة ٨٥٠ ﻫ ثم حمل على العراق في السنة نفسها (وقيل سنة ٨٤٩ ﻫ) وحاصر بغداد ستة اشهر وعليها يومئذ حاكماً شيخي بك (١) واخيراً استولى عليها وصارت له اذربيجان وديار بكر وفارس وكرمان والعراق . وبعد ان مكث ببغداد اياماً ولى عليها ابنه حسن علي مرزا وسار منها عائداً الى مقره .

ظل حسن علي مرزا حاكماً على العراق مقيماً ببغداد نيابة عن ابيه

---

(١) لم نقف على ترجمة هذا الحاكم ولا نعلم الذي ولاه على بغداد ، ومن المحتمل ان الامير اسكندر كان قد ولاه بعد موت الامير اسبان .

جهان شاه الى سنة ٨٦١ ﻫ فطمع بالعراق وانتقض على ابيه ولم يكفه ذلك حتى زحف على تبريز وتغلب عليها فاضطر ابوه الى قتاله فقاتله ثم قبض عليه وحبسه وارسل ابنه الآخر پير بودق حاكماً على بغداد .

ولما كانت سنة ٨٦٨ﻫ طمع پير بودق بالملك واعلن استقلاله في العراق واضطر جهان شاه الى الزحف عليه فسار بجيوشه الى بغداد وحاصرها سنة ٨٦٩ ﻫ فدافع پير بودق عنها دفاع الابطال وظل الحصار مدة سنة ونصف حتى عجز عن الدفاع پير بودق واستولى جهانكير شاه على المدينة وقبض على ابنه پير بودق وقتله وذلك سنة ٨٧٠ ﻫ ثم ولى على بغداد الوندبك وفوض اليه امور العراق كله .

لم تمض على هذه الحادثة سنة حتى قامت الحرب على ساق وقدم بين جهانكير شاه وبين حسن الطويل صاحب ديار بكر مؤسس دولة الخروف الابيض (آق قو يونلي) واستمرت بينهما الحروب سنتين سنة ٨٧١ وسنة ٨٧٢ ﻫ وانتهت باستيلاء حسن الطويل (اوزون حسن) على قسم من بلاد جهانكير شاه .

وتولى بعد جهانكير شاه ابنه حسن على الذي كان مسجونا منذ ثار على ابيه ولم يكن له من البلاد غير العراق العجمي والعراق العربي الذي ابقى عليه الوندبك في بغداد . ولما لم يكن هذا يملك العراقين الا قليلاً فحمل عليه حسن الطويل سنة ٨٧٤ ﻫ وقاتله حتى اخذ منه هذين القطرين وقرض دولة الخروف الاسود (قره قويونلي) واسس فيهما دولة الخروف الابيض (آق قويونلي) .

ولم يملك العراق العربي من دولة الخروف الاسود التركمانية غير اربعة ملوك ، شاه محمد بن قره يوسف ، واسكندر ، وجها نكير شاه ، وحسن على مرزا ، ودام ملك هؤلاء في هذا القطر ستين سنة من سنة ٨١٤ الى سنة ٨٧٤ هـ .

الدولة المغولية التركمانية الثانية في بغداد
او
دولة الخروف الابيض (آق قويونلية)

٨٧٤ — ٩١٤ هـ

قامت هذه الدولة في العراق على انقاض دولة الخروف الاسود (قره قويونلي) وهي مثلها طائفة من التركمان كانت تسكن قديماً في تركستان فنزحت منها الى اذربيجان في عهد ارغون خان مع اختها المنقرضة ثم هاجرت الى نواحي ديار بكر والموصل واستولت على عدة قرى هناك فقوي امرها شيئاً فشيئاً حتى استقل زعيمها علاء الدين طور علي بك في ديار بكر والموصل وما يليهما ولما مات خلفه ابنه فخر الدين قطلي بك وتولى بعده قره عثمان وخلفه ابنه حمزه بك ثم تولى جهانكير ابن علي بك سنة ٨٤٨ هـ .

ولما كانت سنة ٨٦٩ هـ ظهر في هذه السلالة الامير حسن بك او حسن الطويل (اوزون حسن) الملقب بابي النصر وهو ابن علي بك

بن قره عثمان فتغلب على ديار بكر والموصل ثم حمل على حسن علي مرزا ابن جهانكير شاه آخر ملوك دولة الخروف الاسود وقهره سنة ٨٧٤ هـ واخذ منه العراق العربي والعراق العجمي عنوةً كما تقدم واسس في بغداد دولة الخروف الابيض ،وقد سميت بهذا الاسم لانها كانت ترسم على اعلامها خروفا ابيضاً .

عندما حمل حسن الطويل على حسن علي مرزا سنة ٨٧٤ هـ وارسل جيشاً لفتح بغداد استعد للدفاع عنها حاكمها الوند بك والتقى بجيش حسن الطويل على مقربة من بغداد فقاتله حتى دحره بعد معركة عنيفة وكاد يفوز بالنصر النهائي غير ان حسن الطويل ادرك جيشه المخذول وحمل بجيش جرار على بغداد فعادت الحرب وحمي وطيسها فانجلت عن اندحار جيش الوند بك ووقوعه قتيلاً في المعركة وسقوط بغداد بيد حسن الطويل .

وبعد ان استتب امر حسن الطويل ببغداد وغيرها من المدن العراقية ولى على بغداد ابنه مرزا مقصود بك وسار هو لفتح العراق العجمي فقرض دولة الخروف الاسود ثم ملك بلاد فارس وكرمان وغيرها واتخذ تبريز عاصمة له واصبحت مملكته واسعة الاطراف .

وتولى بعد وفاة حسن الطويل سنة ٨٨٣ هـ ابنه مرزا خليل بك فابقى اخاه مقصود بك على العراق مقيماً في بغداد ولكنه بعد قليل عاداه وحمل عليه وحاصر بغداد حتى تمكن من دخولها والقبض على مقصود

وقتله ، وعلى اثر ذلك اضطربت بغداد و كثرت فيها الفتن وسادت الفوضى في انحاء العراق .

وعلى اثر ذلك ثار على مرزا خليل بك عمه مراد بك واستولى على العراق وحدثت بينهما عدة معارك وفي اثنائها ثار عليه اخوه يعقوب بك بن حسن الطويل والي ديار بكر وحمل على تبريز فاضطر خليل مرزا بك الى ترك العراق وسار لقتال يعقوب بك فوقع خليل مرزا بك قتيلاً في المعركة قرب تبريز سنة ٨٨٤ هـ وتولى الملك اخوه يعقوب بك بن حسن الطويل ولما مات يعقوب بك سنة ٨٩٦ هـ وقع النزاع بين الامراء فبايع بعضهم مسيح بك وبايع غيرهم باي سنقر فاشتد الخلاف وقامت الحروب بين الفريقين ولم تنته الفتنة الا بقتل مسيح بك وتمليك باي سنقر ، وعلى اثر ذلك ثار محمود بك ابن اوغرلو محمد ابن عم مسيح بك وسار الى العراق بجموعه وكان على بغداد والياً شاه على بير ناك كان قد ولاه مسيح بك فساعد محمود بك وسلم اليه حكومة بغداد فاعلن استقلاله بها . فحمل باي سنقر على بغداد وحدثت بين الفريقين عدة معارك انتهت بقتل محمود بك وشاه على بير ناك فدخل باي سنقر بغداد ثم سار عنها بعد ان هدأت الاحوال وولى عليها حاكماً احد اصحابه .

ولم يهنأ باي سنقر بالملك حتى ثار عليه رستم مرزا بن مقصود بك احد اولاد عمه وقامت بينهما الحروب وانتهت بقتل باي سنقر وتمليك رستم مرزا بن مقصود بك سنة ٨٩٨ هـ ولم تنته الفتن بين رجال الاسرة

المالكة بل انها استمرت فقتل رستم مرزا سنة ٩٠٤ هـ وتولى الملك ابن عمه احمد خان بن محمد بن حسن الطويل وكان هذا قد التجأ بالسلطان بايزيد الثاني العثماني منذ اعوام ومكث عنده مكرماً ثم اغتنم فرصة الحروب والفتن وجمع الجموع بمساعدة السلطان العثماني وانضم اليه جماعة من امراء اذربيجان والعراق فحمل بجيش جرار على رستم مرزا وبعد معارك هائلة قتل رستم مرزا وتم الامر لاحمد خان ولكنه لم يهنأ بالملك غير ستة اشهر فقتل سنة ٩٠٤ هـ وتولى الملك بعده مراد بك بن يعقوب مرزا .

عندما تم الامر لمراد بك بن يعقوب مرزا ثار عليه ابن عمه محمد مرزا ابن يوسف بن حسن الطويل وبعد حروب تغلب محمد مرزا على الملك فحسده اخوه الوند بك وقاتله حتى اخذ منه اذربيجان واضطره الى الفرار ملتجأً باصبهان ، ولم تنته الحروب بين الاسرة المالكة بعد هذه الحادثة بل عاد على أثرها مراد بك بن يعقوب مرزا بعد ان قوي امره في شيراز بعد تلك النكبة وحمل بجيش جرار على محمد مرزا وقاتله في اصبهان حتى تمكن من القبض عليه ثم سار لقتال الوند بك في تبريز وبعد عدة معارك تصالحا على ان تكون دياربكر واذربيجان واران الى الوند بك ويكون العراقين (العراق العجمي والعراق العربي) وبلاد فارس الى مراد بك وذلك سنة ٩٠٥ هـ .

ولما تم الامر لمراد بك او السلطان مراد سنة ٩٠٥ هـ استناب عنه

نائباً في بغداد فوض اليه شؤن البلاد العراقية (قيل اسمه بارك) ولكنه لم يكد يستريح حتى ظهر الشاه اسماعيل الصفوي وحمل على مملكته وتغلب عليه كما سنذكره

قيام الدولة الصفوية

تمهيد — اسس الدولة الصفوية الشاه اسماعيل بن حيدر بن جنيد بن الشيخ صفي الدين الاردبيلي الصوفي وسميت بهذا الاسم نسبة الى صفي الدين المذكور ، وليس لهذا البيت قرابة مع احدى العائلات المالكة في ايران ولا في غيرها ولا كانت تعرف هذه السلالة بغير رئاسة التصوف بادئ بدء ثم قوي امرها على عهد جنيد وكثر اتباعها واشتهرت وظل ابناؤها يتدرجون في الزعامة على اتباعهم شيئاً فشيئاً حتى عظم شأن حيدر بن جنيد ولما مات نهض ابنه اسماعل وجمع الجموع وكان حازماً عالي الهمة فعظمت شوكته وقوي امره فطمع بالملك وحمل على اذربيجان سنة ٩٠٥ ﻫ واستولى عليها ثم على شيروان سنة ٩٠٦ ﻫ ثم ما وراء النهر فبلاد فارس فخراسان فالعراق العجمي فكردستان فديار بكر ثم حمل على العراق العربي قاصداً بغداد سنة ٩١٤ ﻫ وهو اول ملوك الدولة الصفوية واول ملوك فارس الذين تلقبوا بالشاهات (اي السلاطين) .

الدولة الصفوية في بغداد

الدورة الاولى

٩١٤ — ٩٣٠ ﻫ

بعد ان فتح الشاه اسماعيل الصفوي العراق العجمي وتغلب على مراد بك آخر ملوك دولة الخروف الابيض التركمانية حمل على العراق العربي وارسل في مقدمته احد قواده المدعو لالا حسين فحاصر بغداد وانتصر على حاميتها واحتلها عنوة سنة ٩١٤ ﻫ وعلى اثر ذلك توجه الشاه اسماعيل الى بغداد ودخلها وفتك باهلها ثم سار عنها واستناب عنه نائباً فيها ترك له قسماً من جنوده لحماية المدينة .

اما مراد بك فانه فر مستجيراً بالملوك والامراء فامدوه بالجنود والمال فالف جيشاً كبيراً وسار به نحو بغداد وتمكن من استرجاعها وكان الشاه اسماعيل اذ ذاك مشغولاً في حروب خراسان فلما انتهى منها عاد الى بغداد بجيش عرمرم وقاتل مراد بك حتى قهره وطرده واستولى على بغداد عنوةً وقرض دولة الخروف الابيض التركمانية من العراق بعد ان ملكته نحو الاربعين سنة من سنة ٨٧٤ الى سنة ٩١٤ ﻫ واولهم الامير حسن بك المعروف بحسن الطويل (اوزون حسن) وآخرهم مراد بك او السلطان مراد .

عند ما دخل الشاه اسماعيل بغداد ثانية اعاد القتل واعمل السيف

برجال السنة والنصارى وفتك بهم واضطهد من بقي منهم ولم يمس اليهود بسوء لانهم خدموه وقدموا اليه الهدايا والتحف وتجسسوا له قبل دخوله بغداد وبعده . وغالى في الانتصار لمذهب الشيعة واتباعه واعلن المذهب الشيعي رسماً في مملكته وبالغ في اضطهاد السنة حتى انه اجبر كثيرين من اهل السنة على التشيع . ثم سار من بغداد عائداً الى مقره وولى عليها ابراهيم خان ، ولقد بالغ المؤرخون في الاعمال التى اجراها الشاه اسماعيل في بغداد من القتل والتخريب مما لا يقبله العقل السليم وتلك هى عادتهم مع كل فاتح حتى انهم ضيعوا الحقائق التاريخية خدمة لاغراضهم السياسية .

الدولة الكردية في بغداد

٩٣٠ — ٩٣٦ هـ

على اثر موت الشاه اسماعيل الصفوي بفارس سنة ٩٣٠هـ وجلوس ابنه طهماسب الاول مكانه تغلب على بغداد الامير ذو الفقار رئيس قبيلة موصلو من عشيرة كلهور (كلهر) الكردية بمساعدة عشيرة كلهور وكان قبل ذلك مستولياً على اطراف لورستان . فاحسن هذا السيرة في اهل بغداد وجلب اليه قلوبهم حتى قوي امره واستولى على اكثر المدن العراقية ثم اعلن استقلاله بالعراق سنة ٩٣٠ هـ . وخاف من غارات الدولة الصفوية فاحتمى بالسلطان سليمان القانوني العثماني وخطب له على المنابر

سنة ٩٣٢ ﻫ ثم ارسل اليه وفداً لعرض خضوعه والدخول تحت سيادته سنة ٩٣٢ ﻫ ثم ضرب السكة باسمه سنة ٩٣٣ ﻫ وتحكمت عرى المحبة بينهما . غيران هذه الدولة لم تدم طويلاً لبعد العثمانيين عنها وقربها من الصفويين او الفرس فلم تدم الا نحو ست سنوات .

الدولة الصفوية في بغداد

الدورة الثانية

٩٣٦ — ٩٤١ ﻫ

دخلت سنة ٩٣٦ ﻫ فحمل الشاه طهماسب الاول على بغداد واستعد له ذو الفقار وحصن المدينة فحاصرها الشاه طهماسب اياماً حتى عجز عن استردادها عنوةً فاضطر الى استعمال الحيل والخداع فتمكن من اغراء اخوي ذي الفقار واطمعهما بالمناصب والاموال حتى انخدعا واغتالا اخاهما ذى الفقار وقتلاه (وقيل مات مسموماً) وفتحا ابواب بغداد وسلموها للشاه طهماسب الاول فدخلها بالامان سنة ٩٣٦ ﻫ وانقرضت الدولة الكردية من بغداد .(١)

---

(١) عشيرة كلهور منزلها منذ قرون حتى اليوم في حدود ايران في الجبال القريبة من خانقين . ويسمى العامة محلها جبل حسين قلي خان اشتهر بهذا الاسم عندهم منذ اشتهر رئيس هذه العشيرة حسين قلي خان بالغارات والتمرد على الدولة الايرانية والدولة العثمانية في اوئل القرن الرابع عشر للهجرة وهذه العشيرة خشنة الطباع بعيدة من الحضارة حتى اليوم .

وبعد ان استولى الشاه طهماسب الاول على بغداد وقرض الدولة الكلهورية الكردية سنة ٩٣٦ ه بالغ في اضطهاد السنة من اهل بغداد وفتك بهم ثم ولى على بغداد بكلو محمد خان وفوض اليه شؤون البلاد العراقية وسار هو الى مقره .

ولما زاد اضطهاد الفرس للسنة اضطر كبراء السنة الى مراسلة العثمانيين سراً وانفذوا اليهم من اخبرهم بظلم الفرس وقسوتهم واضطهادهم وشكوا اليهم ماحل بهم مما ولد الضغينة في قلوب آل عثمان حتى صمموا على الانتقام من الفرس انتصاراً لابناء مذهبهم فحمل السلطان سليمان القانوني على العراق وطرد الفرس منه وسيأتي ذكر ذلك .

الدولة التركية العثمانية في بغداد

الدورة الاولى

٩٤١ — ١٠٣٢ ه

دخلت سنة ٩٤٠ ه الموافقة لسنة ١٥٣٥ م فعزم السلطان سليمان القانوني على انقاذ البلاد العراقية من الفرس وارسل ابراهيم باشا الصدر الاعظم والقائد العام بجيش كبير لقتال طهماسب الاول وسار هو في اثره من الاستانة فدخل ابراهيم باشا تبريز بالامان ثم سار منها الى بغداد ولما اقترب منها هرب حاكمها الفارسي بكلو محمد خان بجيوشه خوفاً من الاسر فسلمت المدينة وفتحت ابوابها للقائد العثماني فدخلها بسلام في ٢٤ جمادي الثاني

سنة ٩٤١ هـ اما السلطان سليمان فكان قد دخل تبريز ثم سار منها الى بغداد فدخلها باستقبال عظيم وأمر الجيوش ان تخيم في البادية في ربض الاعظمية وان لايجوزوا اسوار بغداد أو يؤذوا احداً من اهل المدينة .

واقام السلطان سليمان القانوني اربعة اشهر في بغداد طاف في اثنائها انحاء العراق وزار النجف وكربلا وغيرهما وأمر بحفر نهر الحسينية الموجود اليوم وبتحصين سور بغداد وبيناء قبة ومأذنة على مرقد الامام ابي حنيفة ومثل ذلك على مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني واوقف لهذين المرقدين املاكاً كثيرة واتم بناء الجامع الذي انشأه الشاه اسماعيل الصفوي في الكاظمية (المعروف اليوم بجامع السنة) ثم رتب الادارة الداخلية والحكام وولى على ايالة بغداد وزيره سليمان باشا المجري وهو اول والٍ تركي حكم العراق ، وترك له الفين جندياً تركياً وعاد هو الى مقره على طريق تبريز ومنها سار الى الاستانة ، وقد اظهر من العدل والاحسان والحكمة والتساهل ماجعل له في قلوب العراقيين اسمى منزلة .

ولما استلم الوزير سليمان باشا ايالة العراق سار سيرة حسنة والحق ببغداد بحزمه وحسن تدبيره سائر البلاد العراقية (عدا البصرة) وجعلها مركز الامارة مسيطرة على الموصل وما يليها والحلة والنجف وكربلا وغيرها من المدن العراقية .

وبقيت بغداد مركز الايالة العراقية (امـارة العراق) يأتيها الوزير تلو الوزير من قبل سلاطين ال عثمان ويكون هو الحاكم المطلق

على هذا القطر حتى اذاما تولى الامارة الوزير حسن باشا المعروف عند الاتراك باسم دلي حسن (حسن المجنون) انتقض على الدولة العثمانية سنة ١٠٠٨ هـ واعلن استقلاله ببغداد .

انتقاض الوزير حسن باشا

اغتنم امير العراق الوزير حسن باشا فرصة اضطراب الدولة العثمانية فاتفق مع اخيه قره يازيجي على الخروج عن طاعة آل عثمان والتغلب على بلادها واتحدا على ذلك فتغلب قره يازيجي على قرمان واستقل بها واعلن حسن باشا استقلاله بالعراق سنة ١٠٠٨ هـ ثم حمل بجنوده على شهر زور وتغلب عليها ثم على الموصل وديار بكر سنة ١٠٠٩ هـ فقوي امره وعظمت شوكته فارسلت الدولة العثمانية جيشاً كبيراً بقيادة الوزير صقالي حسن باشا لاخضاع الاخوين فانتصرت الجنود العثمانية على قره يازيجي وقتل بعد عدة معارك .

وبعد ان تم انتصار صقالي حسن باشا على قره يازيجي التقى بحسن باشا ودارت بينهما حروب عنيفة انجلت بفوز حسن باشا وقتل صقالي حسن باشا على اسوار مدينة توقات فاستنجدت الحكومة بولاة ديار بكر وحلب ودمشق وغيرها فهزمهم حسن باشا حتى حاصر مدينة كوتاهية فخافت الحكومة على نفسها واصبح هذا الوزير يهددها بالتغلب على مملكتها كلها فاضطرت بعد ان عجزت عن اخضاعه بالقوة الى استعمال طرق السلم معه

والتودد اليه فاجزلت له العطايا والهبات وارسلت اليه الوفود حتى تمكنت من استرضائه بولاية بوسنه فاعلن اخلاصه لها وسار بجيوشه الى ولايته الجديدة وذلك في عهد السلطان محمد خان الثالث سنة ١٠١٢ هـ

انتقاض محمد بن احمد الطويل

بعد ان اخضعت الدولة العثمانية حسن باشا سلماً وانقذت العراق منه كما تقدم انتقض عليها محمد بن احمد الطويل احد امراء الجيوش العراقية (١) واعلن استقلاله ببغداد سنة ١٠١٥ هـ فجهزت له الدولة جيشاً ارسلته بقيادة نصوح باشا وجهت اليه ايالة بغداد فسار هذا القائد من الاستانة حتى وصل الرقة عند الفرات وهناك انضم اليه بعض رؤساء القبائل فسار بهم حتى وصل الموصل وبعد ان اكمل المهمات الحربية زحف على بغداد ونزل بقربها في ٣ شعبان من السنة المذكورة .

اما ابن الطويل فانه استمال الاهلين وجلب اليه اكثر القبائل العراقية ومن جملتها القبائل التي يرأسها الامير احمد بن درويش ابو ريش امير عانه وحديثة وما يليهما والتف حوله خلق كثير وحصن بغداد وانضمت اليه بعض القبائل الكردية التي يرأسها السيد خان ايضاً وبذل لتلك القبائل العربية والكردية اموالاً طائلة فقوي امره .

(١) وفي رواية كان اميراً اوواليا على العراق وقد انتقض على الحكومة عندما بلغه توجيه ايالة بغداد الى نصوح باشا .

التحم القتال بين نصوح باشا وابن الطويل حوالي بغداد فانجلت المعركة بجرح نصوح باشا من موضعين وقتل زعيم شهرزور ولي باشا الذي جاء لنصرته مع جماعة من زعماء الاكراد التابعين لمير شرف زعيم الرقة فاضطر نصوح باشا الى التقهقر والرجوع الى الجزيرة .

على اثر انسحاب نصوح باشا حدثت فتنة في بغداد بزعامة احد كبارها المدعو محمد چلبي فقتل ابن الطويل وتولى مكانه اخوه مصطفى فنهج منهج اخيه وقبض على زمام الامور فارسلت الدولة العثمانية القائد الاكبر محمد باشا بن سنان باشا جغاله زاده بجيش آخر ووجهت اليه ايالة بغداد وذلك سنة ١٠١٦ ﻫ فلما وصل الفرات انضم اليه الامير احمد بن درويش ابو ريش ومير شرف امير الاكراد وسائر امراء تلك الحدود فسار بهم حتى نزل قرب بغداد في غرة شوال من السنة المذكورة ، فاستعد لقتاله مصطفى وحصن بغداد وبعد عدة معارك على اسوار المدينة تحصن مصطفى في القلعة فاشتد الحصار وتوالت الوقائع التي كان النصر في كلها للجيش العثماني فاضطر مصطفى الى طلب الامان بعد ان عجز عن الدفاع وايقن بعدم قدرته على قتالهم فامنه محمد باشا ولكن مصطفى خاف على حياته فنزل مع حاشيته واهله في سفينة قاصداً الانحدار الى البصرة فغرقت بهم السفينة لتزاحم من فيها فلم ينج غير مصطفى ونفر قليل وفروا الى البادية . ودخل الجيش العثماني بغداد وعاد العراق الى الدولة العثمانية وعلى اثر ذلك ورد الامر من السلطان احمد خان الاول بتوجيه ايالة

العراق الى علي باشا قاضي زاده فاستلم الوزير الجديد زمام الامور في بغداد .

بقيت الامور تجرى في اعنتها اعواماً حتى تولى الايلة الوزير يوسف باشا سنة ١٠٢٥ هـ فثار عليه رئيس الشرطة بكر اغا سنة ١٠٣١هـ وتغلب عليه وقتله ثم انتقض على الدولة العثمانية وآل ذلك الى سقوط بغداد في قبضة الفرس ثم عادت للاتراك بعد حروب طويلة استمرت اعواماً وجلبت على البغداديين خصوصاً والعراقيين عموماً انواع المصائب والويلات .

انتقاض بكر اغا على الدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية قد وجهت ايالة العراق الى الوزير يوسف باشا سنة ١٠٢٥ هـ وارسلته خلفاً للوزير علي باشا قاضي زادة فسارت الأمور على ماكانت عليه قبلاً في بغداد وتوابعها حتي دخلت سنة ١٠٢٨ هـ (في عهد السلطان عثمان الثاني) فحدثت فتنة بين رئيس شرطة بغداد بكر اغا وبين سميه احد ضباط الجنود ففر الثاني الى جهة السماوة وجمع هناك جموعا من الاعراب وشرع يشن الغارات ، فخرج رئيس الشرطة بكر اغا لاخضاع الثائر بجيش مؤلف من اربعة آلاف من الانكشارية والف مقاتل من الاعراب واناب عنه ببغداد ابنه محمد اغا رئيس الرهط ، ورئيس الشرطة بكر اغا كان يومئذ قد تمكن من جلب الاهلين اليه وكثرت اتباعه وعظمت ثروته واستولى على جميع امور الحكومة العراقية

من ادرية وعسكرية حتى لم يبق للوزير يومذاك غير الاسم بل انه نال شهرة عظيمة ونفوذاً كبيراً وانقاد اليه جميع موظفي الحكومة و رؤساء القبائل . وكان فيلق بغداد مؤلفاً من اثني عشر الف جندي من اهل البلاد عدا الانكشارية الذين يزيدون على الاربعة آلاف جندي ومعظم هؤلاء طوع اشارة بكر اغا رئيس الشرطة الانكشاري (١) بينما كان بكر اغا عائداً الى بغداد من جهة السماوة بعد ان اخضع الثائر وهزمه حدثت فتنة اخرى في بغداد بين ابنه محمد اغا وبين رئيس العزب فاتفق الثاني مع جماعة من الاهلين وجند القلعة على قتل محمد اغا فحدثت بينهما معركة هائلة داخل المدينة انهزم في اخرها رئيس العزب بجموعه وتحصن في القلعة محتمياً بالوزير يوسف باشا (وكان الوزير يقيم بالقلعة حسب المعتاد) فحاصر محمد اغا القلعة وطلب من الوزير تسليم رئيس العزب فلم يلتفت اليه الوزير بل اكتفى بتوبيخ رئيس العزب ، فكتب محمد اغا الى ابيه يخبره بما جرى فاسرع بكر اغا بالمسير وعند وصوله بغداد حاصر القلعة باثنى عشر الف مقاتل ووجه نحوها المدافع وطلب من الوزير تسليم رئيس العزب ، فلم يجبه الوزير فشدد بكر اغا الحصار على القلعة وقطع عنها الطعام ودام الحصار اياماً جرت في خلالها عدة معارك بين الفريقين وفي الاخير صعد الوزير الى برج من ابراج القلعة ليرشد المدفعية

---

(١) كان هذا في بدء امره ضابطاً على حامية بغداد الانكشارية ثم صار صو باشي (رئيس الشرطة) والصوباشي لقب كان بادئ بدء يلقب به رئيس القضاء في بلاد الاتراك ثم اطلق على رئيس الشرطة .

الى موقع الضرب فاصابته رمية من بندقية فوقع جريحاً ومات مساء ذلك اليوم ودفن في حديقة القلعة .

ولما قتل يوسف باشا انحل امر من في القلعة من الجنود واضطربوا فاضطر رئيس العزب الى طلب الامان فامنه بكر اغا فسلمت القلعة واستولى الغالب على كل ما فيها من الاموال والسلاح والذخائر ثم امر بربط رئيس العزب وولديه بالسلاسل ووضعهم في زورق وان يصب عليهم النفط وتضرم النار في الزورق ويطلق منحدراً في دجلة ففعلوا ذلك واحترقوا جميعاً ثم امر بقتل كل من كان موالياً للوزير من الجندوالاهلين والموظفين وخلى له الجو واصبح هو الآمر الناهي .

وعلى اثر هذه الحادثة كتب بكر اغا الى السلطان يخبره بان يوسف باشا اراد قتله ظلماً وانه بغى وتجبر فحدثت من اجل ذلك فتنة آلت الى قتله بدون رضا منه وطلب توجيه ايالة بغداد اليه ، فلم يجبه السلطان بشيء لعلمه بما فعله بل انه وجه ايالة بغداد الى سليمان باشا المعزول عن ايالة ديار بكر .

اما بكر اغا فانه زور منشوراً باسم السلطان وجمع الناس وتلاه عليهم وكان مضمونه توجيه الايالة اليه ، وبعد قليل وصل سليمان باشا الى ماردين وارسل مقدمة احد اتباعه المدعو علي اغا ليستلم امور بغداد بالنيابة عنه حتى يلحق به ، فلما وصل علي اغا بغداد اخبر بكر اغا بما امر به السلطان من توجيه ايلة بغداد الى الوزير سليمان باشا وبما جاء هو من اجله فرده

قائلاً (لا حاجة بنا الى باشا) واكرهه على الرجوع فعاد الى ماردين واخبر سليمان باشا بانتقاض بكر اغا فكتب بذلك الى السلطان فارسل حافظ احمد باشا المنقول من ولاية الشام الى ولاية ديار بكر وامره باخضاع بكر اغا واصدر الاوامر الى ولاة مرعش سيواس والموصل وكركوك والى امراء كردستان بالانضمام اليه ، فسار هذا القائد بجيش مؤلف من اثني عشر الف مقاتل عدا القبائل الكردية وفي صحبته الوزير سليمان باشا الموجه اليه ايالة بغداد .

اما بكر اغا فانه لما راى ايالة بغداد قد وجهت الى غيره انتهز فرصة الفوضى السائدة يومذاك في المملكة العثمانية واعلن استقلاله بالعراق وامر فخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه واستعد لقتال الجيوش العثمانية معتمداً على ما عنده من الجنود والمال وماله من النفوذ في العراق وبينما هو في ذلك وصل حافظ احمد باشا بجيوشه قرب بغداد وكتب اليه يدعوه الى طاعة السلطان وينصحه ويحذره عاقبة انتقاضه ، فلم يجبه بغير الاستعداد للحرب والنزول في ميدان القتال وبعد عدة معارك انكسر بكر اغا وتحصن في بغداد فحاصرها حافظ احمد باشا فدافعت عنها حاميتها دفاع المستميت حتى ضاق بهم الحال وايقن بكر اغا بعجزه عن الدفاع فسولت له نفسه ان يستنجد بالشاه عباس الصفوي ويلتجيء اليه وانفذ رسولاً الى عاصمته اصفهان وطلب منه النجدة ووعده بالدخول تحت سيادته على ان يكون الحكم له والخطبة والسكة باسم الشاه اذا نصره

على الجيش العثماني ، فوافق الشاه على ذلك ولبى طلبه وارسل اليه يشدد عزمه ويشجعه ويعده بالمدد طمعاً في العراق وارسل اليه فرقة من جنوده بقيادة صفي قلي خان لاستلام بغداد ثم وجه اليه عشر خانات مع كل خان الف مقاتل ، فعلم بذلك حافظ احمد باشا وايقن بعدم استطاعته على قتال جيوش الشاه اذا اتحدث مع بكر اغا فاضطر الى استرضاء المنتقض حذراً من ذهاب بغداد ففاوضه في الصلح على شرط ان يمنع الفرس من دخول بغداد وغيرها اذا وجهت ايالة العراق اليه ، فرضي بذلك بكر اغا فخلع حافظ احمد باشا عليه خلع الوزارة وكتب له عهداً بولاية بغداد وبعد ان تم الصلح رفع الحصار عن بغداد وعاد الجيش العثماني الى ديار بكر وذلك في اوائل جلوس السلطان مراد خان الرابع سنة ١٠٣٢ هـ .

سقوط بغداد بيد الفرس
او
الدولة الصفوية في بغداد

« الدورة الثالثة »

١٠٣٢ — ١٠٤٨ هـ

بعد ان ابرم بكر اغا الصلح مع حافظ احمد باشا ونال مرامه تقرب جيش الشاه عباس من بغداد ونزلت النجدة الاولى التي بقيادة صفي قلي خان في ضواحي المدينة ونزلت النجدة الثانية التي بقيادة الخانات في شهربان ، فندم بكر اغا على مراسلة الشاه وكتب الى القواد يخبرهم بما تم

من الصلح ورجوع الجيش العثماني وطلب منهم الرجوع وعرض الشكر للشاه ، فاجابوه : ان الشاه قد ارسلهم ليدخلوا بغداد ويخطبوا له ويضربوا السكة باسمه وانهم لا يرجعون ما لم ينفذ امر الشاه ، فامتنع بكر اغا عن ذلك عملاً بمعاهدة الصلح مع القائد العثماني وحفظاً لاستقلاله ، فتقدمت جنود الشاه وهمت دخول بغداد فمنعها بكر اغا ووقعت بينه وبينهم عدة معارك انتصر في آخرها بكر اغا وظل يطاردهم حتى اخرجهم من ديار العراق ، ولما علم الشاه بذلك استشاط غضباً (١) وزحف بنفسه على العراق سنة ١٠٣٢ هـ يقود جيشاً كبيراً حتى قرب من بغداد وكتب الى بكر اغا يطلب منه تسليم المدينة ، فاجابه بكر اغا : أني تصالحت مع السلطان فولاني وزارة العراق ولا حاجة لنا بك . فازداد غضب الشاه عباس وتقدم حتى القى الحصار على بغداد وضيق عليها من كل الجهات ومنع عنها الارزاق ، ودام الحصار ثلاثة اشهر كان فيها بكر اغا مدافعاً دفاع الابطال حتى ضاق به الحال وخارت قوى عساكره واشتد القحط في المدينة واضطر الفقراء الى اكل اولادهم .

ولما عجز الشاه عن الاستيلاء على بغداد حرباً عمد الى الحيلة وركن الى الخداع وراسل سراً محمد اغا بن بكر اغا وكان محافظاً على قلعة بغداد فوعده بولاية المدينة والاموال الكثيرة ان غدر بابيه وسلم المدينة وظل

---

(١) ويقال ان بكر اغا كان قد ادخل جماعة من قواد الفرس في بغداد فلما عقد الصلح مع القائد العثماني طلب منهم الرجوع الى الشاه فابوا ذلك فقتلهم وعلق رؤسهم على شرفات السور .

يخادعه ويطمعه حتى اغراه ، وكان محمد اغا قد استولى عليه اليأس وعلم بعدم قدرة ابيه على الدفاع عن المدينة مدة طويلة ورأى حالة بغداد المحزنة من القحط والضيق الشديد فعزم على خيانة ابيه وتسليم بغداد فلجاب الشاه بما اراد وارسل اليه يطلب منه الامان والعهد اذا فتح له باب القلعة فأمنه الشاه ووعده بكل خير . فخرج محمد اغا ليلاً بدون ان يعلم به احد واجتمع بالشاه فرحب به واكرمه وأمنه ووعده بما اراد ووجه معه الفي مقاتل ففتح محمد اغا باب القلعة ليلاً وادخل جنود الشاه على حين غفلة من ابيه وغيره ، وما اصبح الصباح الا ودقت طبول الشاه في القلعة من اعالي البروج والاسوار وعلت اصوات الابواق الفارسية ؛ فانحلت الجنود المدافعة وتفرق الناس واضطربت المدينة وارتجت واختفى كل في داره ، فهتف نفير الشاه داخل المدينة ومحمد اغا امامهم وقد كثر حزبه وتفتحت ابواب المدينة فدخل الشاه بعسكره في ٩ شوال سنة ١٠٣٢هـ

ولما دخل الشاه عباس بغداد نادى المنادي بلزوم السكينة ورجوع الناس الى اعمالهم ، وقبض على بكر اغا واولاده واخيه عمر اغا (رئيس بيت المال) وحبسهم ، فمضت ثلاثة ايام والفرس لم يمسوا احداً بسوء ولكنهم منعوا الناس من الخروج الى ضواحي المدينة ، وفي اليوم الرابع امر الشاه باجتماع جنود بكر اغا بسلاحهم ولباسهم الرسمي على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وان تكتب اسماء الاهلين واماكنهم في سجل

خاص ، ولما حضرت جنود بكر اغا اخذوا سلاحهم وسجلوا اسمائهم وشهرتهم ثم صرفوهم ولم يمض يومان حتى طلبوهم ثانية فلما حضروا امر الشاه بحبس البغداديين منهم وبمصادرة اموالهم المنقولة والثابتة ثم أمر بتعذيبهم حتى يخرجوا ما عندهم من الاموال فعذبوا فمات اكثرهم . واحضر الشاه اعيان المدينة وتجارها واخذ منهم اموالاً طائلة وقتل اكثرهم.

اما بكر اغا فانه عذبه عذاباً اليماً واخذ جميع امواله ثم أمر ان يوضع في قفص من حديد وان يوضع القفص في زورق مشحون بالزفت والكبريت وتضرم به النار على دجلة امام الناس (١) وأمر بقتل اخيه عمر اغا (ويروى علي اغا) والقاضي نوري افندي وخطيب الجامع الكبير محمد افندي ثم أمر بقتل عدد كبير من السنة ونفى محمد اغا ابن بكر اغا الى خراسان (٢) وهدمت جنوده قبتي الامام ابي حنيفة والشيخ عبدالقادر الكيلاني وارتكبوا انواع الفضايع من قتل ونهب وتخريب .

وبعد ان اقام الشاه ببغداد شهرين ذهب الى كربلا والنجف ثم عاد الى بغداد وجعل على حمايتها خمسة آلاف جندي فارسي بقيادة صفي قلي خان وولى الحكم فيها لرجل من خاصته اسمه صاري خان ، وكتب الى رؤساء القبائل بلزوم السكينة والطاعة وعاد الى مقره . ولقد بالغ بعض المؤرخين في قسوة هذا الشاه حتى زعموا انه قتل اكثر من اربعين الفاً من السنة في بغداد واحرق جميع كتبهم (ويروى رماها في دجلة) مما لا

---

(١) كما فعل هو برئيس الزب بعد ان اعطاه الامان (٢) قيل انه انهزم بعد ايام من منفاه فلم يعرف له خبر ويروى ان الشاه قتله بعد قتل ابيه بثلاثة اشهر .

يأتلف مع ما كان عليه من الحكمة وحب التقدم والعمران وحسن التدبير .
وبقيت بغداد وما يتبعها في قبضة الفرس ستة عشر سنة تقريباً (١٠٣٢
الى ١٠٤٨ ﻫ) ثم طردهم منها السلطان مراد خان الرابع .

الحروب بين الاتراك والفرس
على ابواب بغداد

على اثر الاضطرابات الداخلية في صمة العثمانيين وقتل السلطان عثمان الثاني وارجاع السلطان مصطفى المجذوب مرة ثانية وخلعه بويع بالسلطنة مراد خان الرابع ابن السلطان احمد الاول سنة ١٠٣٢ ﻫ فلما استتب أمره سعى المنافقون بالصدر الاعظم علي باشا لديه واقنعوه ان سقوط بغداد بيد الفرس كان بخيانته فغضب عليه وقتله وجعل مكانه محمد باشا الجركسي ثم توفى هذا سنة ١٠٣٣ ﻫ فولى مكانه حافظ احمد باشا الذي صالح بكر اغا المتغلب على بغداد وامره بالمسير الى العراق لاسترداده من الفرس ولقبه بلقب سر دار ، فسار حافظ احمد باشا ثانية بجيش كبير لفتح بغداد (قيل كان مؤلفاً من عشرين الف مقاتل) فحاصرها حصاراً شديداً سنة ١٠٣٤ ﻫ ودام الحصار تسعة اشهر كان في اثنائها الشاه عباس يرسل النجدات والمعدات الحربية لمن في بغداد ثم سار بنفسه يقود جيشاً كبيراً فامتدت الحروب وطال امدها حتى نفدت ذخائر الاتراك وضجر جيشهم من استمرار الحروب فتمردوا على

حافظ احمد باشا ثم ثاروا عليه وسجنوه و ولوا القيادة مراد باشا ثم ندموا على عملهم وارجعوا حافظ احمد باشا وما عتموا ان ثاروا عليه ثانية وهموا بقتله فاضطر الى موافقتهم على رفع الحصار وعادبهم الى الموصل ومنها الى ديار بكر وهناك ثاروا عليه ثالثة فعلم بذلك السلطان فعزله عن الصدارة والقيادة العامة وجعل مكانه خليل باشـا ثم عزله سنة ١٠٣٥ ﻫ وولى مكانه خسرو باشا .

في كل هذه المدة كانت الثورات متوالية في عاصمة العثمانيين من قبل الانكشارية ، والحكومة مشغولة عن أمر بغداد لما حل بها من النوائب ولذلك فشلت حملات جيوشها على بغداد بسبب قلة المال وانقطـاع الذخائر والمهمات ، وفي تلك الاثناء مات الشاه عبـاس الاول سنة ١٠٣٧ ﻫ وتولى مكانه حفيده الشاه صفي خان الثاني .

ولما كانت سنة ١٠٣٩ ﻫ أمر السلطان مراد خان الصدر الاعظم بالزحف على بغداد (وهذه الحملة الثالثة) فسار بمئة وخمسين الف مقاتل ولكنه اخطأ فاشتغل باخضاع الاكراد اولاً ثم قصد بلاد ايران رغمـاً من تذمر جنوده حتى دخل همدان فجأة واراد التوغل في تلك المملكة فورده الامر من السلطان بالذهاب الى بغداد فتوجه نحوها وانتصر في طريقه على الفرس ثلاث مرات ثم حاصر بغداد فدافع عنها حاكمها بكتاش خان والقائدان الامير فتاح والامير جمال وبعد حروب عديدة وهجمات شديدة تمرد امراء الجنود على خسرو باشا فاضطر الى رفع الحصـار

والانسحاب الى الموصل فعـاد بالفشل ولم تفلح حملته . وعندما وصل الموصل اولم وليمة دعى اليها الامراء كلهم فقتل الذين تمردوا عليه وكتب بذلك الى السلطان وطلب منه المدد لاعادة حصار بغداد فامده ،وكان الشاه صفى الدين الثاني قد ارسل جيشاً للمحافظةعلى الحدود فحمل عليه خسرو باشا وقاتله حتى هزمه وقتل من جيشه نحو الثلاثين الفاً وهرب الشاه فاغارخسرو باشا على همدان ودر كزين ونهاوند وقصد اصفهان عاصمة ايران فورده امر السلطان بالعودة الى العراق واسترداد بغداد فامتثل الامر وسار حتى حاصر بغداد ثانية (وهذه الحملة الرابعة) وبعد عدة معارك انسحب متقهقراً الى الموصل فعزله السلطان وجعل مكانه الصدرالاسبق حافظ احمد باشا المار ذكره وامره بالمسير الى بغداد فسار اليها ثالثة (وهذهالحملة الخامسة على بغداد) بعد انجمع الجموع والعساكر في ديار بكر فحاصرها اربعين يوماً وضيق عليها من كل الجهات فتوجه اليه الشاه صفي الدين خان الثاني بجيش كبير فخاف هذا القائد وعاد الى الموصل ومنها الى ديار بكر ثم الى الاستانة ، ودخل الشاه صفي الدين بغداد ومكث بها اياماً ثم مرض ومات بها سنة ١٠٤٠ ھ .

وعلى اثر وصول حافظ احمد باشا الى الاستانة ثار عليه الانكشارية وقتلوه وحدثت من اجل ذلك فتنة عظيمة في عاصمة آل عثمان فامر السلطان بقتل خسرو باشا زعيم تلك الفتنة وولى الصدارة بيرام باشا ثم اظهر السلطان من الشدة والقسوة في تأديب الانكشارية وتنكيلهم ما شكره عليه الجميع .

رجوع بغداد الى العثمانيين

الدورة الثانية

١٠٤٨ — ١٣٣٥ هـ

عندما رأى السلطان مراد خان الرابع انكسار الجيوش العثمانية مرة بعد اخرى امام الفرس عزم ان يقود الجيش بنفسه ويسترد بغداد فقاد جيشاً كبيراً وسار به ففتح روان وهناك اصيب بمرض فاضطر للعودة الى مقره فاسترد الفرس روان . ثم نهض السلطان سنة ١٠٤٧ هـ ورأس جيشه ثانية واستصحب معه جماعة من كبار رجال الدولة فيهم شيخ الاسلام يحيى بك وحمل على الفرس بثلثمائة الف مقاتل و ٢٩ مدفعاً بين صغير وكبير فلما اقترب من الموصل انهزم منها حاكمها الفارسي فسلمت للسلطان وخضع له ما يليها . ثم خضع له الاكراد واربيل وكركوك والسليمانية ، فبلغ ذلك الشاه صفي الدين الثاني فسار من تبريز الى بغداد بعساكره وحصنها واقام ينتظر قدوم السلطان مراد .

وعندما اقترب السلطان من بغداد وعلم الشاه بكثرة عساكره ترك في المدينة اثني عشر الف مقاتل بقيادة صادق خان ابن مير فتاح وترك عدا ذلك عدة قبائل فارسية وخرج وعسكر على ستة مراحل منها شرقاً ثم امدهم بالجنود حتى بلغوا ثلاثين الفاً عدا القبائل وكان المجموع نحو الاربعين الفاً ، ومكث السلطان اياماً قرب سامرا ثم توجه نحو بغداد

والتقى بالفرس على شاطئ دجلة فهزمهم وعسكر في جوار المدينة ثم حاصرها وخيم امام اسوارها في ١٨ رجب سنة ١٠٤٨ هـ وسلط على اسوارها المدافع الضخمة ، ودافع عن بغداد الامير فتاح والامير جمال وصادق خان والحاكم بكتاش خان دفاعاً شديداً ودام الحصار اربعين يوماً كان في اثنائها السلطان يشتغل بنفسه في اعمال الحصار الشاقة تنشيطاً للجند ثم ضيق عليها الحصار من كل الجهات ففتحت المدافع الضخمة (١) فتحة من السور كافية للهجوم فامر فهجمت جنوده فقتل الصدر الاعظم محمد باشا الطيار واستمر الحرب الاخير الهجومي ثمان واربعين ساعة فخربت اسوار المدينة واسفر الهجوم عن انتصار الجيش العثماني فدخل بغداد في ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ هـ .

قتل من الاتراك في هذه الحملة (السادسة) التي تم لهم النصر فيها مئة الف جندي وقتل من الفرس نحو العشرين الفاً في اثناء الحصار ، ونحو العشرين الفاً بعد التسليم لانهم بعد ان سلموا في القلعة واعطي لهم الامان اخلوا بشروط التسليم فحدثت فتنة عظيمة بينهم وبين الجيش التركي فاعمل الاتراك السيف فيهم في الشوارع والاسواق حتى امتلأت باجسادهم ثم نهبوا ديارهم ، وفي الغد عادت الفتنة وقامت الحرب بين الفريقين داخل المدينة فاباد الاتراك الفرس ولم يبق منهم غير ثلثمائة

(١) يقال ان المدفع المعروف بأبي خزامة الموجود حتى اليوم عند باب القلعة هو الذي فتح تلك الفتحة من السور ولذلك احتفلت به العامة حتى اصبح اخيراً مزاراً للجهلة من الرجال والنساء .

فارسي انهزموا من احدى ابواب المدينة وفروا الى شهربان حيث يقيم الشاه هناك . واسر السلطان جماعة من الخانات فيهم بكتاش خان وخليل خان وعلي خان ونقدي خان . وقد انتقم الاتراك من الفرس انتقاماً اشفى غليلهم ولكن جيشهم الظافر تجاوز الحد عند دخوله بغداد فخرج البغداديون يطلبون الرحمة والامان من السلطان فاصـدر أمره بالكف عنهم وباعادة اموالهم المنهوبة فلم ينته الجيش فعادت الشكوى مرة اخرى فصدر أمر السلطان ثانية فكفوا عنهم وظل الناس في دورهم خوفا من الاذى فامر السلطان فنودي بالامان وذلك بعد ثلاثة ايام من فتحها . وعلى اثر ذلك دخل السلطان بغداد وكان عند دخوله ممسكاً بيده حزمة من الاسلحة ولابساً جلد نمر وامامه خمسون قائداً فارسياً (من الخانات) مكبلين بالحديد (كما فعل اسكندر المقدوني حينما دخل مدينة بابل) وعلى رأسه عمامة حمراء ومرتدياً جبة حمراء

ويقال انه امر بكتب الشيعة فاحرقت كما احرق الشاه عباس كتب السنة ، ووضعت جيوشه السيف في ابناء الشيعة اخذاً بثار السنة الذين قتلهم الشاه بايعازهم .

ولما استتب امر السلطان في بغداد وهدأت الامور امر بتعمير ما اختل من سور المدينة وقلعتها وبناء ثلاثة ابراج شاهقة عميقة الاسس في داخل الشكنة قريباً من الباب الابيض في المحل المعروف باسم تل ذي النقار بازاء برج العجم وامر ببناء ما اختل من بغداد وحصن المدينة بالمدافع

وجعل على محافظتها (بغداد) بكتاش اغا كتخدا الانكشارية وترك له ثمانية آلاف جندي انكشاري . وولى على العراق حسن باشا المعروف بكوجك حسن باشا رئيس الانكشارية وعلى قضاء بغداد موسى افندي. وفوض الى حسن باشا المخابرة مع الشاه بشأن الصلح ، وعمر قبة الشيخ عبد القادر الكيلاني وقبة الامام ابي حنيفة ومسجده ومدرسته واذن باقامة الجمعة والاعياد في المسجد المذكور واوقف عليه وعلى المدرسة اوقافا كثيرة ووظف فيه الائمة والمدرسين والخدم واجرى لهم الرواتب الكافيـة واجرى الجرايات على تلاميذ المدرسة ، وامر قبيلة من العبيـد بالنزول حول جامع ابي حنيفة الامام لمحافظته بسبب بعده عن بغداد وعدم وجود من يحرسه (١) وقد اكثر الشعراء من النظم في استيلاء السلطان مراد على بغداد فمن ذلك قول بعضهم :

خليفة الله مراد غزا ... قلعة بغداد فارداها

وعندما حاصرها جيشه ... اندك للاسفل اعلاها

وبعد ان اتم السلطان مراد تنظيم حكومة بغداد خرج منها قاصدا عاصمته فلما وصل الكاظمية احترق مخزن البارود في بغداد وانفجر بغتة وقتل كثيراً من الاهلين فحمل السلطان هـذا العمل من الشيعة

---

(١) اذ لم يكن يومئذ في الاعظمية غير الجامع والمدرسة فنزلت جماعة من بني الحسن وبني علي. وعلى توالي الايام ابتنوا المنازل وكثروا ولا يزال ابناؤهم فيها حتى اليوم.

فامر بقتل من بقي من الفرس في بغداد وكانوا اربعمائة رجل جاؤا من الحلة فقتلوهم ،

اما الشاه صفي الدين الثاني فاني فانه ارسل يطلب الصلح على ان يكون العراق العربي للدولة العثمانية وروان للدولة الفارسية وبعد مفاوضات طويلة تقررت شروط الصلح على يد أمير العراق حسن باشا في ٢١ جمادي الاولى ١٠٤٩ ﻫ وعلى اثر ذلك توفي السلطان مراد الرابع في عاصمته في السنة المذكورة ، وتولى السلطنة العثمانية اخوه السلطان ابراهيم خان الاول فعزل امير العراق حسن باشا وجعل مكانه محمد باشا العرويش وبعد قليل عزل وأرجع حسن باشا سنة ١٠٥٢ ﻫ ثم عزل سنة ١٠٥٤ وتولى ايالة العراق حسين باشا فعزل بعد خمسة اشهر وخمسة عشر يوماً وخلفه محمد باشا بن حيدراغا وعزل سنة ١٠٥٥ ﻫ وجعل بدله كوجك موسى باشا ثم عزل سنة ١٠٥٦ ﻫ وعين لايالة بغداد (العراق) ابراهيم باشا خزنه دار الصدر الاعظم صالح باشا ، فانتقض على الدولة.

انتقاض الوزير ابراهيم باشا

بعد ان استتب امر ابراهيم باشا في بغداد شرع في اجتذاب الاحزاب حتى قوي امره في مدة قصيرة فعزله السلطان ابراهيم خان ووجه ايالة العراق الى موسى باشا القبودان المعروف بالسمين ولما كان هذا الوزير مريضا مكث في الاستانة حتى يتم له الشفاء وارسل نائباً عنه احد اخصائه

ليستلم الايالة فطرده ابراهيم باشا وانتقض على الدولة واعلن استقلاله ببغداد ١٠٥٧ ﻫ وعلى اثر ذلك وجهت الايالة الى مرتضى باشا ولما وصل هذا ديار بكر صدر امر السلطان بقتله و بقتل ابراهيم باشا وبتوجيه الايالة الى موسى باشا ثانية ، فقتل مرتضى باشا في ديار بكر وانقسم الجيش العثماني في بغداد الى قسمين الجنود العراقية صاروا لابراهيم باشا، والانكشارية صاروا عليه فحدثت بين الفريقين معركة دموية داخل بغداد واخيراً احتال ضباط الانكشارية على ابراهيم باشا وحبسوه وكان السلطان قد ارسل سراً من امره بقتله فقتل غيلة سنة ١٠٥٨ﻫ وارسل رأسه الى العاصمة ثم قتل في بغداد جماعة من رجال ابراهيم باشا منهم كتخداه وحبس من بقي منهم وصودرت اموالهم وبعد قليل وصل موسى باشا بغداد سنة ١٠٥٨ﻫ فاعمل السيف في الجنود الذين نصروا ابراهيم باشا ولم ينج منهم الا من فر الى الفرس ولم يكتف بذلك بل انه قتل اكثر من مئتي رجل من أهل بغداد اتهمهم بالتشيع وبتهم اخرى وصادر اموالهم فعزله السلطان سنة ١٠٥٩ ﻫ وولى مكانه احمد باشا والي ديار بكر ، ولما وصل موسى باشا عاصمة العثمانيين امر السلطان بقتله فقتل .

استبداد الامراء وجور الانكشارية

بقيت ايالة العراق في بغداد بعد قتل ابراهيم باشا يأتيها الوزير تلو الوزير اعواماً كانت فيها البلاد العراقية وخصوصاً بغداد في حلة برثي

لها من التقهقر والانحطاط لما اصابها من انواع المصائب والويلات بسبب استبداد اولئك الامراء الذين لم يكن همهم غير جمع الاموال من اي وجه كان ، ومصادرة الاغنياء وتزييد الضرائب الثقيلة وليس هناك من سامع ولا من مجيب لبعد العاصمة عن هذا القطر سيما وان الدولة العثمانية كانت في ذلك العهد في اضطراب مستمر ، والذي زاد في البليات عدم وجود قانون خاص للبلاد يسير عليه الوزراء مما ادى الى ان يحكموا بما تشتهيه نفوسهم وما توحيه ضمائرهم الامر الذي جعل كل وزير يتفنن في ايجاد المظالم الا من شذ منهم .

ولم تصب بغداد باستبداد الوزراء وتجبرهم واضطهادهم وعسفهم فحسب بل انها كانت تحت رحمة الانكشارية الذين طغوا في البلاد واكثروا فيها الفساد واغتصبوا الاموال بالباطل حتى آل ذلك الى نشوب الحروب بينهم وبين اهل المدينة في الشوارع والاسواق في اكثر الاحيان . وكثيراً ما كانت تقوم بين الفريقين معارك دموية تنتهي بانتصار اولئك الظلمة الطغاة ، حتى اذا ما تولى الايالة محمد باشا الخاصكي سنة ١٠٦٧ ه ورده امر السلطان بقمع تلك الفئة الباغية والزامهم السكينة فقتل عدداً كبيراً منهم فاخلد الباقون الى السكينة وامنت الناس على ارواحهم واموالهم ، ولم تتحسن الحالة في بغداد وما يتبعها ولا انتهت المظالم ولا خضعت القبائل العراقية التي كانت تتمرد على الحكومة في اكثر الاحيان فتثير حربا عوانا تارة بين الواحدة والاخرى وطوراً

بينها وبين الوزراء مما يؤدي الى رفع الاسعار واضطهاد الاهلين وسلب اموالهم الى ان تولى الايالة يوسف باشا سنة ١١١٥ هـ فقاتله بعد اربعة ايام من توليته علي باشا الذي تولى الايالة سنة ١١٠٧ هـ فجرت بينهما معارك عنيفة انتصر فيها علي باشا وقبض على زمام الايالة فعزل بعد اشهر ووجهت الايالة الى حسن باشا سنة ١١١٦ فشرع في اصلاح القبائل وتوطيد الامن في البلاد واحسن السيرة والتدبير حتى تمكن من نشر الامن والسكينة في ربوع هذا القطر ثم شرع في توسيع ايالته فجهز الجيوش الكثيرة وزحف على مملكة فارس سنة ١١٣٦ هـ فاستولى على كرمنشاه عنوة وبينما هو عازم على التوغل في تلك البلاد فاجئه مرض فمات فيها وحملت جثته الى بغداد في السنة نفسها ١١٣٦ فتولى الايالة ابنه احمد باشا (١) فسار سيرة ابيه واظهر من الحزم وحسن السيرة مارفع مقامه في قلوب الاهلين ثم سار الى كرمنشاه وقاد الجيوش التي حمل ابوه بها على ايران فزحف من كرمنشاه حتى افتتح همدان واريوان ثم نظم شؤون تلك البلاد وعاد الى بغداد

عند ما عاد احمد باشا الى بغداد وجد القبائل العراقية قد عادت الى التمرد على الحكومة وقد كثرت من اجل ذلك الفتن والثورات في بغداد وغيرها من مدن الرافدين ورجعت الانكشارية الى ظلم الناس والفتك بهم وارتكبوا من الفضايع ما يدمي القلوب فاشتغل باخضاع القبائل وارجاع

---

(١) ولاه رجال حكومة بغداد ووجوهها لكفائته وعلو مقامه وكتبوا بذلك الى السلطان فاقره وبعث اليه عهداً بالايالة ، وكان هذا متسلماً على البصرة في ايام ابيه.

السكينة على ما كانت عليه حتى تمكن بمقدرته على الحصول الى ما اراد .

حملات الفرس على بغداد

وعلى اثر ذلك طلب الشاه طهماسب الثاني من الدولة العثمانية ان تعيد الى مملكته جميع البلاد التي اخذتها من اسلافه وانفذ عنه مندوبا الى الاستانة للمفاوضة مع رجال الدولة في هذا الطلب وذلك سنة ١١٤٢ ه فلما لم تجبه الدولة بشيء حمل بجيوشه الفارسية على تبريز فاستولى عليها ثم على همدان وكرمنشاه فحدثت من اجل ذلك فتنة عظيمة في عاصمة آل عثمان وثار الجيش فيها على رجال الدولة ناسباً هذا الحادث الى خيانتهم فقتل عدداً منهم ثم امتدت الفتنة الى السلطان احمد الثالث فخلع سنة ١١٤٣ ه .وبويع السلطان محمود الاول ابن السلطان مصطفى الثاني فجهز هذا جيشاً كبيراً لقتال الفرس وكان الشاه قد توجه نحو العراق واجتاز بجيوشه الحدود ونهب القرى ثم قصد بغداد (١١٤٣) ه فحدثت بينه و بين احمد باشا أمير العراق عدة وقائع كانت سجالا وكان في اثناء ذلك قد استردت الجنود العثمانية تبريز من جهة اخرى فطلب الشاه الصلح وكادت تقرر شروطه لولا نادرخان القائد الا كبر للجيوش الفارسية الذي عارض في تلك المعاهدة وحمل بجيوشه على العراق فعادت الحروب بين الدولتين فانتصر الفرس وتقدموا حتى حاصروا بغداد فاستنجد احمد باشا

بالسلطان وظل مدافعاً حتى جائته الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الاعظم عثمان باشا الاعرج سنة ١١٤٤ والتقت بالشاه وبعد معارك دموية انتصر الاتراك قرب بغداد واندحر الفرس وانسحبوا وعلى اثر ذلك سار عثمان باشا بجيوشه الى الموصل فلحقه الفرس بعد ان لموا شعثهم فعادت الحروب بين الفريقين فقتل عثمان باشا وانهزم الاتراك فتقدم الفرس حتى مدينة الزور وعندها طلب الشاه الصلح فتقررت شروطه على ان تعاد همدان وتبريز للفرس وتبقى روان (اريوان) وشروان والعراق للاتراك وتم الصلح في منتصف جمادي الاولى سنة ١١٤٩ هـ .

ولما مات الشاه طهماسب الثاني سنة ١١٥١ هـ وخلفه ابنه الشاه عباس الثالث تولى الوكالة عنه القائد نادرخان فاعاد الكرة على العراق حتى حاصر بغداد في عهد الوزير احمد باشا المتولي سنة ١١٤٩ هـ (١) فارسلت الدولة العثمانية جيشاً كبيراً لقتال الفرس وبعد عدة وقائع اندحر الجيش الفارسي وجرح القائد نادرخان ولكنه بعد قليل لم شعثه واعاد الكرة على العراق وانتصر على الاتراك فوجهت الدولة العثمانية جيشاً آخر سنة ١١٥٢ هـ فانتصر عليه نادر خان فعادت بعد هذه الانتصارات جميع البلاد التي كان الاتراك قد افتتحوها من الفرس الى اهلها (الفرس) عدا العراق وتقررت المعاهدة الصلحية بين الدولتين على اعتبار الحدود التي كانت على عهد السلطان مراد خان الرابع فاتح بغداد .

(١) هو غير احمد باشا ابن حسن باشا الذي تولى الوزارة بعد موت ابيه سنة ١١٣٥ هـ

وعندما خلع الشاه عباس الثالث وتوصل نادر خان الى الجلوس على عرش ايران وقرض الدولة الصفوية واعلن نفسه ملكاً وسمى نادر شاه ولقب بطهماسب الثالث طلب سنة ١١٥٦ هـ من الدولة العثمانيـة ان تعترف بالمذهب الشيعي المنتشر ببلادها وتعتبره مذهباً خامساً وتخصص له ركنا في الحرم الشريف (الكعبة) فرفضت الدولة العثمانية هذا الطلب فاتخذ نادر خان ذلك الرفض ذريعة للحرب فحمل على العراق واغار على البصرة والقرنة ثم توغل في البلاد الفراتية حتى وصل الحلة ثم حمل على بغداد والقى عليها الحصار وظل يتهددها برمي القنابل اياما دافع في اثنائها الوزير احمد باشا دفاع الابطال حتى عجز نادر خان عن فتحها وسار عنها قاصداً كركوك فافتتحها ثم توجه نحو الموصل وحاصرها اياماً فساقت الدولة العثمانية جيشاً عرمرماً لقتاله وبعد حروب كانت سجالا بين الفريقين انسحب نادر شاه عنها وسار الى جزيرة ابن عمر فاسترد الاتراك كركوك ثم حملوا على نادر شاه وضيقوا عليه قرب روان ولكنهم دحروا بعد ذلك وتوجه نادر شاه الى جهة ارضروم وكتب الى السلطان محمود الاول يطلب تسليم ايالات وان والموصل وبغداد فلم يجبه السلطـان بغير ارسال الجنود لقتاله فخاف نادر شاه عاقبة التوغل في البلاد العثمانية فعدل عن طلبه وبعد مفاوضات طويلة تم الصلح معه على اعتبـار الحدود القديمـة وذلك سنة ١١٥٩ هـ .

بدء حكومة المماليك في بغداد

بعد الحوادث الهامة التي تقدم ذكرها والتي كانت ايالة العراق في اثنائها تنتقل من وزير الى آخر بامر من سلاطين آل عثمان تولى الايالة سنة ١١٦٣ ﻫ سليمان باشا الذي كان مملوكا لاحمد باشا المتولى ايالة بغداد سنة ١١٤٩ ﻫ وكان قد تدرج في المناصب حتى نال وظيفة الكتخدائية في عهد مالكه . وبه ابتدأ حكم المماليك في هذه الديار ، وبقيت الامور سائرة على وتيرة واحدة خصوصاً في مركز الايالة بغداد فانها كانت هادئة نوعا ما في عهد مؤسس حكومة المماليك فيها وفي عهد خلفه علي باشا المتولى سنة ١١٧٥ ﻫ وكان كتخدا لسلفه حتى تولى الايالة عمر باشا سنة ١١٧٧ ﻫ فاحسن باديء بدء السيرة والتدبير واتبع خطة المصلحين واخضع الاعراب الثائرين ولكنه غير خطته اخيراً واستعمل الشدة والعنف واضطهد الاهلين مما ادى الى رجوع الاضطرابات والفتن وانتقاض القبائل عليه فاشتغل في اخضاعهم اعواماً حتى تمكن من ارجاع الامن والسكينة بعد عناء شديد غير انه تقاعد عن نصرة مدينة البصرة التي حاصرها صادق خان اخو الشاه عبد الكريم خان الزندي في اواخر سنة ١١٨٨ ﻫ واضطرت الدولة العثمانية الى ارسال جيش بقيادة عبدالله باشا (١)

(١) لم تكن البصرة في حوزة العثمانيين الى ان تولى السلطان محمد الرابع فارسل سنة ١٠٧٨ ﻫ وزيره قره مصطفى باشا بجيش كبير ففتحها له عنوة واخذها من

وعبدي باشا ومعهما والي ديار بكر مصطفى باشا بعساكره فوصلت هذه الحملة الى بغداد سنة ١١٩٠ هـ لنصرة البصرة ، ولكن قوادها عندما وصلوا بغداد ودخلوها فترت عزيمتهم وابرز مصطفى باشا كتاباً عن لسان السلطان عبد الحميد خان الاول يقضي بعزل عمر باشا وتوجيه الايالة الى مصطفى باشا. فلما بلغ عمر باشا بذلك خرج من بغداد وخيم بالجانب الغربي منها قاصداً الذهاب الى العاصمة، وبينما هو في ذلك هجم عليه ليلاً جماعة من جنود مصطفى باشا وقتلوه في خيمته ، وعند الصباح اظهر مصطفى باشا كتاباً عن لسان السلطان يأمر فيه بقتل عمر باشا لاهماله امر البصرة ، ثم كتب الى متسلم البصرة سليمان بك : ان المدد لكم بعيد فاما ان تصطلح مع الفرس او تسلم المدينة لهم ، وكتب الى السلطان: بان الصلح قد تم مع الفرس وانهم قد انسحبوا عن البصرة ، فما كان من متسلم البصرة الا ان سلم المدينة للفرس فغدروا به واسروه وذلك سنة ١١٩٠ هـ .(١)

امرائها وهذا اول استيلائهم عليها ، ثم تغلب عليها امير الحويزة فرج بن مطلب فارسلت الدولة العثمانية جيشاً فاستردها منه عنوة سنة ١١١١ هـ ، ولما تغلب عبد الكريم خان الزندي على مملكة ايران واعلن الحرب على العثمانيين ارسل اخاه صادق في اواخر سنة ١١٨٨ هـ بجيش كبير فحاصر البصرة ثمانية عشر شهراً حتى اضطرها الى التسليم سنة ١١٩٠ هـ وذلك في عهد السلطان عبد الحميد الاول ، فلما كانت سنة ١١٩٣ هـ طردهم منها المنتفكيون بقيادة الاميرين ثامر وثويني فعادت الى العثمانيين وظلت في قبضتهم الى قيام الحرب العامة المشؤومة .

(١) ولم يسلم البصرة متسلمها الا بعد ان تلي على اعيانها ووجوهها كتاب مصطفى باشا واتفقوا على تسليمها وارسلوا يطلبون الامان على ارواحهم واموالهم فامنهم صادق

بعد قليل من هذه الحادثة علم رجال الحكومة في بغداد بحيل مصطفى باشا وتزويره الكتب عن لسان السلطان فثار عليه عبد الله باشا والتف حوله خلق كثير فاستولى على جميع القرى التي في شرقي بغداد وشرع في قتال مصطفى باشا وضيق عليه ، (كل ذلك جرى بدون علم السلطان لعدم وجود بريد بين العراق والعاصمة مما ادى الى وصول الاخبار الى الاستانة بعد مدة طويلة ، وتعذر وصول الاخبار الصحيحة الى السلطان خصوصاً وان السلاطين كانوا مكثرين من الحجاب) ، ولما ضاق الامر بمصطفى باشا كتب الى السلطان يشكوا اليه من عبد الله باشا و يطلب منه النجدة فورد الامر من السلطان بعزل مصطفى باشا وتوجيه الايالة الى عبدي باشا وتلاه امر آخر بقتل مصطفى باشا لارتكابه الجرائم العديدة وتزويره الاوامر عن لسان السلطان وعدم انجاده البصرة وتسببه الى سقوطها بيد الفرس ولقتله عمر باشا غدراً ، فنفذ امر السلطان حالاً .

اما عبد الله باشا فانه ظل على غروره قاصداً الاستيلاء على العراق كله فاستولى على اكثر المدن العراقية وقويت شوكته فبلغ ذلك السلطان فخشى عاقبة امره فوجه له ايالة بغداد وارسل اليه امر تقليده الايالة وعزل عبدي باشا (بعد ان مكث فيها ثلاثة اشهر) وامره بطرد الفرس من البصرة ، فلما استتب امر عبد الله باشا اهمل امر البصرة واشتغل بالملاهي والملذات فاضطر السلطان الى ارسال جيش واموال كثيرة الى بغداد

خان ولكنه لما دخل المدينة نكث العهد وغدر البصريين وفتك بهم ثم اسر المتسلم وجماعة من الاعيان وارسلهم اسرى الى شيراز .

وكتب الى عبد الله باشا يستنهضه الى استرداد البصرة ثم ارسل اليه الوزير سليم باشا ليكون له مساعداً على ذلك فلم يلتفت عبد الله باشا لامر السلطان ولاالوزير الذي ارسله مساعداً له بل اشتغل الاثنان ومن يتبعهم بالملاهي والشهوات وانفقوا المال الذي ارسل للنفقة على قتال الفرس في سبيل ملذاتهم وانسهم . ولم تطل ايام هذا الامير بل انه مات سنة ١١٩٢ هـ بعد ان حكم تسعة اشهر .

(حادثة عجم محمد)

مات عبد الله باشا فقامت الفتن في بغداد على قدم وساق وانقسم البغدايون الى حزبين حزب يريد الايالة الى حسن باشا والي كركوك وحزب يريد الخازندار عجم محمد حتى آل ذلك الى نشوب حرب بين الفريقين داخل المدينة فكانت فتنة عظيمة وفي الاخير اتفق الحزبان على تحكيم الامير محمد بك الشاوي لحل هذه المعضلة فحكم الامير بتوديع الايالة بالوكالة الى حسن باشا حتى يرد امر السلطان فيمن يختاره لها وارسل الكتخدا اسماعيل بك الى كركوك لاستقدام حسن باشا ، فرضي الحزبان بذلك وسكنت الفتنة غير ان عجم محمد لم يرضه هذا الحكم فاخذ يثير الفتن داخل المدينة وصادف اشتغال حسن باشا بتسكين فتنة كانت قد حدثت اذذاك بين الاكراد فتأخر عن المجيء فاغتنم عجم محمد فرصة تأخره حتى اغرى كثيراً من الناس على نصرته فالتف حوله جماعة كبيرة

من المفسدين وخرج بهم من بغداد ثم ازداد حزبه فحاصر بجموعه بغداد فاضطربت المدينة وكثر فيها اللصوص واخذوا يهجمون على الدور ليلاً ونهاراً وسادت الفوضى وكثر القتل والنهب حتى اضطرت عشيرة عقيل الى التوسط بين الحزبين وتمكنت من عقد هدنة بينهما فسكنت الفتنة.

لم يمض شهر على تلك الحادثة حتى ورد امر السلطان بتوجيه الايالة الى حسن باشا والي كركوك ومحاسبة عجم محمد الخازندار (رئيس خزينة العراق) ولما لم يكن حسن باشا في بغداد تولى الوكالة عنه الامير محمد بك الشاوي فاختفي عجم محمد فارسل محمد بك في طلبه فاحضر وحبس فتكفله وجوه محلة الميدان حتى يقدم الوالي الجديد واسكنوه في القلعة وصاروا يحرسونه وبعد قليل وصل بغداد حسن باشا فانهزم عجم محمد من القلعة بمساعدة اهل الميدان (١) ولحق بشيخ عشيرة اللاوند احمد بن خليل المتمرد على الحكومة واتفق الاثنان على التمرد والعصيان فاكثرا النهب والسلب والغارات على القرى التي في شرقي بغداد وعجزت الحكومة عن اخضاعهما واخيراً حاصرا بغداد من الجهة الشرقية ونهبوا ضواحيها فاضطر حسن باشا الى الاستنجاد بعشيرة العبيد وارسل محمد بك الشاوي ليستصرخهم على قتال هؤلاء المتمردين ، فلما جاءت عبيد الى بغداد جهز الوالي جيشاً وارسله مقدمة بقيادة الكتخدا عثمان بك فالتقت المقدمة

---

(١) كان اهل الميدان من حزب عجم محمد وانصاره بل انهم كانوا عوناً له في جميع اموره لانه كان ينعم عليهم ويبذل لهم الاموال الطائلة لمثل هذه المقاصد .

بالعصاة وبعد قتال انهزمت الى بغداد وكانت عشيرة العبيد قد تبعتها فلما رأتها منهزمة انخذلت وعادت بالفشل ، وعلى اثر ذلك استنجد حسن باشا بامراء الاكراد فجاءه نجدة احمد باشا واخوه محمود باشا باتباعهما فقوي عضده والف جيشاً كبيراً يضم اربعة فرق ، العبيد بقيادة محمد بك الشاوي ، والاكراد بقيادة اميريهما محمد باشا ومحمود باشا ، وعساكر بغداد بقيادة الكتخدا عثمان بك ، وعشيرة العقيل النجديين (سكان بغداد) بقيادة رئيسهم ، فسارت هذه الحملة والتقت بالعصاة فمزقتهم وظلت تطارد المنهزمين منهم الى بندنيج (مندلي) وهناك اعملت السيف فيهم حتى افنتهم واسرت منهم نحو المئتين وفر عجم محمد وابن خليل بشرذمة قليلة وتحصنا في جبال لورستان من بلاد الفرس ، وعادت الحملة الى بغداد ظافرة ورجعت القبائل الى اماكنها وهدأت الاحوال وساد الامن ، وفي تلك الاثناء خرج من بغداد سليم باشا الذي جاء مساعداً لعبدالله باشا قاصداً الاستانة فلما وصل ديار بكر حبس بها بامر من السلطان ثم امر بقتله فقتل .

الثورة في بغداد وطرد الوزير

ولما كانت سنة ١١٩٣ ﻫ عاد عجم محمد وابن خليل من لورستان ورجعا الى شن الغارات على القرى التي في شرقي بغداد وقطعا الطرق واكثرا النهب والسلب حتى قربا من بغداد ونهبا ضواحيها فضاق الامر باهل

بغداد ونسبوا ذلك الى ضعف حسن باشا وقلة تدبيره واتفقوا على اخراجه من المدينة قهراً فثاروا عليه وهموا بقتله فاضطر الى الخروج ليلا ونزل الجانب الغربي ثم سار بعد ايام الى ديار بكر بعد ان حكم سبعة اشهر .

اما البغداديون فانهم لما اخرجوه من المدينة اتفقوا على توديع امور الايالة وكالة الى الكتخدا اسماعيل بك حتى يرد امر السلطان فيمن يختاره لها ففعلوا ذلك وكتبوا بما جرى الى السلطان .

امارة سليمان باشا الكبير ابو سعيد

كان الفرس قد استولوا على البصرة سنة ١١٩٠ ﻫ واسروا متسلمها سليمان بك وجماعة من وجوهها واعيانها واتفق انهم في السنة التي طرد البغداديون فيها حسن باشا من بغداد سنة ١١٩٣ ﻫ طمعوا في بلاد المنتفك فارسل صادق خان حاكم البصرة اخاه محمد علي خان وسير معه عشيرة بني كعب لقتال المنتفكيين واخذ بلادهم (وهي الحملة الثانية) فالتقوا بهم في ابى حلانة وعليهم يومئذ ثامر وثويني ابنا عبد الله (١) فحدثت بين الفريقين حرب دموية هائلة استمات فيها المنتفكيون وانتهت بتمزيق جيش الفرس وانهزام من بقي منهم وظل المنتفكيون يطاردونهم الى البصرة وهناك حاصروهم فيها وضيقوا عليهم وصادف في تلك الاثناء موت عبد الكريم خان فخاف صادق خان فانهزم ليلا ودخل المنتفكيون

---

(١) وعبدالله هذا ابن محمد بن مانع القريشي الهاشمي العلوي الشبيبي وهم امراء المنتفك ولهم تاريخ مجيد .

البصرة وكتبوا بذلك الى حكومة بغداد فارسلت اليهم متسلما نعمان بك وعلى اثر ذلك اطلق الفرس اسراء البصرة ومن جملتهم متسلمها سليمان بك فلما وصل الحويزة كتب الى البصريين بالتوجه اليهم والرجوع الى منصبه فابى ذلك الامير ثامر والمتسلم نعمان بك فمكث سليمان بك بالحويزة اياما كان فيها يكاتب وكيل الوزير ببغداد الكتخدا اسماعيل بك و يستعطفه في اعادة البصرة اليه فلما لم يلتفت اسماعيل بك الى طلبه اضطر الى مراسلة السلطان وقدم اليه عدة رسائل يستعطفه في رد البصرة اليه لما قاساه من الشدائد في اثناء حصارها وما اصيب به من الضرب والاهانة يوم اسره في شيراز فورد اليه امر السلطان برجوع البصرة اليه فكتب بذلك الى الاميرين ثامر وثويني فاجاباه بامتثال امر السلطان فسار اليهما فساعداه على دخول البصرة فعاد الى منصبه .

ولما استقرت قدم سليمان بك في البصرة ورای ما يحدث في بغداد من الفتن والاضطرابات كتب الى السلطان طالبا ايالة العراق متعهداً له بقطع دابر المفسدين وبث الامن في انحاء البلاد فاصدر السلطان امره بتوجيه الايالة اليه واصدر امراً اخر الى اهل بغداد يأمرهم فيه ان يرى الوكالة والي الموصل سليمان باشا بن امين باشا الى ان يصل اليهم الوزير الجديد فاستلم الوكالة والي الموصل وورد امر السلطان الى سليمان باشا في منتصف شهر شوال سنة ١١٩٣ هـ فتوجه نحو بغداد يصحبه ثويني امير المنتفك وفرقة من عسكر الزبير النجديين فلما وصل العرجاء من ارض

المنتفك لقيه للاستقبال الكتخدا اسماعيل بك الذي كان وكيل الوزارة في بغداد ومعه بعض الجنود فامر بقتله لامور نقمها عليه وامر بتقييد من معه .فلما وصل المسعودي قرب بغداد خرج البغداديون لاستقباله فنزل هناك قليلا ورتب شؤون بغداد واصدر اوامره المتعلقة بمصالح الدولة ثم ارتحل ونزل ديالى فقدم عليه الامير عثمان بك بن حاكم بابان ومعه خمسمائة فارس من الاكراد وجاءته قبائل اخرى من الاعراب فشرع بجمع الجموع لقمع عجم محمد وابن خليل فلما تم له ما اراد سار بالجموع فالتقى بالعصاة ولم تمض سويعات حتى تمزق شمل المتمردين ووقع ابن خليل قتيلا وفر عجم محمد بشرذمة من اتباعه الى البراري وذلك في اوائل سنة ١١٩٤هـ وبعد قليل عاد سليمان باشا فدخل بغداد باستقبال عظيم .

اصل عجم محمد ونشأته

اصل عجم محمد فارسي وقد جاء من بلاد فارس الى بغداد وهو صبي امرد حسن الصورة لطيف الصوت ومعه امه واختاه فالف جوقا صار هو مغنيه واختاه ترقصان وامه تضرب الدف فراج سوقه في بغداد عند رجال الحكومة والامراء والوجوه ثم تدرج وصار يتوسط للناس في قضاياهم ويرتشي باسم الموظفين والحكام الذين تقدم عندهم بالهدايا والتوسط بالرشوة حتى اصبح مسموع الكلمة عند الامراء ولما تولى الوزارة عمر باشا

سنة ١١٧٧ هـ قدمه ثم اتخذه دويداراً له سنة ١١٨٤ هـ وصار يستشيره في كل الامور حتى سبب بوشايته عنده الى ظلم الناس ومصادرة كثير من التجار والوجوه مما ادى الى هزيمة اكثر تجار بغداد خوفا من شره وتزويره.

ولما قتل عمر باشا سنة ١١٩٠ هـ وخلفه مصطفى باشا والي ديار بكر تملق له عجم محمد وكان كثير الملق عذب الالفاظ فصيح الكلام فجعله مستشاره وولاه رئاسة الخزنة وعندما قتل هذا الوزير بأمر من السلطان في السنة نفسها وتولى الايالة عبد الله باشا قرب عجم محمد واودع اليه امور الادارة في بغداد حتى صار يعزل وينصب ويضرب ويحبس وتمكن من الامور فاستحوذ على اموال الحكومة وبيت مالها وسرق اكثر ماكان فيه ولفق دفتراً قدمه الى عبدالله باشا بين فيه كيفية صرف الاموال على نفقات الجند وامور الادارة وتمكن من اقناعه بصحة حساباته وقد سحر الوزير ومساعده سليم باشا بالاموال والهدايا والتحف وخدعهما بتملقه وعذوبة لسانه مظهراً حباً واخلاصاً للدولة العثمانية وباذلا جهده في اجتذاب قلوب الناس اليه بما يبذله من الاموال حتى كثر حزبه فاخذ سراً يكاتب قومه الفرس ويخبرهم بكل مايجرى في بغداد وكان الشاه عبدالكريم خان يقوي عزمه ويعده بالمساعدة عند انقضاضه على الدولة حتى طمع بالوزارة وتمرد على الدولة واخيراً فر الى مصر ومات فيها .

وكان هذا الوزير من خيرة الوزراء ومن كبار العلماء وله هيبة عظيمة

وصولة شديدة وهو اول وزير تركي احيا العلم والادب في العراق وخصوصاً بغداد فانه بنى فيها عدة مدارس منها مدرسته المعروفة بالمدرسة السليمانية (التي هي الآن قرب مركز شرطة السراي) انشأها سنة ١٢٠٥ هـ وجعل فيها مكتبة شحنها بالكتب المتنوعة وخصص الرواتب المدرسين والتلامذة واوقف لهـا الاوقاف الكثيرة وعمر سنة ١٢٠٧ هـ جامع الفضل وجدد جامع القبلانية وجامع الخلفاء (ولكنه نقصه عما كان قبلاً) وحلى مأذنة جامع الامام ابي حنيفة بالذهب وعمر ما اختل من مدرسته وجامعه وعمر سنة ١٢٠٩ هـ ما اختل من سور بغداد في الجانب الشرقي وانشأ سور غربيها وعمر دار الامـارة عمارة لائقة بالوزارة واصلح سنة ١٢١٥ هـ ما اختل من مدرسة مرجان ووسع المصلي الذي فيها وله آثار كثيرة في العراق ، وقد قرب العلماء والادباء واحترمهم وبذل الاموال اليهم تنشيطاً على نشر العلم فرغب الناس في عهده في العلوم وبنيت في بغداد عـدة مدارس ، وكثر طلاب العلوم والآداب ولم يكن اجتهـاده قاصراً على نشر العلوم وبث الامن فقط بل انه اجتهد كثيراً في تنشيط التجارة وتوسيع نطاق الزراعة حتى زهت بغداد في ايامه .

وفي اول امارته اشتغل كثيراً في اخضاع العشائر التي كانت تتمرد الواحدة تلو الاخرى بسبب ضعف اسلافه الذين اطمعوهم بل ما كانت لاتخلو اسنة واحدة بدون ان تثور قبيلة على الحكومـة او تقوم الحرب بين الواحدة والاخرى فتارة تثور خزاعة واخرى تنتقض المنتفك وتارة تتمرد الهليم

او قشعم وتناوها عفك وجليحه او تمص عنزة وتثور شمر او العبيد اوالعزة او الزبيد وكثيراً ماكانت تنتقض قبائل الاكراد في شهر زور فكان يخضع بعضهم بالقوة وبعضهم باللطف والمال حتى تمكن من اخضاع الجميع بعد عناء شديد .

وفي ايامه حمل على العراق امير نجد سعود بن عبد العزيز سنة ١٢١٦ﻫ واستولى على كربلا عنوة وفتك باهلها فجهز سليمان باشا لقتاله جيشا ارسله بقيادة الكتخدا علي بك فهزمه امير نجد فشرع سليمان باشا بتأليف حملة كبيرة لقتال الامير واخراجه من كربلا فلما علم بذلك الاخير عاد الى مقره بعد ان اخذ كل ماكان في مرقد الامام من ذهب وفضة وغير ذلك ، وكان سبب غزو العراق هو ان سليمان باشا اراد الاستيلاء على نجد فارسل سنة ١٢١٣ ﻫ جيشا كبيراً بقيادة الكتخدا علي بك فانتصر جيشه على النجديين وحاصر الاحساء اشهراً ولكنه اضطر اخيراً الي رفع الحصار بسبب نفاذ الذخائر فلحقه الامير سعود حتى ادركه في محل يسمى الثاج وهناك حدثت معركة هائلة قتل فيها عدد كبير من الجيش العراقي واضطر الكتخدا الى عقد الصلح . غير ان الامير بقي حاقداً على سليمان باشا وظل يترقب الفرص للانتقام منه فحمل على كربلا وفتك باهلها .

وفي عهده حدث قحط شديد في العراق واشتدت وطأته في بغداد سنة ١٢٠٠ﻫ بسبب انقطاع الامطار فمات كثير من الفقراء وهلك كثير من الاعراب

واضطرت القبائل الى الهجرة من هذا القطر طلباً للرزق والكلاء . فاراد سليمان باشا تخفيف وطئته عن اهل بغداد فاخرج جميع ماعنده من اموال الدولة من الحنطة والشعير وقسمه على الضعفاء والمحتاجين فلم يخفف ذلك شيئاً من وطئة القحط المتمادى فاغتنم بعض اعداء سليمان باشا فرصة هذه الحادثة واذاعوا بين ضعفاء العقول من اهل الخرافات ان ظلم الوزير اوجب غضب الله فقطع الامطار وانزل القحط الشديد فهاج السفهاء من العامة وحملوا علماً اخرجوه من مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وطافوا به في الشوارع والاسواق وهم ينادون «اخرجوا هذا الوالي من بغداد فانه بسبب ظلمه رفع الله المطر عنا» فانضم اليهم الارذال والاوباش فاثاروا فتنة عظيمة سفكت فيها الدماء داخل المدينة فامر سليمان باشا جنوده بتنكيلهم فهجمت الجنود عليهم وفرقتهم فامر سليمان باشا بصلب جماعة من زعمائهم وحبس بعضهم ونفي آخرين فخمدت الفتنة وعاد السكون .

وفي ايامه انتقض سليمان بك الشاوي على الدولة العثمانية سنة ١٢٠٠ﻫ وحاول ان يؤسس دولة عربية في العراق فجرت بينه و بين سليمان باشا عدة معارك حتى كاد الامير العربي يستولي على بغداد سنة ١٢٠١ﻫ لولا عشيرة عقيل التي صدته عنها واخيرا تفرق عنه اصحابه واضطر الى الصلح مع سليمان باشا سنة ١٢٠٣ ﻫ على شرط ان لا يدخل بغداد ثم عادت بينهما الحروب فاغتاله محمد بن يوسف الحربي وقتله سنة ١٢٠٩ ﻫ والمظنون ان قتله كان بايعاز سليمان باشا، وسليمان بك هذا من امراء عشيرة العبيد

القحطانية المشهورة وقد نبغ من هذا البيت الكبير (آل الشاوي) جماعة كبيرة في العلم والادب واشتهر اكثرهم بالشجاعه والكرم وتولى كبراؤهم المناصب الرفيعة في الدولة العثمانيــة وكان لهم نفوذ عظيم وصولة كبيرة في البلاد العراقية .

وتوفى سليمان باشا الكبير سنة ١٢١٧ ﻫ بعدان حكم العراق ثلاثة وعشرين سنة وستة اشهر (١١٩٣ — ١٢١٧) ﻫ ودفن بجوار مرقــد الامام ابي حنيفة . وهو احد مماليك آل عثمان . وكان قد جعل ولي عهده الكتخدا علي بك احد مماليكه ، فتولى هذا ايالة العراق كما سيأتي .

امارة علي باشا

لما دفن سليمان باشا الكبير اجتمع رجال الحكومة والوجوه وتذاكروا فيمن يولون الامارة فاتفقوا على تولية الكتخدا علي بك حسب وصية سليمان باشا فاستلم الوزير الجديد زمام الامور سنة ١٢١٧ ﻫ ولقب باشاه وكتب المتفقون على نصبه الى السلطان سليم خان بذلك. وقبل ان يرد امر السلطان الى علي باشا حسده رئيس الانكشارية احمد اغا وشرع في تدبير الحيل ليستولي على منصبه فنجحت حيلته بادئ بدء وتمكن من ضبط القلعة فادعى الولاية لنفسه فقامت بينه وبين علي باشا الحروب ودامت اياماً وكان علي باشا قد كتب بذلك الى السلطان فبينما هما في قتال اذ ورد أمر السلطان بقتل احمد اغا فتفرق عنه انصاره وتمكن علي

باشا من اخذ القلعة حرباً فقتل احمد اغا وجماعة من حاشيته وعفى عن اكثر من في القلعة وعلى اثر ذلك ورد أمر السلطان بتوجيه الايالة اليه فثبتت قدمه . وفي ايامه سنة ١٢١٩ هـ اغار سعود بن عبد العزيز أمير نجد على البصرة وحاصرها ولكنه عاد بالفشل . وطمع هذا الوزير ببلاد ايران فحمل على الشاه فتح علي خان سنة ١٢٢١ هـ بجيش مؤلف من العرب والاكراد غير انه فشل في حملته بسبب تسرع ابن اخته قائد المقدمة الكتخدا سليمان بك ووقوعه اسيراً في قبضة الفرس .

وبعد ان حكم هذا الوزير خمس سنوات هجم عليه بعض خدمه وهو قائم يصلي في داره فقتلوه غدراً في اواخر سنة ١٢٢١ هـ ولم نقف على سبب ذلك .

امارة سليمان باشا القتيل

على اثر قتل علي باشا اتفق اهل الحل والعقد على تولية ابن اخته الكتخدا سليمان بك فولوه الايالة ولقبوه باشا وكتبوا بذلك الى السلطان وذلك في اواخر سنة ١٢٢١ هـ واول عمل قام به هـذا الامير قتل قتلة خاله ، ولما كان هذا الوزير ممن نشأ في بغداد سار سيرة حسنة في اهل العراق ورغب في العلوم والفنون وضرب على ايدي المفسدين ونشط التجارة والزراعة ولكنه طمع اخيراً في اموال الدولة وامتنع عن ارسال المال الى العاصمة فارسل اليه السلطان احد رجاله المدعو حالت افندي فلما وصل

بغداد دخلها متنكراً ومعه كاتبه فاستقدم سراً رئيس ديوان بيت المال بيغداد ولي افندي وطلب منه اقناع سليمان باشا على د فع المال المقرر للدولة واخبره انه اذا امتنع فهو معزول عن منصبه ، فابى سليمان باشا ان يدفع شيئاً من المال واصر على عدم الخضوع لاوامر السلطان ، فخاف حالت افندي و لم يظهر أمر السلطان القاضي بعزل سليمان باشا وفر الى الموصل . فلما علم سليمان باشا بعزله انتقض على السلطان واعلن استقلاله بالعراق وشرع يستعد للطوارئ وذلك سنة ١٢٢٥ هـ .

اما حالت افندى فانه عندما وصل الموصل راسل الحكام القريبين منه واخبرهم بانتقاض سليمان باشا على الدولة العثمانية وطلب منهم ان يعينوه على تنفيذ أمر السلطان وقتال المنتقض فجهز عبد الرحمن باشا والي كردستان جيشاً كبيراً وانضم اليه جيش الموصل وعبدالله بك وطاهر بك اللذان نفاهما سليمان باشا الى البصرة لامور نقمها عليهما ففرا منها الى كردستان والتجأ بعبد الرحمن باشا (وهما من الكولات) فسارت الحملة حتى قربت من بغداد فخرج اليها سليمان باشا بعساكر ولما التقى الفريقان انهزمت عساكر بغداد وفر سليمان باشا قاصداً حمود بن ثامر امير المنتفك ليحميه فمر في طريقه على قبيلة الدفافعة فنزل عند شيخها ضيفاً فقتله غدراً ليتقرب عند الوزير الجديد فسود بعمله هذا صحيفة تاريخ قبيلته وذلك سنة ١٢٢٥ هـ ولم يحكم سليمان باشا هذا المعروف بالقتيل غير ثلاث سنين وستة اشهر .

وعلى اثر انهزام سليمان باشا دخل حالت افندي وعبد الرحمن باشا وعبدالله بك وطاهر بك بغداد فاتفق رجل الحكومة والوجوه على تولية عبدالله بك بسعي عبد الرحمن باشا فسلموه الايالة ولقبوه باشا وكتبوا بذلك الى السلطان .

امارة عبدالله باشا

تقدم ما جرى في بغداد من القلاقل والفتن ولكنها لم تنته بتولية عبدالله باشا حيث ان هذا الوزير بعد ان جلس على كرسي الامارة اتخذ صديقه طاهر بك كتخداً له وسلم شؤون الايالة كلها الى عبد الرحمن باشا وقتل متسلم البصرة سليم بك الذي انعم عليه يوم نفاه سليمان باشا مع طاهر بك الى البصرة ثم اعقب ذلك حدوث فتنة بين حالت افندي وبين عبد الرحمن باشا وتحزب لكل منهما جماعة من البغداديين وادى ذلك الى نشوب حرب دموية بين الطرفين في داخل المدينة قتل فيها عدد كبير من الاهلين وما كادت تلك الفتنة تخمد حتى قامت مكانها فتنة اخرى بين الوزير الجديد عبدالله باشا وبين نصيره عبد الرحمن باشا فاضطر الثاني الى الخروج من بغداد في اواخر سنة ١٢٢٦ ه وبعد قليل جهز عبدالله باشا جيشاً لقتال عبد الرحمن باشا وسار به فالتقى الفريقان في بلدة كفري وبعد حروب دامت اياماً وكانت سجالاً انهزم الاكراد

وفروا الى كرمنشاه بعد ان قتل منهم عدد عظيم .

بينما كان عبدالله باشا مشغولاً في حرب الاكراد كان سعيد بك ابن سليمان باشا الكبير يسعى سراً في اجتذاب الناس اليه ببغداد ليتولى الايالة ثم سار الى أمير المنتفك حمود بن ثامر ليساعده على ذلك وبينما هو في المنتفك عاد عبدالله باشا الى بغداد وعلم بما كان يسعي به سعيد بك فاستشاط غضباً وخرج بجيشه من بغداد قاصداً أمير المنتفك وارسل اليه يتهدده و يطلب منه تسليم سعيد بك، فاجابه الامير حمود: ان الموت دون تسليم جاري ، فزحف عبدالله باشا على الامير فالتقى الفريقان في ارض المنتفك وبعد قتال دام اياماً تمزق جيش بغداد وقتل اكثره ووقع عبدالله باشا وكتخداه طاهر بك اسرى في قبضة الامير حمود فارسلهما الى مدينة سوق الشيوخ مكبلين بالسلاسل والاغلال وحبسهما هناك ثم أمر بقتلهما (١) ولم يحكم عبدالله باشا اكثر من سنتين وثلاثة اشهر .

امارة سعيد باشا ابن سليمان باشا الكبير

على اثر الانتصار الذي احرزه امير المنتفك حمود بن ثامر سار بجموعه ومعه سعيد بك قاصداً بغداد فوصلها في اوائل سنة ١٢٢٨ هـ

---

(١) وينقل ان سبب قتلهما هو ان برغش ابن الامير حمود كان قد جرح في الحرب التي وقعت بين عبدالله باشا والامير حمود فلما مات بعد ايام من جرحه سار عمه راشد بن ثامر الى سوق الشيوخ وقتل عبدالله باشا وطاهر بك خنقاً في الحبس اخذاً بثار ابن اخيه برغش .

فخرج البغداديون لاستقباله فدخل بغداد باحتفال عظيم وسلم امور الايالة
الى سعيد بك ولقب باشا وكتب اهل الحل والعقد بذلك الى السلطان
وكتب الوزير الجديد ايضاً بما جرى الى السلطان. وبعد قليل ورد أمر
السلطان بتوجيه الايالة اليه . واصبح الآمر الناهي حمود بن ثامر فكان
سعيد باشا لايعمل عملاً صغيراً كان ام كبيراً الا برأيه حتى انه اعطاه
حينما عاد الى مقره بعد ايام كل مافي جنوب البصرة من الاراضي والقرى
بغير خراج وظل ممتثلاً اوامره منقاداً لرؤساء القبائل مما ادي الى نقم
رجال الحكومة عليه منهم الكتخدا داود بك (١) فانه بعد ان تولى الكتخدائية
وقيادة الجيوش العراقية سنة ١٢٢٩ هـ حدثت بينهما وحشة بسبب تدخل
رؤساء القبائل في مصالح الحكومة واعراض سعيد باشا عن تدبير الايالة
واخيراً بلغ سعيد باشا ان داود بك قد اوعز الى خدم دار الامارة بقتله
واغراهم على ذلك بما وعدهم به من الاموال الطائلة فخاف سعيد باشا على
نفسه خصوصاً وان الجيوش كلها كانت تحت امر داود بك فجمع سراً
جماعة من رجال الحكومة وفاوضهم فيما بلغه ، فاتفقوا على قتل داود بك
غيلةً ، فبلغ ذلك داود بك فخرج من بغداد منهزماً بمئتين من اتباعه
قاصداً كركوك وهناك اتفق مع امراء الاكراد والتف حوله خلق كثير
فلما قوي امره كتب الى السلطان يخبره عن سيرة سعيد باشا السيئة
وسياسته العمياء وادارته الخرقاء وانقياده لرؤساء القبائل وعليه وطلب توجيه

---

(١) مملوك سليمان باشا الكبير المتوفي سنة ١٢١٧ هـ

الايالة اليه ، وصادف في اثناء ذلك وقوع وحشة بين سعيد باشا وبين حالت افندي الذي قدم بغداد في عهد سليمان باشا القتيل ثم قاتله سنة ١٢٢٥ هـ ثم عاد الى الاستانة بعد ان وجهت الايالة الى عبدالله باشا فقلده السلطان النظر في امور العراق . وسبب ذلك هو انه كان لحالت افندي صيرفي في الاستانة اسمه حزقيال اليهودي وكان له اخ صيرفي في بغداد اسمه عزرا فالتمس حزقيال من حالت افندي ان يكتب الى سعيد باشا بتعيين اخيه عزرا رئيساً للصيارفة في بغداد فكتب بذلك اليه فامتنع سعيد باشا من تعيينه فاستاء لذلك حالت افندي واخذ يترقب الفرص للايقاع بسعيد باشا واتفق بعد قليل صدور أمر السلطان بالاذن لسعيد باشا على ضرب مقدار من النقود النحاسية (١) فاودع سعيد باشا أمر ضربها الى عزرا المذكور فنقش في محل الطغراء اسم سعيد باشا على غير علم منه ، فلما قدم اليه نماذجاً منها غضب وأمر بتبديل الكتابة ورفع اسمه ففعل ذلك (٢) غير ان عزرا كان قد ارسل عدداً من تلك النقود الى اخيه حزقيال في الاستانة فاعطاها الثاني الى حالت افندي فعرضها هذا على السلطان فاصدر أمره بعزل سعيد باشا وتوجيه

---

(١) كانت الدولة العثمانية تأذن في اكثر الاحيان لولاة بغداد ان يضربوا مقادير من مسكوكات نحاسية عند الحاجة باسم السلطان وكان اذذاك ببغداد داراً للضرب، والظاهر كان محلها خان السكة الموجود الان بين سوق القزازين وسوق الخياطين حيث لازال حتى اليوم على بابه اسم السلطان سليمان القانوني الذي بناه لهذا الغرض (٢) وفي رواية انه ضرب قسماً من النقود باسم سعيد باشا واخذه الى الاستانة وهناك عرضه على الباب العالي ايقاعاً بسعيد باشا .

الايالة الى داود بك ولقبه باشا و بعد قليل ورد أمر السلطان بذلك الى داود باشا وهو في كركوك فزادت اتباعه وارسل صورة امر السلطان الى حمود بن ثامر امير المنتفك نصير سعيد باشا والقابض على زمام امور الايالة، فكتب الاخير الى سعيد باشا ينصحه بالامتثال لامر السلطان فابي سعيد باشا الا الحرب واصر على ذلك ، فلما رأى حمود اصرار سعيد باشا على الحرب وعلم بكثرة جموع داود باشا انعزل عن الاول وسار الى مقره (وكان حينذاك نازلاً قرب بغداد) خوفاً من اتساع الخرق ووقوع مالا يحمد عقباه .

اما داود باشا فانه زحف بالفي مقاتل من الاكراد حتى نزل قرب بغداد وكان له فيها انصار كثيرون فلما اقترب منهم بجموعه ورأوا انعزال امير المنتفك عن سعيد باشا ثاروا على الثاني وحاولوا اخراجه من المدينة فلم يتمكنوا الانه دخل القلعة باتباعه وتحصن فيها وتحزب له جماعة كبيرة من البغداديين وانقسم اهل المدينة الى قسمين وفي الاخير فشل حزب سعيد باشا وارسل حزب داود باشا وفداً اليه يستقدمونه فدخل بغداد في اليوم الخامس من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٣٢ ﻫ (٢٢ شباط سنة ١٨١٧ م) باستقبال عظيم واستلم امور الايالة ، ولزم سعيد باشا محله في القلعة فبعث اليه داود باشا بعد بضعة ايام من اغتاله وقبض على جماعة من انصاره وممن اغروه على قتله حينما فر الى كركوك فقتلهم فسكنت الفتنة .

امارة داود باشا

تقدم ما جرى بين داود باشا وسعيد باشا وكيف آلت امارة العراق الى الاول وسبب عزل الثاني وقتله ، ويجدر بنا قبل ان نتكلم عن اعمال داود باشا في بغداد ان نبحث عن اصله ونشأته باختصار .

اصل داود باشا نصرانيا كرجياً ولد في تفليس سنة ١١٩٠ هـ فجيء به الى بغداد اسيراً وهو طفل جلبه اليها بعض النخاسين فاشتراه مصطفى بك الربيعي سنة ١١٩٩ هـ وعمره اذ ذاك عشر سنوات ثم باعه الربيعي بعد ايام على سليمان باشا الكبير امير العراق فرباه وعلمه العلوم الابتدائية اولا وادبه ، فلما ترعرع ولع بالعلوم وكان مفرط الذكاء فاشتغل بتحصيلها على يد اكابر علماء بغداد حتى برع في العلوم العربية والعلوم الدينية والرياضيات وغير ذلك واصبح متضلعا بالعلوم العقلية والنقلية وماهراً بالآداب العربية والتركية والفارسية ومتفنناً بالامور السياسية والادارية ، ثم تنقل في المناصب في عهد سليمان باشا الكبير حتى تولى رئاسة بيت المال العراقي فكان في منصبه هذا مثال الصدق والامانة وقد لبث فيه الى ان توفي سليمان باشا الكبير سنة ١٢١٧ هـ وتولى الايالة عبد الله باشا ، ولما وجهت الايالة الى سعيد باشا ابن سليمان باشا قدمه وجعله كتخدا وقائداً عاماً للجيوش العراقية سنة ١٢٢٩ هـ فمكث في هذا المنصب الى اواخر سنة ١٢٣٠ هـ فحدثت بينه وبين سعيد باشا وحشة ففر الى كركوك خوفا

من الفتك به واخيراً وجهت اليه الايلة كما تقدم ودخل بغداد .

اعمال داود باشا

بعد ان استتب امر هذا الوزير الخطير في بغداد وغيرها من المدن العراقية سار سيرة حسنة في الاهلين وبذل جهده في ارجاع عز بغداد ومجدها ورقيها وعمرانها وقرب العلماء والادباء والشعراء واحترمهم واكرمهم وحرض الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والادب وبنى عدة مدارس وجوامع ومساجد فتقدم العلم والادب والشعر وكثر طلاب العلوم وتنافس العلماء والادباء والكتاب والشعراء واخذت بغداد بالتقدم بخوارق العلمي والادبي والعمراني حتى بلغت المعاهد العلمية يوم ذاك بسعيه ثمانية وعشرون معهداً (١) وزهت بغداد وكادت تعيد مجدها الغابر لولا الطاعون الجارف الذي فتك باهلها . ولا يخفى على القاريء ان المدارس التي كانت ببغداد يوم ذاك سواء العالية منها والابتدائية لم تكن على الطرز الذي عليه المدارس اليوم ولا كان يدرس فيها غير العلوم العربية والعلوم الدينية والآداب العربية والفارسية واللغة والحساب والعروض ، ومع ذلك فكان لتلك النهضة العلمية تأثيراً عظيماً في احياء العربية ولقد رن

---

(١) منها مدرسته المعروفة بمدرسة داود باشا . ومدرسة علي باشا . والعادلية ، والاحمدية ، والسليمانيه ، والقادرية ، والاعظمية ، ومدرسة بنت النقيب وغيرها عدا المدارس الابتدائيه التي بين اهلية واميرية وعدا التي في الجوامع والمساجد التي منها مدرسة جامع الصياغين وجامع داود باشا وجامع الخلفاء وجامع الشيخ شهاب الدين وجامعي حسين باشا العتيق والجديد .

صدى تلك النهضة في الاقطار البعيدة نظراً لما كانت عليه بغداد قبل ذلك العهد من التقهقر العلمي والادبي ، والفضل في ذلك كله لسمي داود باشا الذي نشط تلك النهضة وصرف في سبيلها اموالا طائلة .

ولم يكن داود باشا مهتما بنشر العلوم والفنون فقط بل انه جاء بمحسنات كثيرة واستحدث اثاراً جمة وجدد اسواق بغداد واهتم كثيراً في توسيع نطاق التجارة والزراعة وتعهد بعض اثار العراق الدارسة وشاوفها بنفسه واحيا ما استطاع منها ، من ذلك انه احيا نهر عيسى المعروف باسم ابو غريب الواقع غربي بغداد بظاهر الكرخ الذي مأخذه من الفرات بين هيت والانبار ومصبه في دجلة (١) ولما تم كري هذا النهر الكثير الخيرات نظم الشيخ صالح التميمي الشاعر المشهور يومذاك قصيدة اولها .

لو نهر عيسى يحاكي فيض محييه ... لصير الماء في اعلى روابيه

نهر عليه ظباء الوحش عاكفة ... دهراً فعادت ظباء الانس تأويه

ومن ذلك انه احيا نهر النيل الشهير الذي احتفره الحجاج بن يوسف سنة ٨٢ هـ يوم كان اميراً على العراق في عهد الدولة الاموية (٢) وقد

(١) وهو الذي احتفره عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس عم الخليفة ابوجعفر المنصور وكان هذا النهر في العصر العباسي الاول من اعظم مصادر الثروة وعليه حينذاك عدد عظيم من المزارع والبساتين والقرى وكان له عدة فروع تدخل الجانب الغربي من بغداد وتمر في القصور والشوارع والاسواق ثم تخرج وتصب في دجلة وكان له في ذلك العهد الزاهر ديوان خاص وناظر وكتاب وجباة اي انه كان وحده عملا على حدة كما كان نهر الملك .

(٢) نهر النيل كان قرب الحلة يأخذ من الفرات وكان عليه بليدة سميت (النيل) وقد كراه الحجاج وو...ه فنسب اليه .

حشد داود باشا عليه خمسة آلاف فاعل حتى اتم كريه من مأخذه الاول من الفرات سنة ١٢٤٢ هـ ولما تم كريه اكثر الشعراء قصائدهم في ذلك منهم الشيخ صالح التميمي فانه نظم قصيدة اولها .

دع نهر عيسى وحدثني عن النيل   واجر الحديث باجمال وتفصيل
نيل ولا مصر لكن في جوانبه   نظارة لم تكن في مصر والنيل

وجلب سنة ١٢٤٤ هـ من اوربا الى بغداد جماعة من رجال الفن والصناعة المختصين بصنع المدافع والبنادق وجلب ايضاً جميع ما يلزم لانشاء ذلك المعمل من الآلات والادوات (ولم يصلنا خبر عن هذا المعمل هل ادى وظيفته ام لا) (١) وزاد في عدد الجنود حتى بلغت اكثر من مئة الف مقاتل بين فارس وراجل ورتبهم ترتيباً منظماً واخترع لهم تعليمات خاصة. وكان ذلك الجيش مؤلف اكثره من العرب وقد جعل لكل فرقة اسم خاص منها فرقة البرطلية ، والداودية والارسية ، والتركية واليوسفية ، ومن قواده المشهورين جعفر رئيس عقيل وصفوق رئيس شمر ، ومنهم اغا الحسامات ، والمناخور سليمان بك (٢) وقد جعله اخيراً

---

(١) وكان السلطان محمود خان قد اهدى الى داود باشا سنة ١٢٣٦ هـ خمسة عشر مدفعاً من الطرز الجديد بجميع ما يلزم لها فوصلت بغداد في السنة نفسها صحبة مصلح الدين بك احد رجال الدولة .

(٢) المناخور اوالميرآخور كلمة منحوتة من امير العربية بمعناها المعروف ومن آخور الفارسية بمعنى الاصطبل ، فتكون بمعنى رئيس الاصطبل .

سرداراً (قائداً عاماً) على عساكر العراق. ومن الحوادث في ايامه انتقاض رئيسين من رؤساء الاكراد وهما عبدالله باشا وسليمان بك ابن ابراهيم بك فانهما خرجا عليه ونبذا طاعته سنة ١٢٣٦ هـ فخرج لقتالهما فانهزما باتباعهما الى ايران ملتجئين بوالي كرمان مراد خان فتبعهم بعض امراء الاكراد ايضاً واجتمعوا كلهم في كرمان وساعدهم مراد خان وامدهم بالمال والجنود حتى شرعوا في الغارات على البلاد العراقية الشرقية ووصلوا خانقين ثم قصدوا بغداد فهزمتهم جنود داود باشا ولكنهم عادوا ثانية قاصدين السليمانية فارسل داود باشا جنوده لصدهم فاندحرت بخيانة الكتخدا محمد بك ابن خالد بك الكردي الذي تواطأ معهم ثم فر الى كرمان منضماً الى الثائرين ، وسببت هذه الحادثة نشوب الحروب بين داود باشا وبين الفرس وحاول الكتخدا محمد بك الاستيلاء على البلاد بمساعدة الفرس وطمحت نفسه للتغلب على ايالة بغداد فحاصر كركوك سنة ١٢٣٧ هـ ولكنه عاد بالفشل ثم حمل على دلي عباس ونهب القرى وخرب بساتين الخالص وفر الى بلاد الاكراد التي في الحدود واخيراً وقع الصلح بين داود باشا وبين والي كرمان سنة ١٢٣٧ هـ على شرط ان يعطي داود باشا الى عبدالله باشا لواء بابان ويعطي الى الكتخدا محمد بك لواء كوى وحرير ، غير ان السلطان محمود لما ورده كتاب داود باشا بما تم من الصلح كتب اليه يأمره بقتال الفرس وقمع كل من التجأ اليهم لاسيما الكتخدا محمد بك وارسل امراً الى والي الموصل ووالي

ديار بكر يأمرهما بالانضمام الى عسكر داود باشا فعادت الحروب بين الامتين سنة ١٢٣٨ ﻫ وعاد الكتخدا محمد بك الى شن الغارات فاستولى على الحلة سنة ١٢٤٠ ﻫ وادعى ولاية العراق والتفت حوله بعض القبائل العربية حتى تهيأ للزحف على بغداد فحمل عليه داود باشا و بعد قتال انهزم محمد بك الى الحويزة ودخل داود باشا الحلة وقتل كل من كان موالياً للثائرين وعلى اثر ذلك ثار اهل كربلا فحمل عليهم داود باشا وقاتلهم حتى اخضعهم حرباً سنة ١٢٤١ ﻫ ولم تنته هذه الفتن حتى ثار امير المنتفك حمود بن ثامر واتفق مع الكتخدا محمد بك وانضم اليهما بعض القبائل ولم تخمد تلك الثورات والفتن الا في سنة ١٢٤٣ ﻫ، وفي ايامه غضب السلطان محمود على الانكشارية «١» الذين طغوا وبغوا واكثروا في الارض فساداً وتسلطوا على امور الدولة وسببوا الفتن في جميع البلاد ولم يستثن من ظلمهم العراق بل انهم كانوا كثيراً ما يجحفون بحقوق البغداديين ويبتزون اموالهم ويغصبون املاكهم، فقتل السلطان الوفاً منهم ونسخهم من ديوان الجند سنة ١٢٤١ ﻫ الموافقة سنة ١٨٢٦ م وامر بذلك جميع الولاة فلما ورد امره الى داود باشا ابادهم من العراق فاستراح الناس من شر تلك الفئة الباغية وكان ذلك من اكبر الخطوات في سبيل اصلاح المملكه العثمانية وتنظيم ادارتها .

«١» الانكشارية : اصل الكلمة يكي جرية بمعنى العسكر الجديد .

انتقاض داود باشا

كان داود باشا يرسل المال المقرر الى العاصمة (الاستانة) في كل عام كمن تقدمه من الامراء وبقي على ذلك اعواماً ثم امتنع من ارساله فارسل السلطان محمود خان احد رجاله المدعو صادق افندي لينصحه ويحرضه على طاعة السلطان وارسال المال المتأخرفلماوصل صادق افندي بغداد فاوض داود باشا فيما ارسل من اجله ونصحه فاستمهله داود باشا ثم دعى اعوانه ومعتمديه من جملتهم صالح اغا حاكم المحاويل ورستم اغا ضابط المكرية والحاج احمداغا متولى المسيب وسليمان اغا (احد معتقيه) ومصرف محمد اغا والصراف باشي اسحق اليهودي ، وشاورهم فيما جاء صادق افندي من اجله فقر رأي الجميع على قتل صادق افندي وارسلوا من قتله غيلة ودفنوه سراً في رابية الصابونية في القلعة الخارجية وعلى اثر ذلك قطع داود باشا العلاقات بينه وبين العاصمة وانتقض على السلطان محمود خان الثاني واعلن استقلاله في العراق وذلك سنة ١٢٤٥ هـ وشرع يستعد للمسير بجيوشه على بلاد الفرس لتوسيع ملكه .

حصار بغداد والطاعون

الجارف وتسليم داود باشا

على اثر اعلان داود باشا استقلاله بالعراق اصدر السلطان محمود

امراً الى والي الموصل قاسم باشا يأمره بالمسير الى بغداد والقبض على داود باشا واعوانه ، فسار قاسم باشا بجيوش الموصل حتى نزل قرب بغداد وكتب الى اعوان داود باشا يخبرهم بامر السلطان ويطلب منهم الخضوع للدولة وتسليم بغداد والقبض على داود باشا ، فاجابوه بالسمع والطاعة واستعملوا معه الحيل والخداع واقسموا له الايمان واعطوه العهود والمواثيق حتى اقنعوه بالمسير اليهم في شرذمة قليلة من عساكره فلما دخل بغداد حملوا عليه وقتلوه غدراً ، فلما سمع السلطان بذلك ارسل عشرين الف مقاتل بقيادة علي رضا باشا اللاز لقتال داود باشا واخراجه من العراق وزوده بامر يقضي بعزل داود باشا والقبض عليه وذلك في اوائل سنة ١٢٤٦ ﻫ الموافقة لسنة ١٨٣٠ م فلما بلغ داود باشا مسير هذه الحملة الضعيفة بالنسبة الى كثرة عساكره واستعداده استهزأ بها وقال لو ارسل نساء بغداد لما قدر هذا الجيش على مقاومتهن .

وفي اثناء ذلك حدث طاعون في بغداد كان شديد الوطأة ففتك بالاهلين فتكاً ذريعاً حتى بلغ الموتى في اليوم عشرة آلاف في رواية ، ويروى انه امات في شهر واحد نحو الثلاثين الفاً وفر منها من استطاع (١) حتى اصبحت بغداد خالية تقريبا وفقد من بها من يحفر القبور ومن يغسل الموتى ومن يحمل الجنائز والذي زاد في المصيبة الغرق الذي

(١) فر كثير من البغداديين الى النواحي القريبة منها ثم عادوا عندما خفت وطأة الطاعون ورجعت بغداد الى ما كانت عليه ولكنها فقدت قسماً عظيماً من اهلها ويروى ان الطاعون لم يترك فيها غير عشر نفوسها .

اصاب بغداد في تلك الاثناء فقد زادت مياه دجلة وطفت حتى انبثق الماء واحاط بالمدينة ثم سرى الى داخلها وهدم قسماً من السور في الجانب الشمالي الغربي ثم سرى الى بعض المحلات فهدم نحو مائتي دار في الوقت الذى يفتك فيه الطاعون باهل المدينة، فانقطعت المواصلات واصبح الناس هذا يموت بالطاعون وذاك بالغرق وآخر جوعا لفقد الطعام وشدة القحط وفر الابن من امه وابيه وصاحبته واخيه واشتغل كل بنفسه حتى ان الام كانت ترمي ابنها في الطريق اذا ظهرت عليه عوارض الطاعون واصبحت جثث الموتى في الشوارع والطرقات «١».

وانقل جيش داود باشا حيث مات بعضه وانهزم بعضه ولم يبق منه الا عدد قليل عدا المماليك المعروفين بمماليك بغداد وهم الذين كانوا حينئذ مدافعين عن المدينة .

اما على رضا باشا اللاز فانه سار بجيوش السلطان حتى اقترب من بغداد فنزل على بعد ساعتين منها في الجانب الشرقي في المحل المسمى الآن بالفريجات قرب الاعظمية وكتب الى داود باشا يخبره بامر

«١» كانوا بادئ الامر يدفنون الموتى كالمعتاد فلما قلت الناس وفقدوا من يحملوا الجنائز ومن يحفر القبور صاروا يلقون في كل حفرة عدداً كثيراً من الموتى فلما اشتدت وطأة الطاعون وعظمت المصيبة اخذوا يدفنون في الجوامع والمساجد ثم صاروا يطرحون الجثث في الطرقات او يتركوها في الدور حتى اضطر داود باشا عندما خفت وطأة الطاعون وعاد الذين فروا منه الى بغداد ان يأمر عساكره برفع جثث الموتى ودفنها وجعل اجرة ذلك عن كل جثة مائة غرش فرفعوا ماوجدوه منها في الشوارع والاسواق وكان عدداً عظيماً .

السلطان فما كان من الثاني الا ان شرع في تعبئة جيوشه للحرب والدفاع عن المدينة وكانت الاسوار محكمة البناء وابراجها مشحونة بالمدافع والجنود من المماليك ، وبعد مراسلات ومكاتبات جرت بين الطرفين حوصرت بغداد ودام الحصار ثلاثة اشهر فاصيبت بغداد بكارثة ثلاثية (طاعون وغرق وحرب) وكان على رضا باشا قد علم بفتك الطاعون ببغداد وتفرق جنودها فطلب الحرب او التسليم فابى داود باشا بادئ بدء ثم اضطر الى التسليم بسبب ماحل بجنوده من الطاعون وكتب الى على رضا باشا ان يتكفل حياته وان يسكن الاستانة فاجابه بالقبول فخرج داود باشا باهله الى معسكر الجيش العثماني فاحترمه خصمه غاية الاحترام ثم تسلم الوالي الجديد دار السلام وسير داود باشا الى الاستانة وعند وصوله اليها نفاه السلطان الى بورصة ثم عفى عنه وعينه شيخاً على المسجد النبوي سنة ١٢٦٠ ه فمات في المدينة بعد سبعة سنوات « ١ »

حكم داود باشا اربعة عشر سنة كان فيها محبوبا للخاص والعام غير انه كان مع علو منزلته وعلمه الغزير وهيبته العظيمة في قلوب الاهلين لا يبالى بقتل من يقف عثرة في سبيل منصبه ومقاصده ومما يؤسف له انه طمع في اخر ايامه في اموال الناس فصادر جماعة من المثرين واضطهد

« ١ » ويروى ان البغداديين لما ضاق بهم الحال من شدة الحصار قاموا على المدافعين وهددوهم وفتحوا الباب الشرقي من بغداد فدخلت جنود السلطان وقبضوا على داود باشا واخرجوه الى على رضا باشا فسيره هذا مخفوراً الى الاستانة مع اهل بيته .

كثيراً من تجار اليهود حتى اضطر بعضهم الي ترك وطنه .

ولولا الطاعون الجارف الذي فت في عضد هذا الوزير القدير لتم له النصر على جيوش السلطان واصارت بغداد بسعيه ارقى مدينة عربية ولما تأخرت تلك النهضة العلمية التي امات الطاعون رجالها مع من مات من الاهلين الذين خلت ديارهم .

انتهت حكومة المماليك بداود باشا بعد ان دامت ٨٣ سنة (١١٦٣ — ١٢٤٦ ﻫ) ١٧٥٠ — ١٨٣٠ م وقد بدأت منذ تولى الكتخدا سليمان باشا سنة ١١٦٣ ﻫ الذي كان مملوكا لامير العراق احمد باشا المتولي سنة ١١٤٩ وانتهت بداود باشا مملوك سليمان باشا الكبير المتوفي سنة ١٢١٧ ﻫ بعد ان كانت الدولة العثمانية لاتستطيع عزلهم الا بالحيل لشدة بأسهم وكثرة اتباعهم واستفحال امرهم . وقام من هؤلاء المماليك «١» ولاة اشتهروا بالحزم والمقدرة كسليمان باشا الكبير وداود باشا وغيره ممن ادخلوا في بغداد اصلاحات جمة لازالت تذكر حتى اليوم غير ان اكثرهم كانوا يقتلون من شاؤا ويولون من ارادوا ويحكمون بما تشتهيه

«١» ويعرفون بالكوله مندية وبالكولات ، ويعرفون ايضا بمماليك بغداد ومن بقاياهم اليوم في بغداد آل عارف اغا وآل الحاج احمد اغا وآل زيور افندي وآل خليل اغا وآل سليمان اغا وغيرهم من البيوت التي تعد بالاصابع . اما اصل هؤلاء فان النخاسين يوم ذاك لماراوا رغبة الوزراء في الاكثار من المماليك اكثروا من شراء الاسرى الاتراك وجلبهم الى البلاد للاتجار فباعوا منهم في بغداد عدداً عظيماً في ايام مختلفة حتى كثروا على توالي الاعوام وصار لهم صولة وجولة في هذا القطر وقبضوا فيه على زمام الامور .

نفوسهم حتى سئم حكمهم الناس وضجروا من استبدادهم وظلمهم . وقد انتقض بعضهم على الدولة العثمانية فجلبوا بذلك على ابناء هذا القطر انواع المصائب والويلات . واثرى اكثرهم بما استولى عليه من اموال الناس وعقاراتهم وما كسبه بنفوذه .

تتمة لما تقدم

كان العراق منذ فتح السلطان سليمان القانوني بغداد وخصوصاً بعد ان استردها السلطان مراد خان الرابع الى ان انقرضت حكومة المماليك على يد علي رضا باشا اللاز مستقلاً استقلالاً اداريا وكان ايالة اوامارة كبيرة تسمى ايالة بغداد ويسمى الذي يتولاها وزيراً وتنقسم الى عدة ولايات اي انها كانت تضم البلاد العراقية كلها مع الموصل وتضم في اكثر الاحيان كردستان وشهرزور واحياناً الجزيرة . وكان الوزير مستقلاً بادارة البلاد لا يستأذن السلطان بشيء يخص الادارة الا ماندر من الامور المهمة وهو الذي يولي الولاة والحكام على سائر المدن المربوطة ببغداد التي هي مركز الايالة .

ولبعد بغداد عن العاصمة وانقطاع المواصلات انتقض بعض الوزراء على السلطان واعلنوا استقلالهم في العراق فقامت من اجل ذلك الحروب بينهم وبين سلاطين آل عثمان واصيبت بغداد بسببها بضروب

النوائب والنكبات .

ولم تصب بغداد باستبداد اولئك الوزراء واعوانهم ومماليكهم فحسب بل انها اصيبت بانواع المصائب بسبب الحروب التي كانت تقوم تارة بين الحكومة والاعراب او بين القبيلة والاخرى وتارة بين الوزراء المتغلبين الذين كان بعضهم يقاتل بعضاً طمعاً بالايالة حتى يتم الفوز للقوي وكثيراً ما كانت تقوم المعارك بينهم حول المدينة واحياناً في داخلها حتى ينتصر القوي وينهزم الضعيف او يقتل .

ومن المصائب التي حلت ببغداد مصيبة الغرق الذي حدث في ذلك العهد مراراً عديدة من انشقاق السداد التي على دجلة بسبب عدم اعتناء اولئك الوزراء بمصالح البلاد وحفظها مما ادى الى اضرار كثيرة في النفوس والاموال، ومنها اضطهاد الانكشارية وظلمهم واستبدادهم الذي كان يؤدي في اكثر الاحيان الى وقوع فتن ومعارك في المدينة ، ومنها غارات الفرس المتوالية التي كانت تؤدي الى نشوب الحروب بينهم وبين الوزراء ، وعصيان الاكراد وتمرد القبائل العراقية التي كانت تثور على الحكومة في اكثر الاحيان وتشن الغارات على المدن والقرى وتقطع الطرق وتنهب وتقتل فتقوم بسبب ذلك الحروب بينهم وبين حكومة بغداد .

وخلاصة القول ان حالة بغداد كانت سيئة جداً في ذلك العهد خصوصاً وان ادارة البلاد كانت لا تستقر على قاعدة واحدة بل كانت

تتغير بتغيير الولاة الذين كانت شؤون هذا القطر بارادتهم يحكمونه بما تشتهيه نفوسهم و يقتلون من شاؤا من اهله و يصادرون اموال من ارادوا من اغنيائه الا ما قل منهم .

على اننا لايمكننا ان نجحد فضل بعض هؤلاء الامراء كسليمان باشا الكبير وداود باشا وغيرهما ممن كانوا يراعون حقوق الاهلين ويولون الاكفاء منهم المناصب الرفيعة كقيادة الجيوش ورياسة الدواوين وغيرها ويستشيرونهم في الامور الهامة و يديرون امور الحكومة على حسب امزجة الاهلين ورغباتهم و يهتمون بنشر العلوم والاداب ويحترمون العلماء والاشراف حتى ان بعضهم شيد المدارس الكبيرة وبنى دوراً للكتب و بذل في سبيل نشر العلوم اموالاً طائلة .

وكل من وقف على تاريخ بغداد يعلم ان الوزارة اوالايالة ما كانت في عهد المماليك الا لمن اكتسب نفوذاً وكان له اعوان واحزاب .اوكان متفقاً مع رؤساء القبائل العراقية فيتغلب على الاهلين ويكرههم على عرض طلبهم الى السلطان فيصدر السلطان امره في توليته الا ماندر منهم ممن يميل اليه العراقيون كلهم لكفاءته وحسن سيرته ، لذلك كان اكثر الذين نالوا هذا المنصب من رؤساء دواوين الحكومة من المماليك كالكتخدائيين وغيرهم (١) ومن هؤلاء من نال الولاية بالسيف فيضطر السلطان الى تثبيته خوفا من شره .

(١) منهم سليمان لك مؤسس حكومة المماليك ومنهم الكتخدا علي بك والخازندار عبدالله بك وسعيد بك والكتخدا داود بك وغيرهم .

ولا ينكر ان الدولة العثمانية كانت في اكثر الاحيان لاتولي امارة العراق الا لرجل خبير باحوال هذا القطر عالم بلغة ابنائه كفوءاً لهذا المنصب على ان اكثر هؤلاء المماليك كان قد نشأ في بغداد ودرس احوال اهلها وتعلم فيها ما يؤهله الولاية ولذلك كانت حكومة بغداد في اكثر ايامهم شورية تقريبا بين الامير وبين ابناء البلاد .

بغداد بعد المماليك

انقرضت حكومة المماليك واستلم الوزير الجديد علي رضا باشا اللاز بغداد فاقر الامن فيها واجزل العطاء الى اهلها واكثر الصلات والالطاف على وجوهها وقرب العلماء والادباء واحترمهم واكرمهم وادخل في المدينة نظاماً جديداً وسار سيرة حسنة في الاهلين فالتف حوله جماعة كبيرة من خيرة ابناء البلاد وامتدحه الشعراء منهم عبد الباقي العمري فانه مدحه بقصيدة مطلعها .

اماما فما ابقى لداود تذكرة　　　　بغاية اتقان وقانون حكمة

وبعد مضي بضعة اشهر من ولايته استأصل شافة مماليك بغداد وقطع دابرهم بحيلة دبرها لذلك ، وهي انه امر فنودي في المدينة باجتماع الناس في دار الامارة (السراي) لاستماع امر ورد من السلطان يهم الجميع وخصوصاً المماليك ، فلما اجتمعوا امر باغلاق ابواب السراي فاغلقت وعليها الجنود بالسلاح ثم امر بقتل المماليك فقتلت جنوده كل من حضر

ولم ينج منهم الا من كان في نواحي المدينة او من لم يحضر الاجتماع وفر على اثر تلك الحادثة ، ثم امر جنوده بابادة من بقي منهم فاقتفوا اثرهم وفتكوا بهم ولم يسلم من هؤلاء غير نفر قليل نفي بعضهم الى حلب وبعضهم الى الاستانة بشفاعة اشراف بغداد ولكن جنوده قتلوا اكثر هؤلاء ايضا في الطريق ولم يبق منهم الا نفر يسير وذلك سنة ١٢٤٧ هـ. ومن الحوادث في ايامه قتله رئيس ديوان الانشاء محمد افندي ابن لطف الله افندي المعروف بديوان افنديسي وخالد افندي كهيه . وسبب ذلك هو ان علي رضا باشا بلغه انهما اتفقا على قتله غيلة فاخذ يبحث عن ذلك سراً حتى وقف على الكتب التي كانت تتردد بينهما بخطيهما في هذا الاتفاق فامر بحبسهما وحبس من ينتسب اليهما في القلعة فيها وحبس عبدالله اغا متسلم البصرة ومحمد سعيد افندي المعروف بالكوسه رئيس ديوان بيت المال ثم عقد علي رضا باشا مجلساً ونظر في امر هذه المؤامرة فثبتت الجريمة على محمد افندي وخالد افندي فامر بقتلهما وثبتت براءة من سجن معهم فاطلق سراحهم .

ومنها حدوث نفرة بينه وبين مفتي بغداد عبد الغني افندي آل الجميل الذي ولاه افتاء بغداد سنة ١٢٥١ هـ فادت تلك النفرة الى عداوة شديدة ثم الى حدوث ثورة داخل المدينة اثارها انصار المفتي واتباعه على علي رضا باشا ولولا الوجوه والاشراف الذين اخمدوا تلك الفتنة وسعوا بالصلح بينهما لحدث ما لا يحمد عقباه .

وفي ايام هذا الوزير ابتدأ سير السفن البخارية في دجلة بين بغداد والبصرة بعد ان كانت السفن الشراعية وحدها واسطة للنقل بين المدينتين وذلك سنة ١٢٥٦ ﻫ . وفي عهده سنة ١٢٥٧ ﻫ بدأت الحكومة بمد الاسلاك التلغرافية (البرقية) في العراق ونظمت البريد .

وفي ايامه تغير الزي الرسمي في بغداد وغيرها من المدن العراقية بعد ان كان عبارة عن عمامة بيضاء وجبة وسبب ذلك هو ان السلطان محمود الثاني غير زيه واصدر امراً الى جميع البلاد التي تحت حكمه بلبس الطرابيش (الفين) بدلاً من العمائم .

وبعد ان حكم علي رضا باشا اثنى عشر سنة عزل سنة ١٢٥٨ ﻫ وتوالى بعده على بغداد الولاة المعروفين بالوزراء الذين كانوا شبه المستقلين واشهرهم نجيب باشا والسردار عمر باشا والكوزلكلي محمد رشيد باشا ونامق باشا وتقي الدين باشا المعزول سنة ١٢٨٥ ﻫ وفي كل هذه المدة لم تتحسن حالة العراق وخصوصاً بغداد الا قليلاً ولم تستفد مركز الولاية من العلوم والفنون شيئاً يستحق الذكر ولا اهتم هؤلاء الوزراء بعمران البلاد اهتماماً يذكر لانه ما كان يهمهم غير جمع اموال الدولة وارسال ماتأمر به العاصمة منه حرصاً على منصبهم . لذلك كانت الحركة العلمية في ايامهم بطيئة جداً وكذلك كانت حالة التجارة والزراعة خصوصاً وان ثورات القبائل كانت متوالية في هذا القطر بسبب عدم مقدرة اكثر هؤلاء الولاة واستبدادهم وسوء سيرتهم مع الذين يأبون الضيم . حتى اذا ماجاء

بطل الاتراك ابو الاحرار الوزير مدحت باشا سنة ١٢٨٥ هـ بعد تقي الدين باشا ادخل بغداد في دور جديد وعهد سعيد .

ولاية المصلح الكبير والوزير الخطير مدحت باشا

وجهت الدولة العثمانية ولاية بغداد (اوامارة العراق) الى الوزير مدحت باشا سنة ١٢٨٥ هـ الموافقة لسنة ١٨٦٨ م فلما وصل بغداد واستقرت قدماه فيها بث في العراق خصوصاً مركز الايالة روحاً جديدة اذانه نشر لواء العدل والمساواة والحرية واجتهد في نشر العلوم والفنون ونشط الاعمال الاقتصادية من تجارة وزراعة وصناعة وغير ذلك وقرب العلماء والادباء والكتاب وبالغ في احترامهم واسس في بغداد عدة معاهد علمية منها المكتب الرشدي العسكري والمكتب الرشدي الملكي ومكتب الحميدية عدا المدارس الابتدائية ، واسس مدرسة الصنائع (دار الايتام) بناها على دجلة في الجانب الشرقي في محلة الميدان وخصص لها النفقات وجلب لها الاساتذة والادوات وجمع فيها الايتام وجعلها فروعاً منها الحدادة والنجارة والحياكة والخياطة وغير ذلك وجعل فيها القرائة والكتابة عامة لجميع تلك الفروع ، واسس مستشفى الغرباء من تبرعات الاهلين الذين حثهم على جمع الاعانة لهذا المشروع الخيري الذي فقدته بغداد منذ العهد العباسي بناه على دجلة في الجانب الغربي من بغداد على احسن طرز واتم

نظام وجلب اليه الاطباء والجراحين وكل ما يلزم من الادوات وما يحتاجه المرضى وذلك سنة ١٢٨٦ هـ (١)

وهو الذي اسس ببغداد دائرة المعارف . ودائرة النفوس . ودائرة البلدية وبنى لها محلاً لازال حتى اليوم . وبنى الثكنة العسكرية (القشلة) الباقية الى الآن . وانشأ معملاً لنسج ثياب الجنود وجلب اليه كل ما يلزم لذلك من الآلات والادوات وهي التي تعرف بالعباخانة اليوم . وهو الذي جلب مطبعة لطبع الكتب فسميت بمطبعة الولاية ومطبعة الزوراء. ونشر جريدة رسمية سماها (الزوراء) نشرت سنة ١٢٨٦ هـ وهي اول جريدة صدرت في بغداد وكانت تنشر باللغتين العربية والتركية ودامت الى ان زال حكم الاتراك من بغداد .

وهو الذي جلب الى جنود بغداد آلات موسيقية كاملة . وجلب ماكنة الثلج التي للبلدية وماكنة الماء التي يوزع منها الماء على دور بغداد وبنى لماكنة الثلج وماكنة الماء محلاً على دجلة قرب دار الايتام كما انه بنى محلاً للمطبعة متصلاً بدار الايتام .

ومن اعماله الخيرية ومؤسساته النافعة الترامواي الذي تسحبه الخيل بين بغداد والكاظمية فانه هو الذي الف شركته ورغب اهل الثروة على الدخول فيها حتى قيل انه اكره بعضهم على ذلك وجعل مدة هذه

---

(١) اصبح القسم الاعظم من هذا المستشفى اليوم داراً لمجلس النواب، اما المكتب الرشدي العسكري ففي محله اليوم دوائر العدلية غير ان المكتب الرشدي الملكي اتخذ داراً لكلية الحقوق . اما دار الايتام فقد اصبح خبراً بعد عين

الشركة تسعين سنة ثم تعود الى الدولة .

واراد ان يفيد الحكومة من عيون النفط التي في خانقين فجلب من اوربا ماكنة وآلاتاً لاستخراج النفط ولكنه عزل قبل الشروع في العمل فبقيت الماكنة وما يتبعها في بعقوبا اعواماً حتى تلفت .

وهو الذي انشأ معمل الخبز للجنود (الاككخانة الموجودة الآن) وهو الذي نفذ قانون التجنيد الاجباري في بغداد . وهدم ما بقي من سور بغداد ولم يترك منه غير بعض البروج المتصلة بالقلعة وبرج الطلسم وابواب بغداد الاربعة . واراد هذا الوزير ان يذيق الاهلين طعم الحرية ففتح ببغداد منتزهاً عاماً في البستان المعروفة ببستان المجيدية غرس فيه انواع الاشجار والازهار وامر ان تضرب فيه في كل يوم بعد العصر آلات الطرب واباح للناس شرب الخمور فيه وجعل على من يدخله بشلكاً (عشرانات) فتهافت اليه اهل الانس والطرب غير ان ذلك جلب اليه نقم رجال الدين عليه

وفي ايامه سنة ١٢٨٧ هـ جاء الى بغداد شاه العجم ناصر الدين شاه قاصداً زيارة الكاظمية والنجف وكربلا ومعه وزراؤه وجلة من جنوده فاستقبله مدحت باشا استقبالا فائقاً وانزله ضيفاً في قصر بناه له على دجلة في بستان المجيدية وصرف عليه مدة اقامته في العراق اموالا طائلة من خزائن الحكومة .

ومن الحوادث في ايامه انه لما اراد تسجيل نفوس البغداديين بعد

بجيشه باشهر تمهيداً لتطبيق قانون التجنيد الاجباري ثار فريق كبير من عامة بغداد بزعامة عبد الغني افندي الجميل احد الاشراف وحاولوا الهجوم على مدحت باشا في السراي وكان في مقدمة الثائرين سكان محلة قنبر علي وفريق من سكان محلة باب الشيخ وبعد ان ضربوا الطبول واطلقوا عدة طلقات نارية في شوارع المدينة وهاجوا وماجوا امر مدحت باشا جيوشه بضربهم بالمدافع فلما خرج الجند وسحبت المدافع انهزم الثائرون فهجم الجيش على دار الزعيم عبد الغني افندي ونهبوها وانهزم هو الى البادية متنكراً فخمدت الفتنة وبعد قليل امر بتسجيل النفوس فسجلت ثم نفذ قانون التجنيد الاجباري وعلى اثر ذلك سعى بعض رؤساء القبائل في الصلح بين الوزير وبين الزعيم عبد الغني افندي فاصطلحا .

وهو الذي اسس المرفأ (اللمان) في بغداد واشترى مما جمعه من تبرعات الاهلين باخرتين للنقل بين بغداد والبصرة . ومن اعماله انه حسن للسلطان بيع وتفويض الاراضي الاميرية التي في العراق فاصدر السلطان امره بذلك فباع مدحت باشا قسماً كبيراً من الاراضي الاميرية الى اشراف بغداد ووجهائها (١) غير ان السلطان اصدر امراً ثانيا بعد

---

(١) ويروى انه باع الاراضي الاميرية الى الاهلين بثمن بخس جعله اقساطاً تدفع عند ختام كل سنة فاشترى في ايامه كثيراً من اشراف بغداد قسماً كبيراً من الاراضي وزرعوها واكثرهم دفع ثمنها من حاصلات تلك السنة ثم صاروا من وارداتها اغنياء ويروى انه من شدة حرصه على بيعها اكره احد خدامه على شراء قطعة منها فابى وامتنع فدفع مدحت باشا ثمنها من خالص ماله وسجلها باسمه وقال له : رغماً على انفك جعلتك ملاكا فظلت تلك الارض لذريته حتى اليوم يستغلونها ويتنعمون بوارداتها بفضل ذلك المصلح الكبير

اشهر بعدم بيع الاراضي من قبل حكومة بغداد وجعل امر بيعها منوطاً الى هيأة من رجال حكومة الاستانة ولولا ذلك لباع مدحت باشا الى الاهلين جميع الاراضي الاميرية .

وخلاصة القول ان مدحت باشا ادخل في بغداد خصوصا والعراق عموما من الاصلاحات والمشاريع الخيرية والمؤسسات النافعة ما خلد له الذكر الجميل على ممر الايام والعصور . وهو اول وزير تركي نظم امور العراق . وآخر الولاة الذين كانوا يدعون بالوزراء . وآخر من كان مستقلا بادارة البلاد العراقية وآخر من كانت ولايته تضم عدة ولايات . وبعزله ربطت بغداد بالعاصمة (الاستانة) تماما واصبح الولاة لا يعملون عملا الا باذن من دواوين البلاط الملوكي او امر من السلطان وانحصر امر الولاية في بغداد وما يتبعها بعد ان كانت تضم بغداد والبصرة والموصل وفي اكثر الاحيان شهرزور وكردستان واحيانا الجزيرة .

بغداد بعد مدحت باشا

ولما عزل مدحت باشا سنة ١٢٨٨ھ وقفت النهضة العلمية والعمرانية وظلت الامور سائرة على وتيرة واحدة تقريبا في عهد الولاة الذين جاؤا بعده من رجال الاتراك ممن لم يفيدوا البلاد فائدة تذكر ولا كان همهم غير ارضاء العاصمة بارسال ما تأمر به من الاموال التي تجبى من اهل هذه البلاد بالظلم والقسوة والعنف حتى انهم لم يتركوا في خزينة بغداد من المال

الكافي لسد نفقات الحكومة ورواتب الموظفين ومخصصات المتقاعدين والعجزة في اكثر الاحيان مما ادى الى طمع رجال الدولة بهم حتى وصل الحال الى خزينة اوقف بغداد وصاروا يجلبون منها الى العاصمة كل ما وجدوه من المال غير ملتفتين الى شروط الواقفين ولا الى ماصارت اليه حلة المدارس العلمية من التقهقر والانحطاط ، بل ان اكثر هؤلاء الولاة كانوا يرتشون هم واتباعهم ومن يلوذ بهم من موظفي الحكومة كبيرهم وصغيرهم حتى وصلت العلة الى افراد الشرطة والجند والحرس والبوابين والخدم والف الاهلون اعطاء الرشا واعتادوا عليها واصبحت الوظائف على اختلافها والمقاطعات وما اشبهها لا تعطى الا لمن يعطي الرشوة .هذا عدا ما كان ينزل على ضعفاء المدينة من النوائب والنكبات بسبب طمع اولئك الولاة وممن حولهم من الحكام والاشراف المتنفذين الذين نالوا الرتب والالقاب بالرشوة والمال حتى انتصبوا بنفوذهم كثيراً من اموال الناس واستعبدوا الضعفاء ، كل ذلك جرى في العهد الحميدي الذي كان اهون شراً ممن تقدمه ، ولو اننا اطلقنا العنان للقلم في الخوض في هذا الموضوع لاحتجنا الى كتاب خاص لذلك،مع ذلك كله فقدمرت علينا ايام انستنا تلك السيئات واصبحنا نرتل قول القائل .

دعوت على عمرو فلما فقدته بليت باقوام بكيت على عمرو

واشهر الولاة الذين تولوا بين العهدين (عهد مدحت وعهد الدستور) رؤف باشا ورديف باشا وعبدالرحمن باشا وعاكف باشا وتقي الدين باشا

ومصطفى عاصم باشا وسري باشا ونامق باشا وعطاء الله باشا .

واهم ماحدث في عهد هؤلاء الولاة فصل القيادة عن الولاية سنة ١٢٩٢هـ وارسال المشير حسين فوزى باشا قائداً عاما للجيوش العراقية (بغداد والبصرة والموصل) ببغداد بعد ان كانت القيادة للولاة منذ دخل هذا القطر في حكم الاتراك .

ومنها اعلان الحكم بالدستور وتطبيقه اشهراً عند اول جلوس السلطان عبد الحميد الثاني ١٢٩٣ هـ وانتخاب نواب عن بغداد حضروا البرلمان العثماني في العاصمة (الاستانة) منهم عبدالرحمن باشا الباجه جي وعبدالرزاق افندي آل الشيخ قادر ومناحيم افندي دانيل من آل دانيل المشهورين بالقدم والثروة ثم عادوا الى بغداد بعد اشهر على اثر غلق البرلمان وعود الحكم الاستبدادي القديم .

ومنها ارسال نحو العشرة آلاف جندي من البغداديين عدا المتطوعين الى ساحة الحرب في جهات قفقاسيا اثناء نشوب الحرب بين تركيا وروسيا سنة ١٢٩٣ هـ التي انتهت بفشل الاتراك وخسرانهم وهلاك اكثر جنودهم ولم يرجع من البغداديين غير نفر قليل .

ومنها تأسيس العدلية في بغداد سنة ١٢٩٦ هـ بدلاً من المجلسين المجلس الكبير ومجلس التحقيق (١) ومنها حدوث فتنة بين المسلمين

---

(١) كان المجلس الكبير قد اسس منذ استولى العثمانيون على بغداد وكان يتألف من الاشراف الذين ينتخبهم الوالى الذي له رئاسة المجلس ووظيفة هذا المجلس حل الامور المهمة التي تعرض عليه من مجلس التحقيق وهو اشبه بمجلس التمييز اليوم .

واليهود في عهد الوالي مصطفى عاصم باشا بسبب دفن جثة الحاخام عبدالله سوميخ قرب قبر النبي يوشع في الجانب الغربي من بغداد التي اضطر اليهود في آخرها الى نقل الجثة ودفنها في مكان آخر ولولا تدخل الحكومة والاشراف في الامر لحدث مالا يحمد عقباه .

ومن الحوادث ايضاً ان السلطان عبدالحميد امر سنة ١٣٢٠ هـ المشير احمد فيضي باشا الذي كان قائداً عاماً للجيوش العراقية ووكيلاً للولاية ببغداد ان يؤلف جيشا كبيراً من جنود العراق ويختار من اراد من الامراء والضباط وان يسير نجدة لابن الرشيد لقتال ابن سعود (على قاعدة فرق تسد) فاغتنم هذا القائد فرصة تلك السلطة فارتشى من رجال الجيش والاشراف واخذ منهم اموالاً طائلة ثم سار بجيش بغداد الى القصيم (عاصمة الرشيديين) فمات اكثر الجيش جوعاً ولم تستفد الحكومة من تلك الحملة شيئاً بل وقعت النكبة على بغداد بسبب تلك السياسة الخرقاء .

ومنها نفي العلامة شكري افندي الآلوسي وابن عمه ثابت افندي واحد التجار المتجددين الحاج احمد چلبي العسافي سنة ١٣٢٠ هـ في عهد الوالي عبد الوهاب باشا بتهمة انهم نشروا المذهب الوهابي في العراق فنفوا الى الموصل ليلاً بامر من السلطان وهناك شفع فيهم اشراف الموصل

اما مجلس التحقيق فكان يرى القضايا الحقوقية والجزائية وجميع المرافعات عدا المسائل الشرعية التي هي من وظائف المحكمة الشرعية . ويتألف مجلس التحقيق من رؤساء دواوين الحكومة .

فعفى عنهم السلطان بعد اشهر وعادوا الى بغداد .

ومنها انتفاض القبائل العراقية في ازمان مختلفة وتمردهم على الحكومة بسبب سوء ادارة الولاة وظلم اتباعهم مما ادى الى ارسال جيوش بغداد مراراً عديدة لاخضاع الثائرين واضرار بغداد بالنفوس والاموال .

ومنها الغرق الذي كان يصيب بغداد في اكثر السنين التي كانت تفيض فيها مياه دجلة فيسبب اضراراً بالاموال وامراضاً فتاكة عدا ما كان يفتك بالاهلين من الامراض السارية بسبب عدم اعتناء الحكومة بالصحة العامة وكثيراً ما كانت تحدث الكوليرا او الطاعون فيموت بذلك عدد عظيم من الاهلين والحكومة في غفلة عن اتخاذ التدابير الصحية .

بغداد في عهد الدستور

على اثر الانقلاب السياسي الذي حدث في عاصمة آل عثمان اعلن الحكم بالدستور سنة ١٣٢٦ هـ الموافقة لسنة ١٩٠٨ م ووردت البرقيات بذلك الى بغداد في عهد الوالي حازم بك فلاقى البغداديون ذلك الامر بالفرح واقاموا مظاهرات السرور ومنذ ذاك تغير شكل الادارة ونظمت دواوين الحكومة واخذت بغداد في التقدم نحو المدنية والحضارة والعمران وكثر اشتغال الناس بالعلوم والفنون والتجارة ، بل قامت نهضة علمية وادبية وعمرانية وتجارية واقتصادية معاً وكثرت الجرائد في دار السلام

حتى بلغت اكثر من ستين جريدة ومجلة بين عربية محضة وتركية وعربية الاان صدورها كان في ايام شتى كما انها لم تعش طويلاً بسبب قلة الاقبال عليها واخذت تتقلص حتى لم يبق منها عند ما قامت الحرب العامة غير عدد قليل لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة ثم صفا الجو لجريدة الزوراء الرسمية وجريدة الزهور لرشيد افندي الصفار .

وباعلان الحكم بالدستور اسست في بغداد عدة مدارس رسمية للبنين وثلاثة مدارس للبنات بعد ان لم تكن مدرسة رسمية للاناث في هذا القطر وجعل التعليم في المدارس الرسمية الابتدائيـة باللغتين العربية والتركية بعد ان كانت تركية محضة ، ونظمت مدرسة دار المعلمين واسست مدرسة الحقوق وغير ذلك من المدارس العالية والمعاهد العلمية بين رسمية واهلية .

واطلقت الحكومة حرية العلم والعمل فالف الاهلون احزاباً سياسية واندية علمية منها جمعية الاتحاد والترقي ، وحزب الحرية والائتلاف ، والنادي الوطني العلمي . وجمعية لاخاء المسيحية والجمعية الاسرائيلية لادارة المدارس وحزب العهد العربي السري . وجمعية الشورى التي عاشت بضع اسابيع وكان قد الفها الرجعيون لتثبيت عبد الحميد على اثر اعلان الدستور .

واشهر الولاة الذين حكموا بغداد منذ اعلان الدستور الى النفير العام حازم بك وناظم باشا الاول (١) ومنملا نجم الدين بك والفريق ناظم

(١) الذي جاء الى العراق في عهد الوالي حازم بك رئيساً للوفد الاصلاحي ثم تولى بعد ولاية بغداد وزارة العدلية . وقتل في الاستانة في وسط البرلمان في ثورة ٣١ مارت المشهورة عندما هجمت الجنود الرجعية على البرلمان .

باشا وجمال بك المشهور وجلال بك وجاويد باشا . وهؤلاء من خيرة رجال الاتراك ومن افضل الولاة الذين جاؤا الى هذه الديار بعد مدحت باشا وان صدرت من بعضهم هفوات اذ (ان الحسنات يذهبن السيئات) .

وهنا نذكر للقراء بعض ما حدث ببغداد في ذلك العهد (عهد الدستور) من ذلك ان الوالي حازم بك امر بعد اعلان الحكم بالدستور بتسجيل نفوس البغداديين ذكوراً واناثا في دائرة النفوس فابت نفوس اهل الكرخ (الجانب الغربي من بغداد) تسجيل اسماء النساء وثاروا على الحكومة وضربوا الطبول حتى جمعوا الناس وارادوا العبور الى الرصافة للهجوم على السراي فمنعتهم الشرطة من العبور وبعد قليل سكنوا بالحسنى .

ومنها حادثة ١٧ رمضان المشهورة وهي الحركة الرجعية التى ارادبها المتنفذون الذين لم يرق في اعينهم الحكم بالدستور اهانة الاتحاديين فهيجوا العامة باسم الدين بعد ايام قليلة من اعلان الدستور ، وتحرير خبر هذه الحادثة هو ان احد رجال جمعية الاتحاد والترقي السلانيكية جاء الى بغداد مندوباً عن الجمعية لتحريض الناس على الانضمام اليهم وحثهم على الاتحاد والسعي فيما يرقي البلاد واجتمع بجماعة من اشراف المدينة وادبائها ثم حضر معهم في جامع الوزير وحضر ايضا العلامة المرحوم شكري افندي الالوسي والشاعر الكبير جميل افندي الزهاوي وبلبل العراق معروف افندي

الرصافي وعبد اللطيف جلبي ثنيان وفريق من الاتحاديين والكتاب والادباء وبعد ان فرغوا من صلاة العصر مع الجماعة صعد الرصافي على كرسي اعد له في وسط صحن الجامع خارج المصلى وتلى الرسالة التي جاء بها مندوب الاتحاديين التي تتضمن الحث على الاتحاد والسعي فيما يرقي الامة والبلاد ثم نزل وخرج الجميع ، ولما تفرق الناس اشاع اعداء الاتحاديين ان القوم قد اهانوا الدين الاسلامي وان الرصافي اسكت قارئ القرآن واهانه من اجل تلاوة كتاب الاتحاديين الى غير ذلك من المفتريات والطعن فيمن حضر لاستماع كتاب الاتحاديين فثارت عامة بغداد في اليوم التالي وضربوا الطبول فتبعهم غوغاء الناء والصبيان وطافوا في الشوارع والاسواق وهم ينادون (الدين يامحمدا) فاغلقت الاسواق خوفا من ان تنهب الدكاكين ولكن هؤلاء الثائرين بينما كانوا ينادون (الدين يامحمدا) نهبوا في طريقهم ما صادفوه على رؤس الباعة وما وجـدوه في بعض الدكاكين المفتوحة وسلبوا بعض اليهود وتجاوزوا بالنهب على قافلة كانت قد جائت من كردستان الى بغداد ومرت في سوق السراي وفعلوا افعالا مخزية ثم صاروا يدخلون السراي ويخرجون منه مراراً و ينادون بطلب الحكم بالشريعة الاسلامية ولغوا الدستور واخيراً خرج اليهم الوالي ناظم باشا الاول ووعدهم بكل ما يريدون فلم يلتفتوا الى اقواله ومواعيده واستمروا على هياجهم فاضطر الوالي الى جمع الاشراف وطلب منهم تسكين الثائرين بالحسنى فخرجوا اليهم في السراي واقنعوهم بمـا وعدهم به الوالي فانصرفوا

وعادوا الى اشغالهم بعد ان دامت ثورتهم بضع ساعات .

اما الذين حضروا ذلك الاجتماع في جامع الوزير من الاتحاديين والاشراف فانهم اختفوا اثناء هذا الفتنة الا ان الحكومة اضطرت الى توقيف الرصافي وعبد اللطيف جلبي اثنيان تسكينا للثائرين وجلبتهما الى مركز الشرطة ثم اطلقت سراحهما بعد ان ثبت لديها كذب ما شاع عنهما . ومن الحوادث التي جرت في ذلك العهد حادثة عزل الفريق ناظم باشا سنة ١٣٢٨ هـ الموافق سنة ١٩١١ م وذلك انه كان قد وجهت اليه ولاية بغداد وقيادة الجيوش العراقيـة سنة ١٣٢٦ هـ الموافقة سنة ١٩١٠ م فادخل في بغداد اصلاحات جمة ووسع بعض الطرق والاسواق وفرش بعضها بالقار وانشأ حول بغـداد سدة تحيط بالمدينة حفظاً لها من مياه الغرق (ولكنه عزل قبل ان يتمها) ونظم الجيش واخضع بحسن تدبيره جميع القبائل العراقية وامن الطرق والبلاد وجمع المجانين المبتلين بالامراض السارية وخصص لكل منهما مكاناً خاصاً واجرى عليهم النفقات ونفي المتشردين من الغرباء الذين لا عمل لهم ولكنه مع الاسف كان محاطا بقرناء سوء من حاشيته مما ادى الى نقم الناس عليه فكثرت شكوى نواب بغداد في العاصمة عليه فعزل .

ولما شاع خبر عزله في بغداد ثارت العامة بايعاز بعض الاشراف الذين كانوا من حزبه وقام غوغاء الناس يطلبون ابقائه وهاجوا وماجوا ثم ضربوا الطبول وذهبوا بجموعهم الى داره واركبوه في عربته وسحبوها به

وهم ينادون تارة (هذا والينا) وتارة (الله ينصر دولتنا ناظم باشا والينا) حتى وصلوا به الى السراي واقعدوه في محله ثم ساروا الى دائرة البرق والبريد وتجمهروا فيها وظلوا يبرقون الى العاصمة يطلبون ابقائه باسم الالوف من الناس ودام الحال طول النهار فلما امس المساء ورد الامر بتوديع الولاية وكالة الى الفريق يوسف باشا وباعلان الادارة العرفية عند الحاجة فتفرق الثائرون واختفى زعماؤهم فالقت الحكومة القبض عليهم وسجنت فريقاً منهم فسكنت الفتنة ، وسافر ناظم باشا بعد يومين من هذه الحادثة .

هذا بعض ما حدث ببغداد في عهد الدستور قبيل الحرب العامة من الحوادث المخجلة التي تعرف منها درجة انحطاط البلاد عدا ما كان يصدر من هؤلاء الولاة من الهفوات في بعض الاحيان وما بثه ارباب الغايات السياسية من بذور التفرقة بين العرب والترك بعد ان لم يكن للتفرقة اثر يذكر ولا كان يوجد فرق بين العربي والتركي والكردي في كل شيء .

اما الحسنات التي جاء بها الدستور الى بغداد فكثيرة منها تأسيس عدة مدارس رسمية للبنين والبنات وتنظيم دار المعلمين وتأسيس مدرسة الحقوق وجعل لغة المدارس عربية وتركية واطلاق حرية العلم والعمل للاهلين وتنظيم دوائر الحكومة وتأسيس كلية الاعظمية على يد الوالي جمال بك بعد ان كانت مدرسة عادية وتنظيم الشرطة والجنود وافول نفوذ المستبدين من رؤساء الدواوين والحكام وامراء الجنود والاشراف

وتأليف المجلس العمومي ببغداد في عهد الوالي جلال بك واستتباب الامن داخلاً وخارجاً ونهوض التجارة والزراعة وجميع اسباب الرقي والعمران واطلاق الحرية للاهلين على تشكيل الاحزاب السياسية والاندية العلمية مما ادى الى نهضة عجيبة في كل شيءٍ ويمكننا ان نقول ان بغداد لم تر عهداً زاهياً بعد عهد العباسيين مثل عهد الدستور وان كان هناك نقصاً او خللاً في بعض الامور التي كنا نأمل اصلاحها لولا النفير العام الذي نودي به في اليوم الحادي عشر من رمضان سنة ١٣٣٣ في عهد جاويد باشا الذي كانت له ولاية بغداد وقيادة الجيوش العراقية .

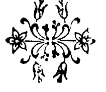
قامت الحرب العامة فاحرقت اليابس والاخضر وجرى ماجرى من الفضايع في بغداد حتى احتلها البريطانيون سنة ١٣٣٥ هـ الموافقة لسنة ١٩١٧ م ولما كان لايسعنا ان نذكر في هذا المختصر كل ما جرى ايام الحرب العامة وفي اثناء الاحتلال البريطاني وماحدث في عهد الحكومة الموقتة والعهد الفيصلي عزمنا على اصدار كتاب خاص نذكر فيه كل ماحدث منذ اعلان الدستور الى تصديق المعاهدة البريطانية التركية العراقية ، ولذلك نرجو من القراء الكرام قبول المعذرة . كما انني ارجوا من حضراتهم العفو عما صدر في هذا المختصر من الجمل الركيكة والالفاظ المترادفة التي جاءت عفواً .

(المآخذ)

الطبری	تاريخ احمد رفيق التركي
ابن الاثير	« علي رشاد «
ابو الفدا	« نعيما «
وفيات الاعيان	« محمد مراد «
تاريخ علم الادب	بغداد صوك حادثه ضياعي لمحمد امين بك
لقطة العجلان	معجم البلدان لياقوت الحموی
دائرة المعارف لفريد بك وجدي	التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
عنوان المجد لابراهيم فصيح الحيدري	طبقات الامم « «
رحلة ابن بطوطة	تاريخ سينا لنعوم بك شقير
قرة العين لرشيد السعدي	نزهة المشتاق ليوسف غنيمة
قطف الزهور	تاريخ محي الدين الخياط
ابن الوردي	تاريخ دول الاسلام لرزق الله
الفهرست	التاريخ العام للاديب التقي البغدادي
تاريخ الامير احمد حيدر	كتاب الدعاة لوجيه فارس
تاريخ الموصل للقس سليمان الموصلي	تاريخ الدولة العثمانية لمحمد فريد بك
الفوز بالمراد للاب انستاس	تاريخ مختصر الدول لابن العبری
خلاصة تاريخ العراق «	مطالع السعود للشيخ امين المدني الحلواني

الفخري لمحمد ابن الطقطقي	تاريخ عبد الباسط
المستدرك ذيل المعجم	تحفة الانام في التاريخ العام

هذا ما اخذناه من مقالات للاستاذ يوسف غنيمة نشرت في اعداد من المقتطف وما اقتبسنا من ابحاث الاب انستاس التي نشرها في دار السلام ومن نبذ تاريخية نشرت في اعداد مختلفة من مرآة العراق البصرية ومن جريدة العرب البغدادية وغيرها .



الفهرست

الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٢	٣	قرن	قرناً
٢	٩	الى صواب	الى الصواب
١٤	٩	في غربي الأعظمية	في شمالي الاعظمية
١٥	٤	كلها اعياد واعراس	اعياداً واعراساً
١٩	١٠	يحب العلوين	يحب العلويين
٢٠	٧	سنة ١٠٤	سنة ٢٠٤
٢٢	٣	الحريب ٣٦٠٠ ذراع مربع	والجريب ٣٦٠٠ ذراعاًمربعاً
٤١	١٣	ففوض اليه تدبير	ففوض اليه الخليفة تدبير
٥٦	١٨	فيحاصرها	فيحاصراها
٥٩	٢	بساور	بسوارين
٧٠	٣	واسوء تدبير	واسوء تدبيره
٧٦	٤	فرمته	فرصة
٧٦	١٦	هذا بخدمته	هذا بخدمة
٩٠	٣	استمر ديساً	استمر ديس
٩٤	١	لها عمومة الراشد	لها احد عمومة الراشد
٩٨	١٥	وصلبها	وصلبهما

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٩٨	١٨	فحملاه	فحملوه
٩٩	١١	تمت مبايعته	تمت مبايعة
١١١	١	والتقو فوق	والتقوا بهم فوق
١١٤	١٦	الكبير المقتول سنة ١٢٢٥	الكبير المتوفي سنة ١٢١٧ ﻫ
١٢٤	٧	فيها الانشاق	فيها الانشقاق
١٤٩	١٧	وزينته	وزينه
١٨٠	١	من ادريته	من ادارية
١٧٢	٧	الموجة	الموجهة
١٨٧	٦	في صحة	في عاصمة
١٩٤	٣	الثاني فاني فانه	الثاني فانه
٢٠٠	١٢	فاستر الاتراك	فاسترد الاتراك
٢١١	١٧	ما كانت لاتخلوا	ما كانت تخلوا
٢١٦	١٤	بعسا كر	بعسا كره
٢٥٠	٩	غوغاء الناء	غوغاء الناس